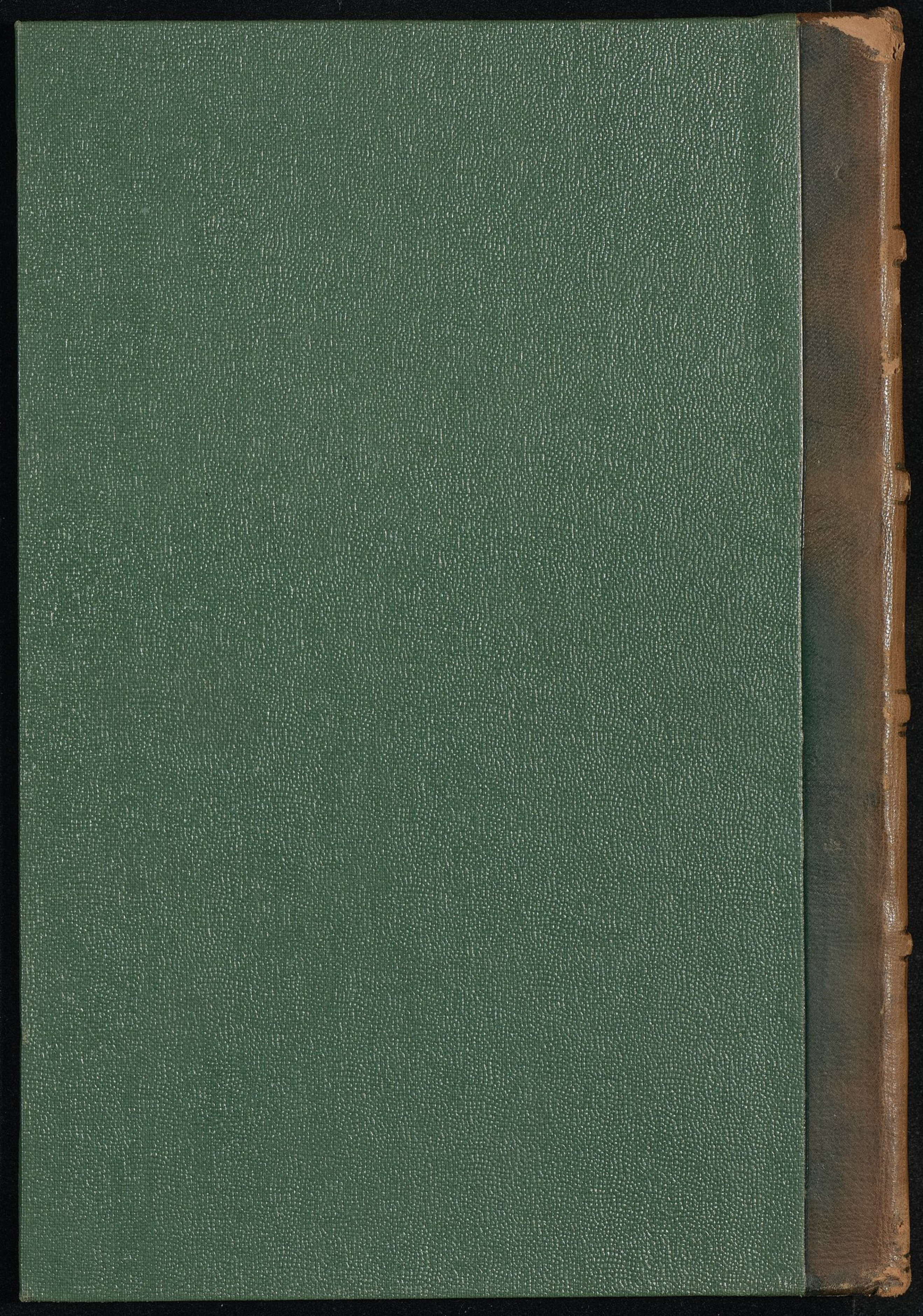
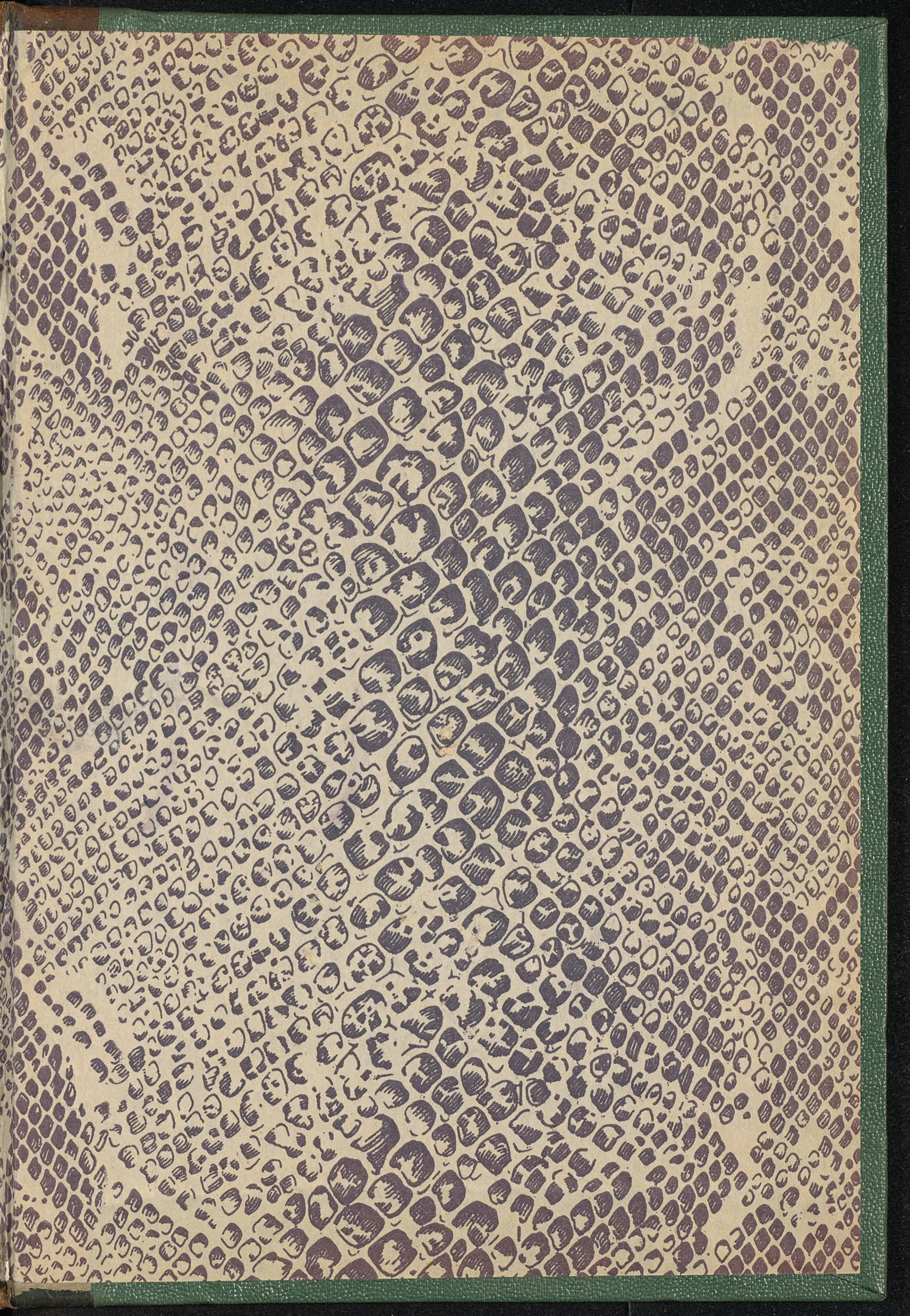
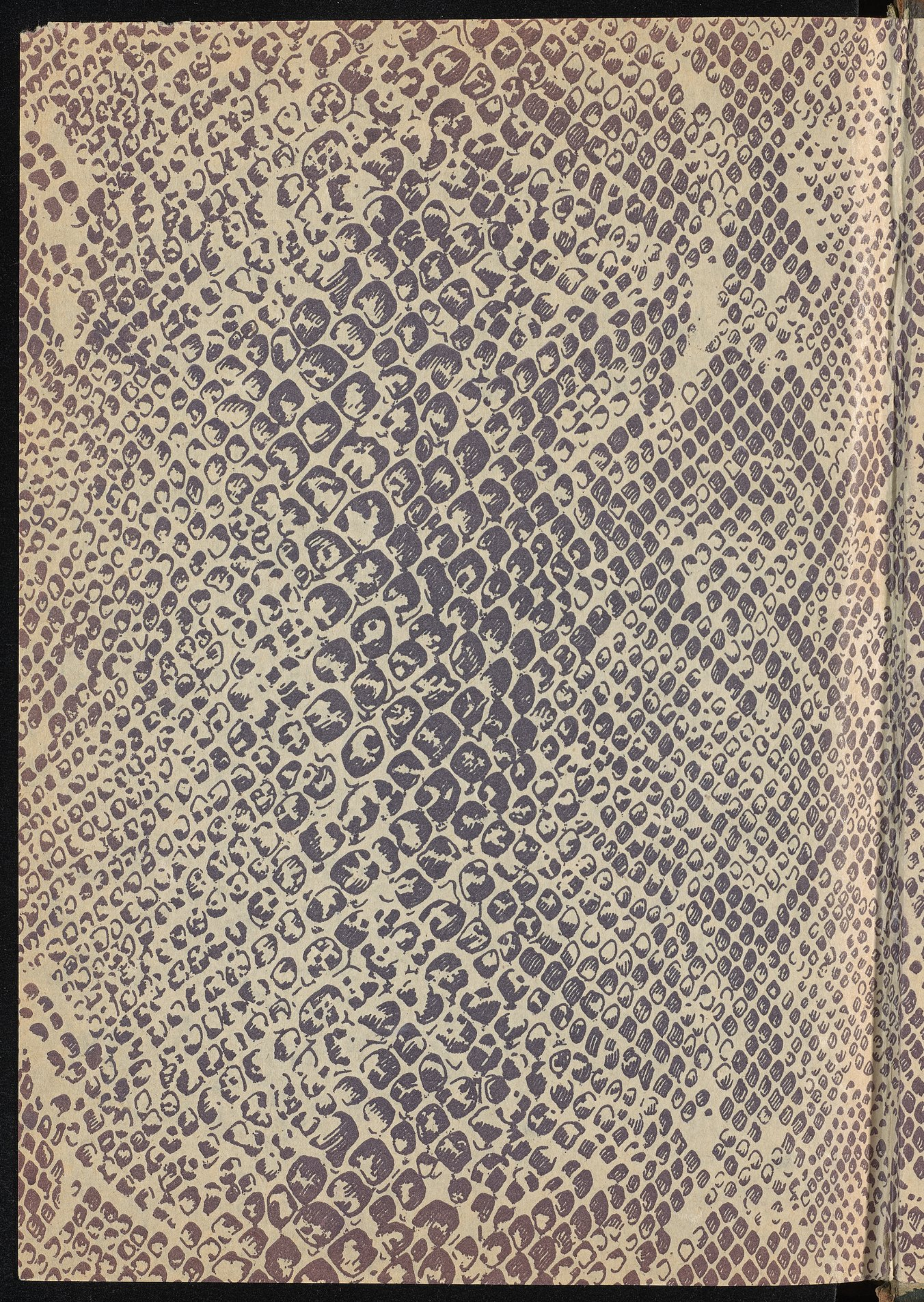
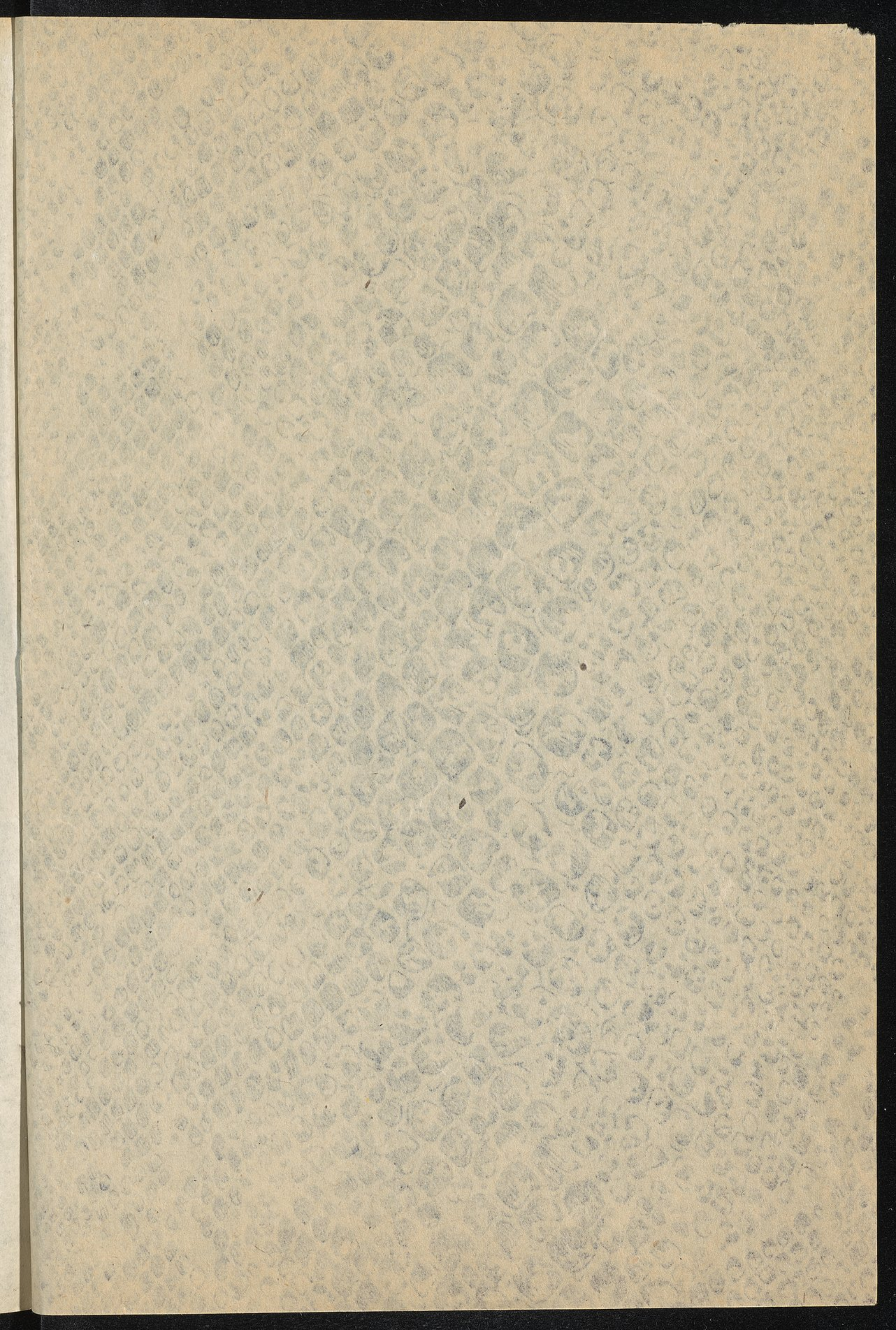








لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب رسل الملوك

ومن يصلح للرسالة والسفارة

تأليف
أبي على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء

حققه
صلاح الدين المنجد

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

مقدمة

لقد عنى مؤرخو العرب أكبر عناية بالخلفاء وحركاتهم وسكناتهم ، وحروبهم وسلمهم ، حتى سجلوا ملامح وجوههم وأشكال أجسامهم ، ونقش خاتمهم .

ولكنهم لم يعنوا مثل هذه العناية ولا بعضها بحالة الشعوب ووصف مرافقهم وأحوالهم من غنى وفقر ، وصحة ومرض ، وعدل وظلم ، ولا عنوا بالنظم الإدارية كما ينبغى ، من نظام المال ونظام القضاء . ونظام الإدارة إلا نتفا قليلة هنا وهناك ، وكتبا قليلة نادرة توجز ولا تستقصى ، مما جعل الباحث عن هذه الأمور وأمثالها يعانى الأمرّين ثم لا يظفر بعد الجهد إلا بالقليل الناقص .

وقد يكون هذا طبيعياً ، فتاريخ الخلفاء والملوك والحروب والغزوات وقائع مادية جزئية يسهل تسجيلها ، أما تاريخ الحركات الاجتماعية والنظم الإدارية والقضائية والسياسية فكليات معنوية ، تحتاج إلى دقة نظر وشمول بحث ، لا يصل إليهما المؤرخون والباحثون إلا بعد النضج و بلوغ درجة سامية من الرقى .

من هذه النظم المجهولة لدينا نظام السفارة : كيف يسفر الرسل إلى الملوك ، وكيف يختارون ، وما اختصاصهم ، وكيف بدأ هذا النظام ، وكيف ارتقى على مر الزمان ، وهل اتبع المسلمون نظاما واحدا فى العراق وفى الأندلس وفى مصر ، أو اختلفت نظمهم ، ومن أشهر الرسل إلى الملوك وما أهم ما حدث لهم من أحداث الخ ؟

كل هذه موضوعات طريفة وهامة معا ، لأنها تدور — فى الأغلب — حول مشاكل دولية ، تعمل فيها العقول الراجحة ، ويختار لها من أجل ذلك أنضج الرجال عقولا وأصلحهم بديهة ، وأقدرهم على التخلص من المواقف الحرجة — وفى عرضها على الناس دروس تحكى تصرف أكبر العقول فى أكبر الأزمات ، إلى ما يتبع ذلك من عرض ما يلقاه الرسول من أمم غير أممهم ، تعيش عيشة اجتماعية وسياسية غير معيشتهم وهكذا .

ولكن — مع الأسف — لم يصل إلينا من ذلك إلا أخبار قليلة مفرقة فى ثنايا أخبار الحروب والخلفاء ، وكان من حسن التوفيق أن عثر الأستاذ صلاح الدين المنجد على كتاب فى هذا الموضوع — موضوع الرسل والسفراء — لابن الفراء سماه « رسل الملوك » .

وهو كتاب قيم فى موضوعه ، يقدم لنا بعض معلومات مما كنا نجهلها ولكن يخرج منه القارئ وهو لا يزال يشعر بظمأ يطلب معه المزيد من الرى ، لأنه ليس مقنعا ولا كافيا ولكن على كل حال — شىء خير من لا شىء . ورى قليل خير من ظمأ مميت .

فعنى الأستاذ صلاح الدين بضبطه وتصحيحه كما يرى القارئ ، ثم أوحى إليه هذا العمل أن يتعرض للدبلوماسية فى الإسلام مقارنا بينها و بين الدبلوماسية فى العصور الحديثة ، فكان موضوعه طريفا طرافة الكتاب الذى نشره .

ونرجو أن يكون هذا الكتاب المنشور الأول من نوعه تتبعه كتب يعثر عليها فى خزائن الكتب الإسلامية المدفونة وأن يكون البحث الأول الذى قدمه الأستاذ صلاح الدين مقدمة لبحوث طويلة مستفيضة إن شاء الله ؟

١٨ / ١ / ٤٧ — أحمد أمين

بيان

أول من عثر على هـذه النسخة من كتاب رسل الملوك هو المرحوم أحمد زكى باشا . فقد صادفه فى خزانة طوب قبو بالقسطنطينية ضمن مجموع مرقوم ٣٠٥٢ يشتمل على كتابين . الأول اسمه محاسن الملوك لمؤلف مجهول ، والثانى كتابنا رسل الملوك للحسين بن محمد المعروف بابن الفراء .

وبادر أحمد زكى باشا إلى تصوير المجموع كله . وضمّه إلى خزانته الزكية بالقاهرة . ثم انتقل إلى دار الكتب المصرية وكتبت عليه هذه الأرقام : ٤١٧/١٩٣٩ . ذ/١٢٩٥٦ . ثم أهدت دار الكتب المصرية نسخة مصورة من هـذا الكتاب إلى علامة الشام الأستاذ محمد كرد على . فضمها إلى مكتبته . وأعلمته ذات يوم أنى فرغت من تصحيح كتاب الديارات للشابشتى ، وأنى جهدت جهدى فى تحقيقه والتعليق عليه . فدفع إلىّ كتابين لأنتقى أحدهما فأحققه ؛ الأول كتاب « مختصر الموافقة بين الصحابة » للزمخشرى والثانى كتاب « رسل الملوك » لابن الفرّاء وقرأت الكتابين ، ثم عدت إلى الأستاذ الجليل بالأول واحتفظت بالثانى .

ذلك لأن كتاب الموافقة بين الصحابة جليل الفائدة عظيم الشأن غير أن موضوعاته شائكة لا يخرج الإنسان منها بغير جروح . أضف إلى ذلك أنه كتاب يتطلب الاطلاع الواسع على المحدثين وطبقاتهم ومعرفة الأحاديث ودرجاتها . ولم أكُ يوم عُرِض ذلك علىّ من أهل هذا الفن لأخوض فيه . فلقد أدركت من يخوض فى كل فن ويدّعى معرفة كل علم . ويصنف فى كل باب . يبتغى أن يكون علاّمة زمانه فزل زلات سمَّته الناس بها جهّالة الزمان .

وقرأت كتاب رسل الملوك . فتبينت فيـه أدبا جما وطرافة نادرة وأصالة فى الموضوع ووحدة فيه . فأغرانى ذلك على تحقيقه وتصحيحه . وأخبرت الأستاذ فوافقنى ودفعنى إلى العمل وقدّم إلىّ الكتاب .

وصف النسخة المصورة

اسم الكتاب : أثبت اسم الكتاب على الصفحة الأولى وهى الورقة الثانية والعشرون بعد المائة من ورقات المجموع . وفيها ما يلى :

كتاب رسل الملوك

ومن يصلح للرسالة والسفارة ومن أمر بإرسال
رسول ومن ينهى عن ذلك . وكيف ينبغى لمن
أرسل إلى ملك أن يعمل للاحتياط لنفسه
ولمن أرسله ومن ذمَّ من الرسل ومن حمـد

تأليف

أبى على الحسين بن محمد المعروف باسم الفراء .

عدد الصفحات : ويبدأ الكتاب بالورقة الثالثة والعشرين بعد المائة . وينتهى بالورقة السادسة والسبعين بعد المائة .

فيكون مشتملاً على ثمان وعشرين ورقة أو ثلاث وخمسين صفحة .

سعة الصفحات : وسعة الصفحات مختلفة لاختلاف أعراضها . لأن طول الصفحات جميعا هو ١٧ سم . أما العرض فمختلف . فهو فى بعض الورقات بـ ١٢ ١/٢ [١] وفى الأخرى ١١ ١/٢ [٢] وفى بعضها ١١ [٣] أو ١٠ ١/٢ [٤] .

الهوامش : وفى أطراف الصفحات هوامش طولانية تبلغ ٢سم وعرضانية قدرها ٣سم .

السطور : وكل صفحة ١٥ سطرا ما عدا الصفحة ١٢٩ آ . فإن فيها ١٦ سطرا . والصفحة ١٧٦ فإن فيها تسعة سطور . وطول السطر ٨ سم .

---

(١) الصفحة ١٣١ — ٦آ .
(٢) « ١٢٤ — ٢آ .
(٣) « ١٢٧ — ٤آ .
(٤) « ١٣٢ — ٦ ب .

الكلمات : وعدد كلمات السطور مختلفة أقلها ثمان وأكثرها ثلاث عشرة كلمة .

الخط : أما الخط فهو من النسخى المشوق تجده صعب القراءة فى بعص الأحايين خاليا من النقط مشكولا شكلا مغلوطا ، وقد لفت نظرنا أن الحركات أثبتت على غير ما نعهد ويلاحظ أن الكسرة قد أثبتت كألف صغيرة تحت الحرف .

تاريخ النسخ : وتاريخ النسخ هو سلخ شهر المحرم أول سنة ٧٩٥ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم .

وليس هناك اسم يدل على الناسخ .

وأغلب الظن أن هذه النسخة فريدة فى العالم ، إذ لم يذكرها بروكلمن فى معجمه . كما أنى نفضت معظم فهارس المخطوطات ، فى مكاتب برلين وباريس ولندن ، فلم أجد له ذكراً .

مؤلف الكتاب

وقد لاقينا فى البحث عن مؤلفه صعوبة ومشقة . فقد عثرنا على رجال عدَّة سموا بهذا الاسم مع موافقة له تارة ومخالفة لكنيته تارة أخرى .

ولم أعثر على ما يرجح أن أحد هؤلاء قد ألف هـذا الكتاب . ونستطيع الجزم أن مؤلفه كان ممن لابس الخلفاء وسكن القصور واطلع على مكنونات الأمور وخفايا الصدور . فإن حديث محمد بن عبد الملك مع رسول ملك الروم لم يرد قط فى المصادر التى بين أيدينا على وفرتها وهو ينقلها نقل واثق عليم ويناقشها مناقشة خبير ذكى . ثم إن مقايسة الخلفاء العباسيين لملوك الروم لا تتأتى إلا لمن كان قد شاهد هؤلاء وعلم أخبار أولئك أو أنه قد تردد بين قصور هؤلاء وهؤلاء .

ونستطيع أن نصل إلى معرفة عصر المؤلف بطرق ثلاث .

١ — تاريخ الحوادث المنقولة .

٢ — تاريخ الأشخاص الذين ينقل عنهم .

٣ — استقراء النصوص ومقايستها بالنثر العربى فى مختلف العصور .

أما تاريخ الحوادث فيبدو لأول وهلة أن مؤلف الكتاب قد يكون عاش فى القرن الثالث

لأنه نقل بعض أخبار المعتصم ولم يتعرض لذكر أمور أخرى ذات صلة بالسفارات وقعت بعده . فلو أنه كان حيا — كما نحسب — لما أغفل ذكر رسالة ملك الروم إلى المقتدر بالله سنة (٣٠٥) ه أى فى أوائل القرن الرابع . ولنوه بما لقى الوافدون من الإكرام والإجلال . وقد ذكر الخطيب وابن مسكويه والمسعودى وابن الجوزى هذه السفارة . ولقد كان فيها ما يثير الاطلاع وما هو جدير بالوصف .

٢ — **تاريخ الأشخاص** : ولكن تاريخ الأشخاص ينقض هذا الظن . ذلك أن المؤلف ينقل عن رجل اسمه أبو زيد فيقول : قال أبو زيد فى السياسة المختصرة . ونستطيع أن نتبين أبا زيد هذا من قول المؤلف بعد إيراد ما قاله أبو زيد ما يلى : وقال غير البلخى . فنعلم أن هذا هو أبو زيد البلخى وقد ذكر ابن النديم وغيره أن له كتاب السياسة الكبير وكتاب السياسة الصغير . ولعل هذا الكتاب الأخير هو ما يسميه ابن الفراء بالسياسة المختصرة . لكن أبا زيد مات سنة ٣٢٠ ه على أحد الأقوال . أى فى الربع الأول من القرن الرابع . فيكون أبو زيد أقدم رجل ينقل عنه . ونستطيع أن نجزم إذن أن مؤلف هذا الكتاب شهد القرن الرابع

٣ — ثم لنرجع إلى النصوص لعلّها تؤيد ما وصلنا إليه .

وإذا تتبعنا النصوص ونقدناها تبين لنا أنّ أسلوبها فصيح مشرق فيه انتقاء وتخيُّر فلا ركاكة ولا التواء بل الأسلوب قصد مستقيم فيه حلاوة وله طلاوة . استمع إليه يقول :

« اختر لرسالتك فى هدنتك وصلحك ومهماتك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا حصيفا بليغا حوّلا قلّبا ذا رأى جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد فطنا بلطائف التدبير مستقلا لما ترجو أو تحاول بالحزامة وإصابة الرأى ساميا إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعه عنك . . . »

فهذا أسلوب فصيح لا نراه فى العصور المتأخرة بل لا نراه بعد العصر الرابع . ولو أنه كان متأخرا عن هذا العصر لكان أقل إشراقا وأكثر ركاكة كالنصوص التى نراها فى التبر المسبوك للغزالى وغيره .

ونخلص من هذا كله إلى أن مؤلف الكتاب كان فى القرن الرابع للهجرة وقد يكون أدرك أوائل الخامس .

***

ولنستعرض الآن أسماء الرجال الذين عرفوا واشتهروا بالفراء أو بابن الفراء لنرى أيهم أقرب أن يكون موافقا اسمه اسم.

أبى على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء

١ — فهناك الحسين بن محمد بن خلف أبو عبد الله بن الفراء كان أحد الشهود المعدلين وهو والد القاضى أبى يعلى. توفى سنة ٣٩٠ وكان رجلا صالحا على مذهب أبى حنيفة[(١)] يؤخذ على هذا أمران :

(ا) أن كنيته أبو عبد الله وكنية صاحبنا أبو على.

(ب) يستبعد أن يؤلف شاهد معدل على مذهب أبى حنيفة كتابا على الرسل يجرى فيه هذا المجرى الأدبى وخاصة أنه لم ينقل عن أبى عبد الله ما يدل على أنه كان أديبا ولم ينص أحد على تأليفه مثل هذا الكتاب.

٢ — وهناك الحسين بن مسعود البغوى المعروف بابن الفراء المحدث الفقيه محيي السنة مات سنة ٥١٦ . وقد نسبت دار الكتب المصرية فى فهرسها هذا الكتاب له . وهى مخطئة. ويؤخذ على هذا ثلاثة أمور :

(آ) اسم أبيه مسعود فهو يخالف اسم أبى صاحب الكتاب.

(ب) لم يذكر من ترجم له أنه ألف كتابا فى الرسل لننسبه إليه.

(ج) مات فى القرن السادس وليس هذا بعصر مؤلف الكتاب.

٣ — وهناك يحيي بن زياد النحوى الفراء.

وهذا يسقط من نفسه لأمور لا حاجة لتبيانها.

٤ — وهناك محمد بن الحسين بن خلف أبى يعلى ابن الفراء مات سنة ٤٥٨ . وهذا يسقط أيضا ويلحق بمن سبقه.

٥ — وهناك الحسين بن محمد الكاتب الفراء. قال الخطيب : هو الحسين بن محمد ابن القاسم أبو عبد الله الكاتب الموصلى. يعرف بالفراء. حدّث عن أبى هارون موسى بن محمد الزرقى حدثنى عنه محمد بن أحمد الأشنانى كان ينزل قطيعة عيسى. وكان صدوقا.

---

(١) الخطيب البغدادى ٨ / ١٠٢ .

ويؤخذ على هذا أمور :

(ا) يعرف بالفراء وصاحبنا معروف بابن الفراء .

(ب) كنيته أبو عبد الله ، وكنية ذاك أبو على .

ولكن كونه كاتبا يجعلنا نميل إليه . لأن الاختلاف الكنية كثيرا ما يقع ولعل له ولدا كان اسمه عبد الله فكنى به .

فمن بين هؤلاء المشارقة لا نجد أقرب من الأخير إلى كونه المؤلف .

وإذا تركنا المشرق ولينا وجهنا شطر المغرب رأينا أديبا كان يعاصر ابن شهيد اسمه الحسين بن محمد الكاتب القرطبي . قال السمعانى / ٤١٩ . ويعرف بابن الفراء . ويكنى بأبي الوليد يروى عن أبي عمر بن دراج وأبي عامر بن شهيد . قال الحميدى . وقد وردت حاشية فى بغية الملتمس يفهم منها أنه كان يكتب إلى اسمه أبا على ، فإذا دققنا فى هذا نجد ما يلى :

١ — أن اسمه واسم أبيه يوافقان الاسم المذكور فى الكتاب .

٢ — يعرف بابن الفراء وهذا يوافق صاحب الكتاب .

٣ — كان يعاصر ابن شهيد وابن شهيد مات سنة ٤٢٦ أى فى أول القرن الخامس .

٤ — كان كاتبا وهو يرجح كونه مؤلف الكتاب .

٥ — كون كنيته أبا الوليد لا تستدعى إسقاطه فقد يكون له كنيتان وخاصة بعد أن ذكر أنه كان يضاف إلى اسمه أبو على .

على هذا يكون مؤلف الكتاب أحد رجلين الموصلى أو القرطبى ودلائل القرطبى أقوى .

وقد يرد اعتراض على الأخير ويمكن أن يقال : إن الأندلس قد شهدت سفارات عدّة وخاصة سفارات الروم إلى عبد الرحمن ، وقد كان يمكن أن يضيف المؤلف ما جرى فى قرطبة أو ما سمع أنه جرى فيها والكتاب كله خلو من كلمة واحدة عن الأندلس . والجواب عن هذا أن ليس من المستبعد أن يخص أندلسى كتابا بالشرق ورسله . وقد كان المغاربة مولعين بالشرق وأخباره يتتبعونها ويؤلفون فيها وكانوا يعظمون علماءه ويبجلونهم وكانوا مفتونين بكل ما أتى من المشرق البعيد . وهذا أمر لا محل لتفصيله هنا . ولقد ألف ابن عبد ربه

كتابه العقد فى الأدب فما ترجم فيه لشاعر أندلسى ولا تكلم على ناثر مغربى بل كان كل ما فيه — خلا أبيات — بضاعة من المشرق خرجت منه ثم ردّت إليه .

ميزة الكتاب

ومهما يكن من أمر فإن لهذا الكتاب ميزات كثيرة تتلخص فيما يلى :

١ — قلّ أن تجد فى كتب القدامى وحدة متماثلة فى الموضوع . وأكثر ما تجد هذه الوحدة يعتريها خلل بإضافة موضوعات ثانية إلى الموضوع الأول أو استطرادات كثيرة . وكتابنا هذا يؤلف وحدة متماسكة ، فيدور موضوعه على الرسل ، رسل الملوك ورسل الخواص .

٢ — إن موضوع الكتاب نفسه نادر ، فبحث المؤلف عن رسل الملوك والصفات التى ينبغى أن تتوفر فيهم يجعل الكتاب ذا شأن . لأن هذا الموضوع ذو نسب بعلم الحقوق الدولية العامة الذى أنتجته الأعصر الحديثة . يضاف إلى ذلك أن هذه الصفات التى قررها صاحب الكتاب تشابه كل الشبه الصفات التى تطلب فى أيامنا من الرسل والسفراء الدبلوماسيين . وهذا يدل على أن العرب فطنوا لهذه المبادىء التى نجدها اليوم فى الدبلوماسية الحديثة وقد فصلنا هذا فى دراستنا عن الرسل والسفراء عند العرب .

٣ — فى الكتاب صفحات من الدبلوماسية بين العرب والبيزنطيين فى العصر العباسى وفيه حوادث لم نجدها فى الكتب الأخرى ، كاجتماع رسول ملك الروم بابن عبد الملك بن الزيات وما دار بينهما . وهذا الفصل من أمتع فصول الكتاب ، يبيّن طريقة تلقى الرسل الروم ويعطى صورة عن الأحاديث التى كانت تدور ، ثم إن المقايسة بين ملوك العرب وملوك بيزنطية رائعة ذات قيمة ، لندرة ما لدينا من النصوص القديمة عنها .

٤ — فى الكتاب نصوص من كتب جياد نادرة . كخداينامه لابن المقفع المفقود الذى يزعم بعض المستشرقين أن المؤرخين العرب أخذوا عن هذا الكتاب طريقة التأريخ التى نراها فى كتبهم ، على أن النص الذى نجده فى كتابنا هذا لا يدل على ما ذهبوا إليه .

وكذلك نجد نصوصاً كثيرة من كتاب السياسة العامة وهو الكتاب الذى ألفه أرسطو لإسكندر . وكان من هذا الكتاب نسخة فى برلين ما ندرى ما آل إليه أمرها .

و إلى جانب ذلك نجد كثيراً من النصوص المختلفة المنقولة عن يونان والهند والفرس ، وهى تبين مبلغ شغف العرب فى ذلك العصر بها وغايتهم بها . وكلها جديدة .

وعندى أن قيمة الكتاب تظهر فى هذه النصوص الجديدة التى يقدمها لنا و يطلعنا عليها ، والتى تضيف إلى معارفنا السابقة معارف جديدة حول موضوع رسل الملوك .

نهجى فى تحقيق الكتاب

وقد اتبعت فى تحقيق الكتاب أصول النشر الحديثة . فقد عنيت بتصحيحه وضبطه وقابلت نصوصه وما ورد فيه من الشعر بما ورد منها فى الدواوين وكتب الأدب والأخبار . وأثبت ما بينهما من اختلاف وأضفت الناقص وأشرت إلى المزيد .

وقد أثبت رواية كاملة وجدتها فى غير كتاب ولم أجدها هنا رغبة فى إخراج النص صحيحاً واضحاً لا عيب فيه . ولقد شرحت ما ورد فى الكتاب من ألفاظ صعاب ورددت إلى الصحة ما صرف منها وأبنت عن معان غوامض فى الأبيات ، وحققت تواريخ ملوك العباسيين وملوك الروم . وعلى الجملة فقد جهدت أن يكون الكتاب لطيفاً سهلا جيداً .

وألحقت به فهارس متنوعات تيسر على القارىء معرفة ما يريده أو يرغب فيه من الكتاب .

شكر

و إنى لأشكر هنا علامة الشام الأستاذ محمد كرد على بك الذى هدانى إلى هذا الكتاب فأخرجته فله الفضل فى ذلك . كما أشكر الشكر الجزيل العلامة الكبير صاحب الأيادى البيض على نشر الثقافة ، الأستاذ أحمد أمين بك الذى تفضل فوافق على طبع الكتاب وقدّم إلىّ ملاحظات كثيرة ذات شأن .

وأشكر أيضاً كل من أعاننى على فهم لفظه أو حلّ جملة أو تفسير مغلق من الأساتذة والأصدقاء .

كما أشكر سلفاً من يقرأ كتابى فيجد فيه خطأ فينبهنى إليه .

صلاح الدين المنجد

أبواب الكتاب

---

(١) فى الأصل : القلق .

(٢) فى الأصل : « من » .

(٣) فى الأصل : « تبذيره » .

ما ترمز إليه الأقواس

﴿ ﴾ آية قرآنية

[ ] النصوص المضافة من مصادر ثانية

< > الحروف أو النصوص المضافة من عند المصحِّح

( ) يدل على أوائل صفحات المخطوطات وأواخرها

آ — الوجه الأول المفرد

ب — الوجه الثانى غير المفرَد

(؟) ما لم يمكن فهمه

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الإعانة

الحمد لله الذى اتخذ الحمد لنفسه لينيل به ثواباً عباده[1]، ففتح به كتابه، وختم به دعاء أهل جنَّته، فقال فى كتابه ﴿أن الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِين﴾[2]. وصلى الله على أكرم رسولٍ جاءَ بالحكمةِ والموعظة الحسنة، هادياً لهم إلى طاعته، وذائداً لهم عن معاصيه؛ محمد النبيّ وآله الطاهرين، وسلِّمْ تسليماً.

سألتنى — أيدكَ الله — أن أبيِّنَ لك فضل الرسل، وَمَن يصلح للرسالة والسِّفارة، ومَنْ أمر مِن الملوك الأوائل، والحكماء الأفاضل، بإرسال رسول، ومَنْ نهى عن ذلك، وكيف تكون صفة الرسول، وما ينبغى لمن أُرسل لملك إذا كان منازلاً لملك أن يعمل فى الاحتياط لنفسه، ولمن أرسله، ومَنْ حُمِدَ على قديم الوقتِ من الرسل ومن ذُمّ، وما قالت الحكماء والبلغاء والشعراء فى ذلك، وما وَرَد من ذكر الرسول فى كتاب الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومَنْ خان ملكه لمتعجّل بِرٍّ أو فائدة، وما جازاه به مرسله على ذميم فعله، ومَنْ رُسِّل[3] برسالة غليظة فأدّاها، والوجه الذى به احتال إلى أن نجا من شر ما حُمِّله، ومن نَصَح من الرسل لملكه وزانه برسالته، ورفع من ملكه ببيانه وعبارته . . .، فأجبتُك إلى (٢ آ) سؤالك، اعتماداً منى لمسرّتك، وعلماً أنك غنىٌّ < عن > يسير ما أعلم بكثير ما تعلم، آخذاً بالأدب فى مسارعتى إلى الأمر؛ و إلى الله أرغب فى الهداية والتوفيق برحمته.

---

(١) فى الأصل «من عباده»

(٢) سورة يونس ١٠ / ١٠

(٣) رسل كأرسل (اللسان)

الباب الاول

« أذكر فيه ما جاء فى كتاب الله عزَّ وجل من ذكر الرسل »

« ووجوب حق تعظيمهم والانقياد إليهم »

قال الله تعالى ﴿ كما أرسلنا فيكم رَسُولا منكم ، يتلو عليكم آياتِنا ، ويزكيكم ، ويُعَلِّمكم الكتابَ والحِكمة ، ويعلِّمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ (١) .

وقال تبارك اسمه ﴿ رُسُلًا مبشِّرين ومُنْذِرين لئلا يكونَ للنَّاسِ على الله حُجَّة بعدَ الرسل ﴾ (٢) .

وقال عزَّ من قائل ﴿ يا أيُّها الناس قد جاءَكم رسولُنا يُبَيِّنُ لكم على فَتْرَة من الرُّسل . أنْ تقولوا ما جاءَنا مِنْ بشيرٍ ولا نذيرٍ ، فقد جاءَكم بشيرٌ ونذيرٌ ، واللهُ على كل شىء قدير ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ إنَّا أرسلناك بالحق بشيراً ، ولا تُسْأَلُ عن أصحاب الجحيم ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ وما أرسلناكَ إلّا (٤ ب) رحمةً للعالمين ﴾ (٥) .

وقال تعالى فى أنه لا يجوز أن يُرْسَلَ إلى أمّة إلّا منهم مَنْ يَفْهَمُ لغتَهُم ، ومَنْ هو دَرِبٌ (٦) بها ، فهو أحجُّ عليهم ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلّا بلسان قومِه ليُبَيِّن لهم ﴾ (٧) .

وقال تعالى ﴿ إنّا أرسلنا إليكم رسولًا شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرْعون رسولا ، فعصى فِرْعَونُ الرسولَ ، فأخذناه أخذا وَبيلا ﴾ (٨) .

وقال تعالى ﴿ فعَصَوْا رسولَ ربِّهم ، فأخذهم أَخْذَةً رابية ﴾ (٩) .

وقال تعالى ﴿ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وداعِياً إلى الله بإذنه وسِراجاً منيرا ﴾ (١٠) .

---

(١) سورة البقرة / ١٥١
(٢) سورة النساء / ١٦٤
(٣) سورة المائدة / ٢١
(٤) سورة البقرة / ١١٩
(٥) سورة الأنبياء / ١٠٧
(٦) هو درب بالأمر أى عالم به (الأساس)
(٧) سورة النساء / ٦٣
(٨) سورة المزمل / ١٥ — ١٦
(٩) سورة الحاقة / ١٠
(١٠) سورة الأحزاب / ٤٥ .

أسماء رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم

< أرسل > جريرَ بنَ عبد الله[1] إلى ذى الكَلاع . وأرسل إلى جَبَلَة بنِ الأيْهَم شُجَاعَ بنَ وَهْب الأسدى ، قال الواقدى : بل إلى شِمْر بنِ الحارث بن أبي شِمر[2] . وأرسل إلى المقوقس صاحبِ مصر حاطِبَ بنَ أبي بلْتَعَة حليفَ بنى أسد ، فأكرمه ووصله و بعثَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمارية أمِّ إبراهيم صلى الله عليه ، ومعها خصىٌّ وأختها أم عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت[3] ، و ببغلته دُلْدُل ، وحمارِه يعفور[4] . وأرسل عمرو ابنَ العاص[5] إلى جَيْفَرَ[6] وعبد[7] ابنى الجُلَنْدَى بن المستكبر الأزديَّين بعُمان . فأسلما

(١) فى الأصل « جابر بن عبد الله » والذى أرسل هو « جرير بن عبد الله » . انظر : الإصابة (٢ : ١٨٣) ، أسد الغابة (٢ : ١٤٣) ، الاستيعاب (١ : ٩١) .

(٢) كذا فى الأصل . وقيل بل إلى « المنذر بن الحارث بن أبي شمر » انظر : البداية والنهاية (٤ : ٢٦٨) . وفى سائر المصادر « إلى الحارث بن شمر الغسانى » . انظر : الطبقات الكبير (٣ : ق ٢ ، ٦٦) ، أسد الغابة (٢ : ٣٨٦) ، سيرة ابن هشام على هامش الروض (٢ : ٣٥٣) .

(٣) على هذا جمهرة المؤرخين . وقال بعضهم « بل أهدى إليه ثلاث جوار » انظر : فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٤٣) ، البداية والنهاية (٤ : ٢٧٢) .

(٤) وقيل إن اسمه « عفير » . انظر : فتوح مصر للواقدى (ص ١٦) .

وقد كان فى الهدية « أشياء أخرى ، منها ألف مثقال من ذهب ، وعشرون ثوباً ليناً » ذيل المذيل للطبرى (٢٤٦٢) ، « وقدح من قوارير كان يشرب فيه النبي » الروض الأنف (٢ : ٣٥٥) ، « وخفان ساذجان أسودان » البداية والنهاية (٤ : ٢٧٣) ، « وعسل » الاسحاق (ص ٢٠) « ومسك وعود وطيب وعمائم قباطى » فتوح مصر للواقدى (ص ٢٠) .

انظر يضاً : فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٤٣) ، والمقريزى (١ : ١٢٥) وحسن المحاضرة (ص ٥٨) .

(٥) فى البداية والنهاية (٤ : ٢٧٣) أنه العلاء بن الحضرمى .

(٦) فى الأصل « خالد » وهو خطأ . وفى السيرة الحلبية (٢ : ٣٧٤) « جعفر » والصواب أنه « جيفر كجعفر » . انظر : الإصابة (١ : ٢٧٤) ، أسد الغابة (١ : ٣١٣) ، الاستيعاب (١ : ١٠١) سيرة ابن هشام — الروض (٢ : ٣٥٣) ، القاموس المحيط (مادة جفر) .

(٧) اختلف فى هذا الاسم . فهو « عبيد » الإصابة (١ : ٢٧٦) ، و « عباد » الإصابة (٥ : ٨٨) ، الطبرى (٣ : ١٥٦٠ ، I) ، ابن الأثير (٢ : ١٨٥) . و « عياذ » الإصابة (٥ : ١٢٥) الوفا فى سيرة المصطفى لابن الجوزى (مخطوط ببرلين 9573 الفصل الثلاثون) ، سيرة ابن هشام ط ١٢٩٥ (٣ : ٧٦) . و « عبد الله » القاموس (مادة جفر) ، تاج العروس (٣ : ١٠٥) . وهو أيضاً « عمرو » إمتاع الأسماع (١ : ٤٣٣) ، و « عمار » البداية والنهاية (٤ : ٢٧٣) ، و « عبد » الإصابة (٥ : ١٠٠) ، أسد الغابة (١ : ٣١٣) ، الطبقات الكبير (٧ : ق ٢ ، ١٨٨) ، فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٧٦) . وقد أثبتنا عبداً لوروده فى أمات الكتب الموثوقة وفى الأصل .

وغلبا على عُمان . < وأرسـل > دِحْية بنَ خليفَة الـكلبى إلى قيصر ملك الروم فأخذ
كتابَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ووضعه على خاصرته ، ووصل دِحية ، وقال : «لو كان
فى بلادى لاتبعتهُ[1] ونصرتُه[2] » . وأرسل عمرو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرى إلى النجاشى ، وأرسل
سليطَ بنَ عمرو[3] أخا عامر بن لؤى إلى أهل اليمامة ؛ قال الواقدى : « وأُرسل إلى هَوْذَةَ
ابن على الحنفى » . وأرسل العـلاء بنَ الحضرمى حليفَ (٥ آ) بنى أسد ، إلى المنذر بن
ساوى العبدى وأهلِ البحرين ، وكتبَ إلى المنذر كتاباً ، فأسلموا و بعثوا بخراجهم .

وكان أولَ ما وردَ المدينة خراجُ البحرين ، وهو سبعون ألف درهم[4] . [و بعث
المهاجر بن أبى أميّة المخزومى إلى الحارث بن عبد كَلال الحِمْيَرى ملك اليمن][5] . وأرسل
عبد الله بنَ حُذافة السَّهمى إلى كسرى بن هِرْمز فلما قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « بدأ باسمه قبلى . . . ! » وقَدَّ[6] كتابه سيوراً[7] . فقال رسول الله صـلى الله
عليه وسلم : « اللهم مزّق فارس كل ممزّق »[8] ، فما أفلحوا بعد دعوة رسول الله صلى الله
عليه وسلّم .

---

(١) فى هامش الأصل « لتبعته » .

(٢) فى الطبرى (٣ : ١٥٦٧ ، I) « إن هرقل قال لدحية : ويحك ، والله إنى لأعلم أن صاحبك نبى مرسل ، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولـكنى أخاف الروم على نفسى ولولا ذلك لاتبعته » وانظر : الروض الأنف (٢ : ٣٥٥) .

وقد خالف بعض المؤرخين فى ذهاب دحية نفسه إلى قيصر ، وزعم أن رسول الله بعث بكتابه مع دحية وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه هذا إلى قيصر . انظر : الطبقات الـكبير (٤ : ق ١ ، ١٨٥) صبح الأعشى (٦ : ٣٥٩) .

(٣) فى الأصل « سليط بن قيس » . والصواب ما أثبتنا . انظر : الإصابة (٣ : ١٢٣) أسد الغابة (٢ : ٣٤٤) ، الاستيعاب (٢ : ٥٩٦) ، وكذا فى الواقدى والطبرى ، وابن هشام ، وإمتاع الأسماع للمقريزى .

(٤) فى معجم البلدان (١ : ٥٠٩) : « فبعث العلاء إلى الرسول مالا من البحرين يكون ثمانين ألفا ما أتاه قبله أكثر منه ولا بعده » .

(٥) الزيادة من سيرة ابن هشام — الروض (٢ : ٣٥٣) .

(٦) قد : شق طولا (القاموس) .

(٧) السير الذى يقد من الجلد (القاموس) .

(٨) فى الطبرى (٣ : ١٥٧١ ، I) السنة السادسة : « فقال الرسول : مزق ملكه » وفى البداية والنهاية « مزق كسرى ملكه » (٤ : ٢٦٩) أو « يمزق ملكه » نفس المصدر . (٤ : ٢٧١) .

الباب الثانى

« أذكر فيه لِمَ أرسلَ الله تعالى البشرَ إلى البشر دون أن يجعَل رُسلَه »
« ملائكةً أو غيرهم مِنْ خلقه ووجه الفائدة فى ذلك »

قد كان فى قُدرة الله جَلَّ وعلا أن يُلْقِىَ فى قلوب الأمم الإيمان ، ويوفقهم لما يرضاه من الشرائع والأديان ، من غير أن يبعثَ فيهم الرسل ، ويُعَرِّفَهُم الآياتِ (٥ ب) والنُذُر ؛ ولكنه ، تبارك اسمه العظيم ، لرأفته بهم ، وإحسانه إليهم ، بَعَثَ فيهم مِنْ أَنفُسِهم مَنْ يُخَاطِبُهم بألسنتهم ، ويهديهم لمراشدهم[1] ، عاطفاً عليهم بالمجانسة ، ورؤوفاً بهم للقرابة . قال الله تعالى جَدّه ﴿ لقد جاءكم رسولٌ مِنْ أنفُسِكم ، عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم[2] . حَرِيصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[3] .

---

(١) المراشد : مقاصد الطرق (القاموس) . (٢) فى الأصل « ما عندتم » .
(٣) سورة التوبة / ١٢٩ .

الباب الثالث

« أذكر فيه ما أوجبه الله تعالى على مخالفى الرسل من العذاب »

قال سبحانه ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبين حتى نبعثَ رَسُولًا ﴾[١] .

وقال جلّ اسمه ﴿ وما كان ربُّك مُهلِكَ القرىٰ حتى يَبْعَثَ فى أُمِّها رَسُولًا ﴾[٢] .

وأوْجَبَ سبحانه العذابَ عند عصيان الرسول ، فقال تبارك اسمه ﴿ كما أرسلنا إلى فِرْعَوْنَ رَسولا ، فعصى فرعونُ الرسول ، فأَخَذْنَاه أخْذًا وبيلا ﴾[٣] .

وقد فَضَّلَ الله سبحانه المرسلين من أنبيائه على غير المرسلين لتبليغ الرسالة ، وتحمّلِ ثِقلِ[٤] الأمانة ، والصبرِ على أذى الكافرين وتكذيب الجاحدين .

ومِنْ أَخَصِّ المنازل عند الملوكِ وألطفِها ، وأقربِ الأسباب منها[٥] وأوصلِها ، منزلةُ المترسِّلِ بينها و بين أضدادها .

---

(١) سورة الإسراء / ١٦
(٢) سورة القصص / ٥٩ .
(٣) سورة المزّمل / ١٥ — ١٦
(٤) فى الأصل « نقل » .
(٥) فى الأصل « بها » .

الباب الرابع

« أذكر فيه أنّ الكتاب مقصور على معناه الذى يتضمّنهُ لا يتعدّاه إلى »
« غيره ، وأن الرسول يتصرّف فى مذاهب الحجّة ؛ وأبرهن أن الكتاب »
« يد ، والرسولَ لسان ، وأن الواجب على الملوك أن يقرنوا كتبهم »
« بالرسل لما فى ذلك من كمال الفائدة ووجوب الحجّة ، ولقَطْع الرسول »
« الأمر إذا كان مأموراً من غير مراجعةٍ ولا احتياج إلى استئذان مرسله »

قال الحكيم : « الكتاب يَدٌ والرسولُ لسان » .

وقال غيره : « الكتابُ مقصورٌ على معناه الذى يتضمّنه لا يتعدّاه إلى غيره ، وللرسول أن يتصرّفَ فى أنحاء الحُجَّةِ ، ويتأتّى[1] لِنظْمِ الأُلْفَة ، ويحرصَ على دَرْكِ البُغيَة ، ويجتهدَ فى نُجْحِ الطِّلْبَة ، اجتهادَ مَنْ يرى أنَّ فى تمام الأمر على يده ، وانتظامِه بسعيه وسِفارته ، دليلاً على موقعه ، وتيمُّنًا بطائره . ورُبَّما حُكِّم الرسولُ فى الأمور وخُيِّر فى التدبير ، على حسب ما توجبُه المُشاهدة ويُستَصَابُ[2] فى البَدْءِ والعاقبة .

قال بعض الأدباء من الحكماء :

ليس الكتابُ ببالغٍ لك مبْلَغًا … حتى يكونَ مع الكتابِ رَسولُ
ما فى كتابك غيرُ مَا حَمَّلْتَهُ … لكنْ رسولُك كيف شاءَ يقول
فإذا جَمَعْتَهُمَا ولم تُفْرِدْهما … بُلِغَ النجاحُ وأُدْرِكَ المأمول

وقال غيرُه ممن يجرى فى الحكمة مجراه :

اقْرِنْ كتابك بالرسول فإنّه ، … أقضى لما حاولتَ فيه وأعذرُ
وإذا اقتصرتَ على الكتاب فإنّ مَنْ … كاتَبْتَ فى ردِّ الجواب مُخَيَّر
إنْ آثر التقديم فهو مقدَّم … أو آثر التأخير فهو مؤخَّر[3]

---

(١) فى الأصل « يتانا » . ويقال : تأتى فلان للأمر إذا تهيأ له وأتاه من وجهه (اللسان) .
(٢) يستصاب : يصوب رأيه (الأساس) .
(٣) الضمير فى مقدم ومؤخر يعود على الجواب .

وقال حكيم العرب فى التفويض إلى الرسول :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً فأرْسِل حكيما ولا توصه[١] (٦ ب)

على أن هذا المذهب مرذول عند الحَزَمَة[٢] الألِبّاء[٣] والمجر بين العقلاء ، الذين خبَرُوا الأمور بفِطَر عقولهم وأضافوا إليه ما استفادوا من تجارب أيامهم .

(١) البيت لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب . انظر : الإصابة ، والمحاسن والمساوئ للبيهقى (ص ١٦٩) .

(٢) الحزمة ج حازم . (القاموس) .

(٣) ألباء كأشداء ج لبيب وهو العاقل (القاموس) .

الباب الخامس

« فى نهى الرسول عن تَعَدّى ما أُرسل به ، وأن يخطىء برأى المرسِل »
« ولا يصيب برأيه ، ونهيه عن الوهم بالرسالة أوالتحريفِ لها و إلاّ أحْوَجَ »
« إلى رسولٍ ثان »

أمروا بأداء الرسالة على وجهها ، ونَهَوْا عن الشك والتحريف خيفة احتياجٍ ما[1] إلى رسول ثان . فأخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء المجيدين والحكماء المطبوعين فقال :

إنى انتدبتُكَ للرسـالة بعد ما ... دبّرتُ أمرى مبدئاً ومُعاوِدا
اعلمْ بأنّكَ إن أضَعْتَ وَصيّتى ... فأصبْتَ لم أكُ للإصابة حامدا
و إذا أجَدْتَ بهـا فعاقَكَ عائق ... عما أردتُ بسطتَ عذركَ جاهدا
إنّ الرســول إذا استبد برأيه ... وعصى وَلِيَّ الأمر كان مُعانِدا

وقال بعض الشعراء فى رسولٍ وَهِمَ فأَحْوَجَ مرسِلَه إلى رسول ثان :

شرّ الرسولين مَنْ يحتاج مرسلُه ... [منه] إلى العود والأمران سِيّان[2]
لِذاكَ ما قال أهلُ العلم فى مَثَـلٍ ... طريقُ كلّ أخى جهل طريقان

---

(١) فى الأصل « خيفة ما احتياج » .
(٢) سقطت فى الأصل « منه » والتصحيح عن مروج الذهب (٢ : ٥٤٢) .

الباب السادس

« أذكر فيه كيف ينبغي للرسول أن يغفل إذا سفر بين ملكين ، وكان »
« أحدهما يرعد ويبرق ، ويعد ويستعد ، ليصغِّر إليه نفسه ، وما أجاب »
« به بعض الرسل وقد عوتب على أنه لم يعر شيئاً مما رآه طرفه ، مما عَظُم »
« به فى عين من أُرسل إليه ، وملكِه . »

قال الحكيم :

« اخْتَر لرسالتك فى هدنتك وصلحك ومهمَّاتك ومناظرتك والنيابة عنك ، رجلاً حصيفاً ، بليغاً ، حُوَّلاً قُلَّباً[١] ، قليلَ الغفلة منتهز الفرصة (٧ آ) ذا رأى جَزْل ، وقَوْل فَصل ، ولسانٍ سليط وقلب حديد ، فَطِناً لِلطائف التدبير ومستقِلاًّ[٢] لما ترجو أو تحاول بالحَزَامة وإصابة الرأى ، ومتعقِّباً له بالحذر والتمييز ، سامياً إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعُه عنك . إنْ حاول جَرَّ أمرٍ أحسنَ اعتلاقه[٣] وإن رام دفعه أحسن ردّه ، حاضرَ الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة ، وثّاباً على الحجج ، مُبْرماً لما نَقَضَ خصمُك ناقِضاً لما أبرَم . يُجيل الباطل فى شخص الحق ، والحقَّ فى شخص الباطل ، متى رام احتجاجاً عنك ، ألَدّ على أهل اللدد فى مواقفه ومشاهده ، محتالاً فى محاورته ومكائده ، جامعاً مع هذا العلم الفرائض والسُنن والأحكام والسِّيَر ، ليحتذى مِثالَ مَنْ سَلَف فيما يورده ويُصْدِره ، عالماً بأحوال الخراج والحسابات[٤] وسائر الأعمال ، ليُناظر كُلًّا بحسب ما يراه من صوابه وخطائه . وليكنْ من أهل الشرف والبيوتات ، ذا هِمّة عالية ، فإنه لا بُدّ مقتفٍ آثار أوّليّته ، محب[٥] لمناقبها ، مساوٍ لأهله فيها ، فمتى[٦] اجتمعت لك فيه هذه الخِصال ، فاجعله من بطانتك ، وأطلعْه

---

(١) رجل حول قلب : يقلب الأمور ويحتال الحيل (الأساس) وانظر الكامل للمبرد (٢ : ٧٨٥) ط . أوربة .

(٢) استقله : حمله (٣) اعتلق الأمر بمعنى تعلقه (القاموس)

(٤) كذا فى الأصل . ويرى الأستاذ كرد على أنها الحسبانات .

(٥) فى الأصل « يحب » (٦) فى الأصل مكررة

طِلْعَ أمرك[١] خطيرِه وحقيره ، واستشِرْه فى بَداتِك[٢] لطيفِها وجَليلِها . ومتى أخلّت به هذه الخِلال ، كانت جنايته عليك أعظم . وكان كالسالك طريقاً (٧ ب) لا يدرى أين يؤمّ منه .

وقال أبو زيد فى السياسة المختصرة : « وأن يكون الذى تختاره للتوجه فى الرسائل ، جَهْرَ الصوت حَسَنَ الرُّوَاء والمنظر ، مقبول الشمائل ، حَسَنَ البيان ، جيّد العِبارة ، حافظاً لما يتبلّغ ليؤدّيه على وجهه . ولا يمنعه الصدقَ عن سلطانه رغبةٌ يقدِّمها فيمن يتوجَّه إليه ، ولا مهانة يستشعرها فى نفسه ، وتقديم النصيحة لرئيسه[٣] . فإنه متى لم يكن المستكفَى لهذا العمل ، واستعمل باباً من التحريف والتمويه ، فيما يختلف فيه بين السلطان وبيْنَ من يُراسله ويُشَافهه على لسانه بما يحتاج إليه ، فإن عدا هذه الصفة وقع فى أعمال السلطان بذلك أظهرُ خَلَل وأعظمُ ضرر . ولذلك يجب على السائس أن يجتهِد فى تخيّره لهذا العمل مَنْ يصلحُ < له > ويستقِلّ به ويُجريه على وجهه ، ولا يحتمل متوليه على تقصير يقع منه فيعرّض أمرَ السلطان لوقوع الخلل والانتشار فيه .

وقال غير البلخى : « يكون الرسول مذكوراً ، وسيماً قسيما ، لا تقتحمه العينُ ، ولا يُزدرى بالخِبْرة ، عفيفاً جيِّدَ اللسان . حسن البيان ، حادّ البصر ، ذكىّ القلب ، يفهم الإيماء ويُناظر الملوك على السواء ؛ فإنّه إنما ينطق بلسان مرسله . فإذا ذكروه عُرِف ، وإذا نُظِر (٨ آ) إليه لم يُحتَقر . ويجب أن يُجمَّلَ بكل ما أمكن الوافدُ ؛ والعامّة ترمق الزِىّ أكثر مما ترمق الكفاية والسَّداد . ويجب أن تزاح عِلَله فيما يحتاج إليه . حتى لا تشرَهَ نفسُهُ إلى ما يُبْذَلُ له ويُدْفَعُ إليه ؛ فإن الطمع يقطع الحُجَّة . والرسولُ أمين لا أمينَ عليه ؛ فيجب أن يُرتهن بالإحسان إليه والإفضال عليه .

واعلم أن للرسالة حدوداً لا يتّسع تعدّيها ، وحقوقاً يلزم القِيام بها ، أوّلُها إيثار الصدق ، وتعمُّد النصح ، وأن يصدع بالرسالة ، وله أن يُدمِج المعنى الغليظ منها فى الألفاظ الليّنة ، وأن يتأدَّب بأدب الله تعالى فيما أدّب رُسُلَه الكِرام حيثُ يقول : ﴿ فقولا له قوْلًا ليِّناً لعلّه يتذكَّر أو يخشى ﴾[٤] .

---

(١) يقال : أطلعته طلع أمرى بالكسر أبثثته سرى (اللسان) .

(٢) البداة : الأمر المبدع . (القاموس) .

(٣) تقديم ، معطوف على الصدق .

(٤) سورة طه ٤٤/٢٠ .

وقال شاعر العرب :

لينوا لنـا فى القول إنّا مَعْشر نأبى مقادتَنا على الإغلاظِ
والله قد أمر النبىّ وصِـنْوَه[١] فى وحيـــــــه بالانة الألفاظِ

والرسول مع هـذه الأمور محتاج من الإقدام والجرأة إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار والركانة[٢] ، لأنه ليس على كلّ الطبقات يشتد ، ولا لـكلِّها يلين . وربما لم يَسَعْه إلا أنْ يصدَع بالرسالة على ما فيها فمن لم يكن جريئاً حرّفها ، وأخَلّ بها وأفسد معانيها .

وحكى أصحاب السِّيَر فيما نقلوه (٨ ب) من أخبار عبد الملك بن مروان أنّه أرسل بعض أصحابه إلى الحجاج بن يوسف برسالةٍ غليظة ، وحذَّره من تعدّيها أو إلانة ألفاظها ، فأدَّاها وعاد إليه فقال له : أدَّيْتَ ما حَمّلتك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : أما لو لم تفعل لضربتُ عنقك ! فقال : هذا عقاب المعصية فما ثواب الطّاعة . . ؟ فأمر له بجائزة وحُمْلان[٣]

---

(١) المراد موسى عليه السلم وأخاه هارون . (٢) ركن ككرم ركانة إذا سكن (القاموس) .
(٣) الحملان بالضم ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة . (القاموس) .

الباب السابع

« أذكر فيه إذا لم يكن الرسولُ وقوراً ثابتَ العقل ، وورد من الأعداء »
« على مَنْ يرعد ويبرق عليه ، ويجمع له عَدَدَه وعُدَدَه ، فأكثر »
« الرسول التلفّت أهان مرسله »

قال المؤلف : ومتى لم يكن الرسولُ وقوراً ، ثابت العقل شجاعا ، وورد من الأعداء على مَنْ يرعد ويبرق عليه ، ويجمع له عدَدَه وعُدَدَه ، فأكثر الرسولُ التلفّتَ إلى ذلك ، ضَعَّفَ مرسِله وَوَهَّنه ، وأوهم المرسَلَ إليه أنّ صاحبَه دون قوّته ومَنَعَته .

وأورد أصحابُ السِّيَر أنَّ رسـولًا لبعض ملوك الفرس[١] ورد على هشام بن عبد الملك . وقد كان أعدَّ له وحَشَـد ، فلم يزد الرسول على الإطراقِ وتَرْكِ التلفُّتِ والنظرِ أمامه ، ولم يُعِر شيئاً مما أُعِدَّ له . فقيل له فى ذلك . فقال : « إن عينى وقلبى مملوءآن مما خلّفتُه ورائى ، يَشْغَلُهما عظيمُ ما عندنا عن صغير ما عندكم ! » ، فوقع قوله إلى هشام ، فقال : « <قاتل> الله العِلج ! إنّ صاحبَه (٩ آ) كان أعلمَ به إذ توخّاه لرسالته » .

وجاء فى الخبر عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « إذا أبْرَدْتُمْ[٢] إلىَّ بريداً فليَكُنْ حَسَنَ الوجه حَسَنَ الاسم »[٣] .

وقالت الحكماء : « ثلاثة تدل على ثلاثة : الهديّة على المُهْدِى ، والكتابُ على الكاتب . والرسولُ على المرسل »[٤] .

---

(١) كذا فى الأصل . ولعلها » الروم »

(٢) أبرد البريد أرسل به . انظر معنى البريد فى : صبح الأعشى (١٤/٣٦٦) ، نقد الطالب لزغل المناصب لابن طولون (مخطوط فى خزانة المجمع العلمى بدمشق) ورقة ٣١ آ . معيد النعم للسبكى (ليدن — ٤٦) ، شفاء الغليل (ص ٣٩) مفاتيح العلوم (ص ٤٢) . وهارتمن فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) حديث حسن (الجامع الصغير) .

(٤) فى البيان والتبيين للجاحظ (٢ : ٨١) : « وكان يحيي بن خالد يقول : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه ، والرسول على مقدار عقل مرسله ، والهدية على مقدار مهديها » وانظر العقد الفريد (١ : ٢٥١) طبعة اللجنة .

وقالوا : رسولُ الرجُل مكان رأيه ، وكتابه مكانَ عَقْلِه .

وقال الشاعر :

تخيَّر رسولكَ إن الرسول   يدلّ على عقل من أرسله
تراه إذا كان ذا حكمة   يُبلِّغ أحسنَ ما حُمِّلَه
فيبرم مُنْتَقِضات الأمورِ   ويَفتَح أبوابها المقفلة
ويرجع إنْ كان ذا غِرّة[1]   عليه الأمور التى هُنَّ له

وقيل لعبد الله بن العباس رضوان الله عليه : « ما مَنَع عليًّا رضى الله عنه ، أن يُرسلك يوم الحكمين . . ؟ » ، فقال : « مَنَعه والله ، حاجزُ القَدَر ومِحْنَةُ الابتلاء . ووالله لو وجَّهَنى لجلستُ فى مدارج أنفاسه ، ناقِضًا لما أبْرَم ، ومُبْرِماً لما نقض ، أُسِفُّ[2] إذا طار ، وأطير إذا أَسَفَّ ، ولكن مضى قدر ، و بقى أسَفٌ ، والآخرةُ خيرٌ لأمير المؤمنين . . . » .

(١) الغرة : الغفلة   (٢) يقال أسف الطائر إذا هبط ولم يقع (اللسان)

الباب الثامن

« فى أن الرسول إذا لم يكن متأنياً صبوراً ، سالماً من العُلَق[١] ، وكان »

« متلفتاً إلى ما خلفه مِنْ أهله وماله ، كان سعيه فيما على مرسله ، لا له »

« أو عاد على يديه بأمر لم يفصله ، ورأى لم يبرمه . (٩ ب) »

ويحتاج الرسول من الحلم وكظم الغيظ ما يحتاج إليه من الصبر على طول المُكْث وتراخى المقام . فإن الرسول رُبّما وُجّه إلى سخيف ودُفِع إلى طائش ، فبدرت إليه منه الكلمةُ البذِيّةُ ، فيلحقه من سَوْرة[٢] الغضب ، ويتملّك عليه من سلطان الغيظ ما يتخون عزمه ورأيه . ويقطعه عن استيفاء حُجَجه وإيفاء كلٍّ ما فى رسالته . وهو مع الحلم والكظم أخْلَق بالنجاح وبلوغ المُراد . وإذا لم يكن متأنياً صبوراً ، مكيناً من عمله ، فمُنىَ بالملك الحازم ، المحَمِّر لرأيه ، المراجع لنفسه ، الذى[٣] لا يُمضى إلاَّ الرأى المتعقَّبَ المُنَقَّح ، لم يخلُ الرسولُ مِنْ أن يهجم به الغَلَق[٤] والعجلة على إحدى خَلَّتين لا ثالث لهما : إمّا أن ينقاد إلى مؤآتاة مَنْ أُرسِل إليه على مأتى له فيه الحظّ ، وعلى مرسله الغبن ، حرصاً على سرعة الكَرّة وتعَجُّلِ الأوْبة ، وإمّا أن يعود بأمر لم ينفصل ، ورأى لم ينبرم[٥] ، فيرجع كما بدأ .

---

(١) العلق : كذا فى الأصل . وهى ، كصرد ، العلائق والأشغال (القاموس) وقد تكون الغلق أو القلق .

(٢) فى الأصل : « صورة » وسورة الغضب وثوبه (القاموس) .

(٣) فى الأصل مكررة

(٤) الغلق = الضجر وضيق الصدر وقلة الصبر . انظر الكامل للمبرد (١ : ١٠) . وهى فى الأصل القلق وما أثبتناه أحكم وأوسع .

(٥) يقال : أبرمت العقد أحكمته فانبرم (المصباح) .

ومن أمثالهم : « ربّ عجلة تهَب ريْثاً » . على أن الأوّل قد قال : وللرَّيْثُ في بعض الأحايين أسرعُ » .

وقال بعض الشعراء :

وأوّل ما يكون الغيثُ طَــلاً ويكثر ودقُه فيصـــير غيْثاً

وقال الآخر :

وما راح محــروم ولا راث مُنْجحُ (١٠ آ)

الباب التاسع

« فى مَنْ دُفِـع من رُسُـل الملوك إلى أن حَمَّله ملـكهُ إلى ملِك آخر »
« رسالة غليظة وأمره أن يؤديهـا على وجهها ، وحَظَر عليه أن يغيّرها »
« عن[١] هيئتها ، أو تحريف شىء من معناها ولفظها ، والوجه الذى به »
« احتال ، حتى أدّى الرسالة وسَـلِمَ من مَعَرَّة[٢] الملك المرسَل إليه »
« وعاد بحمد منه وقد نصح لمن أرسله وأدّى مقالته »

ورد فى سيرة الفرس أن أحد ملوكهم أنفذ إلى بعض الملوك المجاورين له رسالة مع بعض من اختبر[٣] ثقتَه وعرَفَ صدق لهجته وأمانته . وكانت غليظة ، وحَظَر عليه أن يغيّرها عن هيئتها أو يُحَرِّفَ شيئا من معناها ولفظها ، وحَذَّره من تجاوز ما رسم له من ذلك . فأدّى إلى الملك المرسَل إليه منها ما أحفظه وأغاظه . فقال الملكُ للرسـول : « إن صاحبك لم يَجْبَهْنى بهذه المقالة ، وأنت المجترئ بهـا علىّ ، والمالئ منها سمعى وقلبى ، وما شفاء غيظى ، وما تسكين حفيظتى إلا المبالغة فى عقابك » . فقال له الرسول : « هوِّن عليك أيُّها الملك ! فإن لـكل مقالٍ جواباً — وإن قَبُح — أدّيتُه على حاله » . قال له الملك : « هيهات ! إنَّكَ تتوجَّه إلى مَنْ تجلُّه عن سماع ما يسوؤه وتَلَقِّيهِ بما يُحْفِظُه» . فقال الرسول : « إنَّ من العجب أن ألقاك بمقالته وآمَنُ بادرتك ، ونيَّتى عليك ، ثم ألقاه بكلامك فلا أثق بحلمـه ونيَّتى معه ..! » . فأَذْهَبَ بهذا القول حفيظته[٤] وسَلَّ سخيمته[٥] ، وقال : « مثلُك من يُرَسَّل بين الملوك ، فالرسولُ مُبَلِّغ غير ملوم » .

---

(١) فى الأصل « من »
(٢) المعرّة الأذى (القاموس)
(٣) فى الأصل « اختار »
(٤) الحفيظة الحمية والغضب
(٥) السخيمة الحقد

الباب العاشر

« فى أنّ وهن الرسول عائد على مَنْ أرسله ، و < كذلك > اختلاله »
« وضعفه . وأن الرسول إذا كان تاماً ذا بيان ورُواء ، فما فيه من فضل »
« عائد على من أرسله ، ومنسوب إليه » . (١٠ ب)

ومتى كان الرسول دون مرسله فى رأى وعقـل ورُواء ونُبل ظُنّ بمرسله أ كثرُ من اختلاله . ومتى كان أتَمّ منه وأزيَدَ فى هذه الأحوال ، ظُنّ بمرسله فوق ذلك من التمام . فعَوارُ[١] الرسول يَعُرّ[٢] المرسل ، و إن كان فاضِلاً ، واختلالُ المرسِل لا يعر الرسول إذا كان كاملا . ويحتاج الرسول من التصوّن والنزاهة إلى ما يحتاج إليه من ترك الإفراط فى الانقباض والحشمة حتى لا يكون غرَضُه فيما يُعرضُ عليه من عظيم البر ، بَيْعَ دينه ولا خيانةَ مرسِلِه ولا بيع أمانته . ولا يأبى من يسيره ولطيفه ما يوجب قبولُه الأنس . ويوقعُ الامتناع منه النَفَارَ والوحشة .

---

(١) العوار بالفتح العيب والخرق (القاموس)
(٢) يعر من المعرة وهى العيب والشين (اللسان)

الباب الحادى عشر

« فى الرسول المحروم ، وما ورد فيه من < آيات > كتاب الله عزّ »
« وجل ، وكلام البلغاء والشعراء والحكماء » .

وقد ذمّ الله سبحانه الرسول المحروم الذى < لا > تنجح على يديه الأمور ، وإن كان العسر واليسر جاريَيْن بمقاديره ، جَلّ وعلا ، فقد قال عزّ وجل : ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْن ، أحدُهما أبكمُ لا يَقْدِر على شىء ، وهو كَلٌّ[1] على مولاه ، أينَمَا يُوَجِّهه لا يأتِ بخَيْر . . .﴾[2] .

ويُسْتحب من الرسول أن يُشعِر نفسه النجاح ، ويُمكِّن فى قلبه الظفر ، فيتلقّى الأمور بنشاط القدرة ، ويُباشرها بعلوّ الهمّة . لا كالمضعوف[3] الذى يُبعِّدُ على نفسه الأمور ويُشعِرُها اليأس (١١ آ) ليضعَ عنها مؤونة السعى ويكفيها الأعمال < و > الاحتيال والدأب فى بلوغ الآمال ، كما قال بعض الشعراء . .

قَلّ ما ينجح الرسو　　لُ إذا استشْعرَ الخوَر
وأرى اليأسَ نفسه　　قبلَ أن يَبْلوَ الخبر
إنما المُنْجَحُ المُمكِّـ　　ـنُ فى نفسه الظفر
الذى يركبُ العسـ　　ـيرَ على أنه يَسَر[4]

وقال بعض الشعراء :

وكنتُ إذا بَعَثْتُ به رسولًا　　بدانى قبل أن يمضِىْ بياسِ
وأنسانى وما وجّهْتُ فيه　　على أنّى ذَكورٌ غيرُ ناسِ
ويرجعُ — لا رعانى الله — فيه　　إلىَّ بخيْبة بعد احتِبَاسِ
يردُّ برأسه أبداً جوابى　　أرانيه[5] الإله بغير راسِ

---

(١) الكَل الثقل　　(٢) سورة النحل / ١٧٦
(٣) طمست الضاد فى الأصل . والمضعوف هو المضعف على غير القياس (القاموس)
(٤) اليَسر محركة السهل (القاموس)　　(٥) فى الأصل « أرانيه إله » ولا يستقيم الوزن به .

الباب الثانى عشر

« أذكر فيه لِمَ استُحِبَّ فى الرسـول إسرافُ القدّ وعَبالةُ الجسمَ »
« وما احتج به مَنْ كان قميًّا[١] من الرسل ومَنْ كان عَبْلا »

ويُسْتَحَب فى الرسول تمامُ القدّ وعَبالةُ الجسم[٢]، حتى لا يكون قميئاً[٣] ولا ضئيلا. وإن كان المرءُ بأصْغَرَيْه، ومخبوءاً تحت لسانه؟ ولـكنّ الصـورة تَسْبِقُ اللسان، والجثمان يستر الجنان (١١ ب) ولذلك ما قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنـه: « يُؤذَنُ لـكم، فيُقَدَّمُ أحسنكم اسماً، فإذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجْهاً، فإذا نطقتم ميَّزتكم ألسنتكم... وكانت أعينُ الملوك تسبقُ إلى ذوى الرُّواء من الرسـل؛ وإنما توجب ذلك فى رسلها لئلا ينقصُ اختيارُها حظا من حظوظ الـكمال؛ ولأنها تُنْفِذُ واحداً إلى أمّة، وفَذّاً إلى جماعة، وشخصاً إلى شخوص كثيرة. فاجتهدوا فى أن يكون ذلك الواحد وسيماً جسيماً يملأُ العيون المتشوّفة[٤] إليه فلا تقتحمه، ويُشْرِف على تلك الخِلَق المتصدية له فلا تستصغره.

وجاء فى التاريخ أن الشعبىّ لما دخل على عبد الملك بن مروان برسالة الحجاج اقتحمه ناظرُه واستصغره قبل أن يمتحِن ما وراء ذلك مِن عقله و بيانه وفضـله وحكمته. فقال: « إنّكَ لدميمٌ يا شعبىُّ! » فاحتاج الشعبىّ إلى تمحّل[٥] العذر و إلطاف الجواب، فقال: « زوحِمْتُ فى الرحِم يا أميرَ المؤمنين »[٦].

ولما أوْفَد بعضُ الملوك رسوله إلى معاوية بن أبى سفيان، وكان وسيماً جسيماً يملأ العين، فأحبّ معاوية عَيْبَه، فقال: « ما هـذه الفدامة[٧] فيكم..؟ »، فقال الرسول: « عنوان نِعَمِ الله عندنا! ». فـكان هـذا الجواب غاية فى الإحسان والسّداد، لأنه اعتدّ

(١) قمؤ قماءة، وقمأ قمأ إذا ذل وصغر فى الأعين وهو قمىء كأمير وقمىّ (الأساس).
(٢) العبالة الضخامة وامتلاء الجسم، والعبل الممتلىء الجسم. (٣) فى الأصل « قميا ».
(٤) تشوّف من السطح: تطاول ونظر وأشرف (القاموس). (٥) تمحل احتال.
(٦) انظر ما دار بين عبد الملك والشعبى من حديث فى العقد الفريد (١: ١٩٨) وفى الشذرات (١: ١٢٧): « قيل له: ما لنا نراك ضئيلا، قال: إنى زوحمت فى الرحم ».
(٧) الفدامة الغلظ والجفاء.

العبالة مَوْهبة ، وكان جواب الشعبى تمحّلاً لأنه علم أنّ (١٢ آ) الدمامة عيبٌ ونقيصة .

وقد قال شاعر العرب :

تَبَيَّن لى أن القماءة[١] ذِلّةٌ وأنّ أشِدَّاء الرجال طِوَالها

فكأن الملوك أرادت أن تستجمع هذه الفضائل على مراتبها فى رُسُلِها فيكون الرسول حَسَنَ الاسم والخَلق والبيان .

وتقول الرواة : ما نعرف رسولًا ألطف ، ولا كتاباً أوجزَ ، من هُدْهُد سليمان وكتابه .

وهو قوله عزَّ وجلّ ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيمان ، وإنَّهُ بسم اللهِ الرحمن الرحيم ، ألّا تعلوا علىّ وأتونى مُسْلِمين ﴾[٢] .

وعِيبَ بعضُ الرسل بالقِصَر والدمامة ، وكان أديباً ، فَطِناً ، فأنشد بديهاً :

عقْلُ الرسول وبَسْطَةٌ فى رأيه خيرٌ له من نُبْلِه وبهائه

فإذا أَخَلّ بذى الترسُّل رأيهُ لم يُغْنِه عنه جميلُ رُوَائه

ما ضرّ هدهدَ آل داود مع ال إنجاح ظاهرُ قبحه وقمائه

فمضىٰ وعاد إلى النبىّ مبشِّرًا بالنصح فى إيداعه وأدائه

(١) فى الأصل « القماأه » .

(٢) سورة النمل / ٣١ .

الباب الثالث عشر

«أذكر فيه ما كانت تعمل عليه الفرس إذا آثرت أن تتخذ من رعاياها»
«مَنْ تندبه للرسالة والسِفارة ، والمحنة التى تمتحنه بها ، فإذا صحّ على»
«الابتلاء والخبرة ، حينئذ تتخذه رسولا»

قال الحكيم : رسولُك ترْجمان عقلِك

من كتاب «أخلاق الملوك»(١) (١٢ ب)

«وليكن الرسول صحيحَ الفطرة(٢) والمزاج ، ذا بيان وعبارة ، بصيراً(٣) بمخارج الكلام ووجوهه(٤) ، مؤديا لألفاظ الملك ومعانيها ، صدوقَ اللهجة ، لا يميلُ إلى طمع(٥) ، حافظاً لما حُمِّل ، وعلى الملك أن يمتحن رسوله محنة طويلة قبل أن يجعلَه رسولا» .

ما كانت تعمل عليه ملوك الفرس فى المحنة .

«إذا آثرت أن تتخذ من رعاياها مَنْ تجعله رسولاً [إلى بعض ملوك الأرض](٦) كانت تمتحنه مِحنةً طويلة . فأوّل ما تبتدئ به من محنته أن توجهه رسولاً إلى بعض خاصّة الملك و[مَنْ](٧) فى قرار داره ، فى(٨) رسائلها . ثم تُقدِّم عيناً لها عليه يحفظ رسالته(٩) ويكتبها على نصّ كلامه ومعانيه . فإذا رجع الرسول بالرسالة وجاء العَيْنُ بما كتب من ألفاظه ، قابل بها الملك ألفاظ الرسول ، فإن اتفقت ، أو اتفقَتْ معانيها عرف بها الملك صحة عقله وصدق لهجته . ثم جعله الملك رسولاً إلى عدوٍ له ، وجعل عليه عيناً يحفظ ألفاظه ويكتبها ، ثم يرفعها

---

(١) انظر كتاب «التاج فى أخلاق الملوك» المنسوب للجاحظ ص ١٢١ .
(٢) فى صبح الأعشى (١ : ١١٦) : «الفكرة» .
(٣) فى الأصل «وبصيرا» .
(٤) فى التاج «بمخارج الكلام وأجوبته» وكذا فى صبح الأعشى (١ : ١١٦) .
(٥) فى التاج «لا يميل إلى طمع ولا طبع» والطبع الشين والعيب .
(٦) الزيادة من التاج (ص١٢٢) . (٧) الزيادة من التاج (ص ١٢٢) .
(٨) فى الأصل «وفى رسائلها» . (٩) فى التاج : «من يحضر رسالته» .

إلى الملك . فإن اتفق كلام الرسول وكلامُ عين الملك ، علم أنّ رسوله قد صدقه عن عدوّه ، ولم يتزيّد للعداوة التى بينهما . فإذا صَحّ على الابتلاء والخبرة جعله الملك رسولاً إلى ملوك الأمم المخالفة[١] له ووثق به . ثم (١٣ آ) كان من الملك الموجّه به أن[٢] يقيم خَبَرَه مَقامَ الحجّة[٣] .

من آيين الفرس[٤] .

كان من سنّتهم أنّ الملِك إذا أرسل رسولاً جليلاً ذا مرتبة شاهرة[٥] ومنزلة عامرة ، إلى رجل صغير المنزلة غامض المرتبة برسالة ، أن يكون المُرْسَل متذللاً لمن أُرسل إليه ، وجالساً بين يديه ، وموفيا له حق الرياسة عليه ، حتى يَتِمّ ذلك الأمر ، ثم بعد ذلك يعودُ كل واحد منهما إلى منزلته .

من « السياسة العامة »[٦]

" واعلم يا اسكندر أن الفرس أصحاب فأل ، فاستعمله معهم ، فإنه باب من تجريد البخت[٧] فإذا أرسلتَ إليهم رسولاً فلا ترسله سليمَ العين اليمنى ، فإنّهم يتطيّرون به ؛ وذلك لأنهم يقولون إنها للشمس . وإذا دخل رسولك عليهم فليأخذ ما أمكنه ولا يدفع إليهم شيئاً . ومُرْه ألاّ يحك رأسه ولا يشير بيده إليهم ، فإذا قعد فلا يقعد بأمرهم فى المرّة الأولى ، فإنّهم يغتمون ويتّقونك بسببه . وليرُدّ عليهم رسولك فى كل ما يقولون : لا ، إلاّ أن يكون أمراً بيِّنا . فإن سألوه عن خاصّة الملك قال : كما يحبّ أن يكون صديقه ، وهو على خلاف ما يريد أعداؤه[٨] . وإذا انصرف فلا يُكثر التلفُّت إلى بلادهم ، فإنهم يكرهون ذلك . ولا يتناول

---

(١) فى الأصل « المحالفة » . (٢) فى الأصل « لا يقيم » ولا يستقيم المعنى بها .

(٣) ورد هذا النص فى صبح الأعشى بألفاظ مخالفة . (١ : ١١٦) .

(٤) فى شفاء الغليل (ص ١٦) « آيين بمعنى العادة . أعجمى عربه المولدون » قلت : ولابن المقفع كتاب اسمه « الآيين » نقل عنه ابن قتيبة فى عيون الأخبار نقولا كثيرة . واستعمل الجاحظ هذه الكلمة فى البيان والتبيين ، كثيراً .

(٥) كذا فى الأصل ، ولعلها بمعنى مشهورة .

(٦) فى الأصل « العامة » . انظر التعريف بهذا الكتاب فى ملحق فهرست الكتب فى هذا الكتاب

(٧) تجريد أى إخراج ، والبخت الحظ (شفاء الغليل ٣٦) .

(٨) فى الأصل « مايريدون أعلاوه » .

من داخل مدينتهم ولا مِنْ خارجها (١٣ ب) ولا من أنهارها شيئاً[1] . فإنهم يكرهون ذلك و يتطيّرون به " .

قال حكيم العرب : بالرسول يُعتبَرُ المرسل .

ومن وصيّة المهلّب بن أبى صفرة ليزيد ولده : « وليكن الرسول بينى و بينك مَنْ يَعْقِل عنى وعنك . و إذا كتبْتَ كتاباً فأكثر النظر فيه . فإنّ كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسولَه موضعُ رأيه .

(١) فى الأصل « شىء » .

الباب الرابع عشر

« فى النهى عن إرسال الرسل ، ومَنْ جرى عليه خَلَل من الملوك فى »
« تدبيره[1] لأجل كذب الرسول ، وما جوزى به من خان فى رسالته ، »
« والتحذير من الاستنامة[2] إلى الرسل ، وما كانت الفرس تعمله من »
« الاحتياط على الرسل ليصحّ لهم الخبر المورَد عليهم ، إذ الأخبار »
« مظانّ الصدق والكذب »

قال الحكيم : إذا كذب السفير بطل التدبير .

من « السياسة الخاصّة » :

" أقلل الرسل يا اسكندر إلى الملوك ، فإنّ الآفاتِ منهم كثيرة . و إذا أرسلت رسولاً فاخْتَبِرْ ذكاءه وفهْمَهُ . واحْذَر أن يكون سريعًا أو كثير الكلام أو مُعْجبًا أو ممن يحب شرب النبيذ . وأَرْسِله إنْ قدرتَ جاهلاً بخبرك لم يُقِم فى جوارك إلَّا يسيراً ، وغير خابر بما يجرى عليـه تدبيرك ولا قائم مُلْكِكَ . وراقبه[3] ، ومُرْه ألَّا يقطع كلامَ مَنْ يُحَدِّثه ، فإنها خصلة لا تكون فى أديب . وأرْهِبْه من مجاوزة ما تأمره به ، ومُرْه ألا يشرب نبيذاً ؛ فإن الفرس يحتالون للرسل بالقِحاب و يستخرجون بهن مخايل صدورهم " .

من حكمة الفرس :

كان أردشير بن بابك (١٤ آ) يقول : « [كم من دم سفكه الرسول بغير حِلَّة و][4] كم [من][4] جيوش قد هلكت ، وعساكر قد انتهكت ، ومال قد انتُهِب ، وعهدٍ قد نُقِضَ بخيانة الرسول[5] [وأكاذيبه ، وحقٌّ على الملك إذا وَجّه رسولًا][4] إلى ملك آخر أن يردفه بآخر ، و إن وجّه رسولين أتبعهما باثنين . و إن أمكنه ألَّا يجمع بين رسولين فى طريق لئلا يتلاقيا فيهـا ولا يتعارفا فيتواطآ[6] على قولٍ فليَفْعَل . ثم عليه إذا

---

(١) فى الأصل « تبذيره » . (٢) نام إليه سكن واطمأن كاستنام (القاموس) .
(٣) فى الأصل « وراتبه » . (٤) الزيادة التى بين القوسين من التاج (ص ١٢٢) .
(٥) فى المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ١٦٩ « بجناية » .
(٦) فى الأصل « لئلا يتلاقيان ولا يتعارفان فيتواطآن » .

أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك فى خير أو شر ألّا يُحْدث فى ذلك شيئاً [خيراً أو شراً][١] حتى يكتب إليه مع رسول آخر يحكى فى كتابه إليه كتابَهُ الأوّل حرفا بحرف . ومعنى معنى . فإن الرسول ربّما حُرِمَ بعضَ ما أمّل فافتعل الكتب وحَرَّشَ[٢] المرسِل [على المرسَل إليه][١] ، فأغراه [به][١] وكذب عليه[٣] .

من سيرة الاسكندر :

ذُكر أنه وَجّه رسولًا إلى بعض الملوك فجاءه برسالة على الصواب شكّ فى حرف منها إذ هو ناقِض لجميعها . فقال الاسكندر للرسول : ويلك إن الملوك لا تخلو من مقوِّم[٤] [إذا مالت][٥] ومسدِّدٍ إذا كتبَتْ ، وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ جيِّدة المعانى ، واضحة العبارة ، فيها حرف يَنْقُضها ، أفعلى يقينٍ أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه ؟ فقال الرسول: بل أنا على يقين منه ! . قال : فأمر الاسكندر أن تكتب ألفاظُه حرفًا حرفًا ، وتُعادُ إلى الملك مع رسولٍ ثانٍ ، فتُقرأ عليه وتُترجم له . قال : فلما قرئ عليه الكتاب ومرَّ به الحرف الذى أنكره (١٤ ب) الاسكندر أنكره الملِك . ثم أمر المترجِم له فقال : ضَعْ يدى على هذا الحرف ، فوضعها ، فأمر أن يُقطع ذلك الحرفُ بسكين ، فقُطِعَ من الكتاب ، وكتب إلى الاسكندر : « رأسُ المملكة [صحة][٦] فكرة[٧] الملك ، ورأسُ المُلْك صحةُ لهجة الرسول . إذ كان الرسول عن لسان الملك ينطِق ، وإلى أذنه يؤدى ، وقد قطعتُ مالم يكن من كلامى ، إذ لم أجد إلى قَطْع لسان الكاذب سبيلا » .

فلما جاء الرسول بهذا الكتاب إلى الاسكندر دعا الرسولَ الأوّلَ ، فقال له : « ما حَمَلك على كلمةٍ أردتَ بها فساد ملكى[٨] ؟ » ، فأقرّ الرسولُ أنّ ذلك كان منه لتقصير رآه من الموجَّه إليه . فقال الاسكندر : « فأراك سعَيْتَ لنفسك لا لنا ، فلما فاتَكَ

---

(١) الزيادة التى بين القوسين من التاج .

(٢) فى الأصل « حرص » وقد تكون حرّض كما فى التاج . وحرش أغرى .

(٣) أورد القلقشندى (١ : ٧٣) هذه الجملة بألفاظ مخالفة . وأورد هذه الحكاية صاحب المحاسن والمساوئ (١٦٨ — ١٦٩) ، وصاحب تنبيه الملوك والمكايد (ص٨٩ — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية) .

(٤) فى الأصل « من معهوم » والتصحيح عن التاج .

(٥و٦) الزيادة من التاج . (٧) فى التاج « فطرة » .

(٨) فى التاج : « فساد ملكين » وفى صبح الأعشى (١ : ١١٨) « ما بين ملكين » .

بعضُ ما أمَّلتَ جعلتَ ناراً(١) فى الأنفس الخطيرة الرفيعة ! » فأمر بنزع لسانه من قفاه(١) .

قالت الهند : إذا أرسلتَ رسولاً إلى الملك ، فليكن فصيحاً بلُغتك ولغته ، فإن لم تجده على ما تؤثره فى لُغته ، فليكن فصيحاً فى لُغتك ذا بيان وعارضة ولسان . قد سلم من عُنْجُهِيَّةِ الصِّبى ، وأحكمته التجارِب ، وحَلَبَ الدهرَ أشْطُرَهُ(٣) ، وكان أحد رجلين : إما رجل يعتقِد الفوز فى الآخرة بنصيحتك ، ويقيمك إماماً يأتَمُّ بك ، ويجعلك طريقه إلى الله تعالى ، أو ذا عقلٍ (١٥ آ) وصدقٍ وذيلٍ من عيالٍ وأهل ، يلتفت إليهم وتُطالبه نفسُهُ بالرجوع والعودة ، ولا يجترم عليك جرماً يعلم أنهم مأخوذون به ومطالبون بسببه ومعاقبون عليه.

---

(١) كذا فى الأصل . وفى المحاسن والمساوئ (ص ١٦٩) « ثأراً » .

(٢) وردت هذه القصة فى كتاب « محاسن الملوك » (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ص ٦١) بألفاظ متقاربة . ووردت فى كتاب « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » للغزالى ص ٧٤ بألفاظ مختلفة .

(٣) أى خبر ضروبه ، ومر به خيره وشره وشدته : رخاؤه (اللسان) .

الباب الخامس عشر

« فيما كانت قريش تعمل به إذا أرادت أن ترسل رسولاً إلى الملوك »
« وما كانت توعز به إلى الرسول وهى فى جاهليتها »

روى[١] الواقدى أن قريشاً فى الجاهليّة كانت إذا أرسلت رسولاً إلى بعض الملوك قالت له : « احفَظْ شيئاً : انتهز الفُريْصة ، فإنها خُلْسة ، وبِتْ[٢] عند رأس الأمر لا ذنبه . وإيّاك وشفيعا مهينا [فإنه أضعف وسيلة][٣] وإيّاك والعجز فإنه أوطأ[٤] مَرْكب . وعليك بالصبر فإنه سببُ الظفر . ولا تَخُض الغَمْر حتى تعرف القدر[٥] » .

فإذا توجّه للمسير قالت : « اللهم قوِّ ضَعْفَتَه ، واحرسْ غفلته ، وشُدَّ مُنَّتَه[٦] ، اللهم أطْوِ عنه (١٥ ب) غول الأرض وهَوْلها ، وحبّبه إلى أصحابه ، واحمله على ركابه[٧] ، وسلِّم له عَصَبَها وقَصَبها ، وادرأ عنه وعنها الأعراض والأمراض ، حتى تؤديه سالماً إلى سالمين » .

من وصيّة الاسكندر

« يا إسكندر ، إيّاك أن تستعين بمُعينٍ مَهِين ، فيضع من قدرك ويسوء ذكرك » .

من كتاب كليلة ودمنة

« يُعتبر عقل المرسل[٨] برأى رسوله ونفاذِه ، فمن كان شأنه اللين والمواتاة أنجحَ فى رسالته . والرسول يُلين القلب إذا رفق ، ويخشن [الصدر][٩] إذا خرق[١٠] .

---

(١) كان هذا الباب فى الأصل مدرجاً تحت عنوان الباب السادس عشر . وههنا مكانه فرددناه إليه

(٢) فى العقد الفريد (١ : ٥٣) : « وتثبت » .

(٣) الزيادة من العقد .

(٤) فى العقد « أذل »

(٥) القدر مبلغ الشىء ، وقد تكون الغور .

(٦) المنة القوة

(٧) الركاب كالكتاب الإبل ، واحدتها راحلة .

(٨) فى الأصل « الرسول »

(٩) الزيادة من كليلة ودمنة (٢ : ٢٣٧)

(١٠) والذى فى كليلة ودمنة : « . . . واعلمى أن الرسول برأيه وعقله ولينه وفضله يخبر عن عقل المرسل . فعليك باللين والرفق والحلم والتأنى ؛ فإن الرسول هو الذى يلين الصدر إذا رفق ، ويخشن الصدر إذا خرق » (البوم والغربان — مثل الأرنب وملك الفيلة ٢ : ٢٣٧) .

الباب السادس عشر

« فى احتراس الرسول لنفسه إذا سَفَر أو توَسَّلَ بين ملكين وهما على »
« حرب أو منازلة »

من[١] حكمة العرب :

قال أكثم بنُ صيفى فى وصيّته لولده لمّا بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغه مبعثه : « لا تُحْدِثَن أمراً دونى ، فإن الرسول إذا أحدث الأمر من عنده خرج مِنْ يَدَىْ الذى أرسله ، واحتفِظْ بما يقول لك إذا ردَّك ، فإنَّك إن توهمتَ أو نسيتَ أفسَدْتَ رسالتك وجشَّمتنى رسولاً غيرك » .

من حِكَم يونان :

قيل لافلاطون الحكيم : « أىّ الرسل أنجحُ ؟ » قال : « الذى له جمال وعقل ! » .

---

(١) كان هذا الباب فى الأصل مدرجاً تحت عنوان الباب الخامس عشر .

الباب السابع عشر

« فى النهى عن مفاتحة رسل الملك بحضرة الملأ من الناس ، والمنع من »
« جدالهم وأن لا يُمَكَّنوا إلا من أداء الرسالة وتحمُّل الجواب »[١]

من السياسة العامة[٢] :

« لا تُفاتح يا اسكندر رُسُلَ الملوك إليك ، ولا تَبْسُطهم إلى مساءلتك بكثرة استخبارك ، وحسبُ الرسول إيصالُ ما معه من كتابٍ أو رسالة . واعلم يا اسكندر أنَّكَ إن ألزمْتَ الرسول الحُجَّة لم يكن فى ذلك فخر ، وإن ألزمك خصمُك ذلك عابك[٣] » .

(١) كان هذا الباب مدرجاً تحت عنوان الباب الثامن عشر ، وههنا مكانه .
(٢) فى الأصل « العامه » .
(٣) فى الأصل « وعابك » ولعلها كان قبلها حرف سقط .

الباب الثامن عشر

« أذكر فيه مَنْ زان مرسله بعبارته ، ورفع من ملكه ببيانه وسِفارته »

قال[(١)] : إذا أنفذك ملك فى رسالة إلى ملك آخر أو عدوٍّ له فاستمع ما يكتبه ، وصِرْ إلى الملك فاعرضه عليه ، فإذا رضيه ، سألته أن يوقّع عليه بخطه « هذه رسالتى » . و < إذا > صِرْتَ إلى الملك الآخر . فاعرض عليه الرسالة من غير أن تُظْهِرَه[(٢)] على أنّ عندك ذلك الرسم . فإذا أجابك حفظت ما أجابك ، ثم أثبتْ رسالة الملك الأوّل ، وجواب الملك الثانى فى رسم ، ثم اعرضه على الملك الثانى . فاذا رضيه سألته أن يوقع فيه بخطّه : « هكذا أدّى إلىّ الرسالة ، وهذا جوابى عنها » فإنه ربما اصطلح[(٣)] الملكان ، وتناكرا (١٦ آ) ألفاظا تقع الإحالة فيها عليك فيكون ذلك سبباً لعظيم الإثارة .

من[(٤)] كتاب « تصفية الأذهان » .

حكى الفضل بن مروان[(٥)] وزير المعتصم قال : كانت الرسل من جهة الملوك إذا جاءت بالهدايا جُعل اختلافهم إلىّ . فتكون المؤامرات فيما يجرى معهم من ديوانى ، فكنتُ أسأل الرسل عن سيرة ملوكهم وأخبار عظمائهم ، فسألتُ رسولَ ملك الروم عن سيرةِ ملِكه ، فقال : « بذَلَ عُرْفه[(٦)] ، وجرّد سيفه ، فاجتمعت عليه القلوب مِقةً ورغبة[(٧)] . لا يعسِفُ جُنْده[(٨)] ولا يُخرِجُ رعيَّتَه . سهلُ النَّوال ، حَزْنُ النكال . الرجاء والخوف معقودان فى يده » . قلتُ[(٩)] : فكيف حكمُهُ ؟ قال : يردّ الظلم ويردع الظالم ، ويُعطى كل ذى حق حقه ، فالرعيَّة

---

(١) كان هذا الباب مدرجاً تحت عنوان الباب السابع عشر ، وهما لا يتوافقان . وما فى هذا الباب عدا الفقرة الأولى منه يدل على أن ههنا مكانه .

(٢) فى الأصل « تظهر » (٣) فى الأصل « ربما اصطلحا الملكان » .

(٤) فى هامش الأصل « الباب التاسع عشر » وأرى أنها مقحمة ، وأن الكلام صلة الباب الثامن عشر لموافقته عنوانه ، ومخالفته ما فى الباب التاسع عشر الذى سيأتى .

(٥) فى زهر الآداب (١ : ٢٥٣) : « قال الجاحظ : حدثنى الفضل بن سهل . . . » ثم أورد القصة .

(٦) العرف المعروف (القاموس) . (٧) فى زهر الآداب « رغبة ورهبة » .

(٨) فى زهر الآداب « لا ينظر جنده » . (٩) فى الأصل « قال » .

(١٦ ب) اثنان : راضٍ ومغتبط ، قلتُ : فكيف هيبتهم له ؟ قال : يُتصوّر فى القلوب . فتُغضى له العيون . (قال) : فنظر رسول ملك الحبشة إلى إصغائى إليه ، و إقبال عينى عليه ، فقال لترجمانه : ما الذى يقولُ الرومى ؟ قال : يصف ملكهم وحسنَ سيرته . فكلّم الترجمان بشىء ، فقال الترجمان : يقول إن ملكهم ذو أناةٍ عند القُدرة ، وحلمٍ عند الغضب ، وذو سطوة عند المغالبة ، وذو عقوبة عند الاجترام . قد يَسُرّ رعيته جميع نعمته ، وقد يضرّهم بعنيف عقوبته[١] . فهم يتراءونه[٢] ترائى الهلال جمالاً[٣] . ويخافونه مخافة الموت نكالاً . قد وَسِعَهُم عدلُه ، وردعتهم سطوتهُ وكيده[٤] ، لا تمهنه مزْحة ، ولا تؤيسه غفلة . إذا أعطى أوسع ، و إذا عاقب أوجَع . فالناس اثنان : راجٍ وخائف . فلا الراجى خائب ، ولا الخائف بعيد الأمل . قلتُ : فكيف هيبتهم له ؟ فقال : لا ترفع العيون إليه أجفانها ، والأبصارُ إنسانها ، كأنّ رعيّته قطا رفرفت[٥] عليها صقور صوائد[٦] .

جاء فى سيرة المعتصم بالله أنّه وَجّه رسولاً إلى ملك الروم . فلما اجتمع الرسول بالملك ، ورأى الملِك هيبة الرسول ، وكَثرة تجمُّله . وما صحبه من الرحْلِ والآلات التى لا يكون (١٧ آ) مثلها إلا لعظماء الملوك قال له : كم تُرْزَق من مال سلطانك ؟ قال : أرتزق أنا وولدى فى كل شهر عشرين[٧] ألف درهم أو نحوها . قال : فَتَحْتَ فتحاً ، قطُّ ، كان السلطانُ به معنيًّا ؟ قال الرسول : لا . قال الملك : نازلتَ رجلاً مشهوراً بالفروسيّة من أعداء سلطانك فقتلته مجاولةً ؟ قال الرسول : لا . قال : فاستنقذتَ خليفةً أو وَلىّ عهد وقد لَجَجَ[٨] فى مضيق أو معركة لم يظنّ الخلاص منها . فوجد بإقدامك وقد أحجم نظراؤك فرَجَه ؟ قال الرسول : لا . قال الملِك : فبأى شىء تستحق هذا الرزق الكثير ؟ قال الرسول للملك : إن للخلفاء خدَمًا يتصرّفون فى أنحاء الخِدَم ، لكل طائفة مذهبٌ يُجْتَبَوْنَ له ويُحْتملون عليه ، لا يُكلفون سواه ،

---

(١) فى زهر الآداب (١ : ٢٥٤) : « قد كسا رعيته جميل نعمته وخوفهم عسف نقمته » .

(٢) فى الأصل « يرأونه » . (٣) فى زهر الآداب « خيالا » .

(٤) فى الأصل « وكيله » . (٥) فى الأصل « رفرت » .

(٦) فى زهر الآداب : (١ : ٢٥٤) : « فحدثت المأمون بهذين الحديثين فقال . كم قيمتهما عندك ؟ قلت ألفا درهم . قال يا فضل : إن قيمتهما عندى أكثر من الخلافة . أما عرفت قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه « قيمة كل امرئ ما يحسن ! » أفتعرف أحداً من الخطباء والبلغاء يحسن أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بهذه الصفة ؟ قلت : لا . قال : فقد أمرت لهما بعشرين ألف درهم ...» .

(٧) فى الأصل « عشرون » (٨) يقال لجج القوم إذا خاضوا فى اللجج (أساس) .

ولا يُرَاد منهم غيره . فمنهم مَنْ يُعَدُّ للفتوح فهو يَلْبَسُ السِّلاح و يقود الجيوش ، ومنهم من يُعَدُّ للقضاء فهو يلبس المبردات[١] والدنيّات[٢] . ومنهم مثلى مَنْ يصلُح أَنْ توفده الخلفاء للملوك ، و يتحمّل رسائلهم إلى مثلك من أهل الجلالة والقدر ، والسناء[٣] والذكر . فلولا ثقتهم بى ، وعلمهم بمناصحتى وصدقى فيما أورد وأؤدى ، صادراً وواردا ، لما رأونى أهلاً للتوجُّه فيما توجهت فيه إليك ، وقليل لمثلى هذا الرزق مع (١٧ ب) هذا التحمّل ومع <هذا> المحلّ من الخلافة ، وهى من الجلالة على ما هى . فسكت سكوت معترف ولم يقل فى ذلك شيئاً .

من كتاب « تصفية الأذهان »

حدّث الداكنى قال[٤] : كنتُ جالساً عند الحسن بن سهل ، وعنده رسول ملك الخَزَر ، وهو يحدّث عن أختٍ للملك يُقال لها « خاتون » قال : أصابتنا سنة احتدم شوَاظها علينا بحرارة المصائب وصنوف الآفات والنوائب . فَفَزِع الناس إلى الملك ، فلم يدر ما يجيبهم ، فقالت له خاتون : « أيها الملك [إنّ خوفَ الله][٥] خُلُق[٦] لا يخلق جديدُه ، وسبب لا يُمْتَهن عزيزُه . وهو دليله على استصلاح مملكته وزاجره عن استفسادها . وقد رغب إليك رعيّتك بفضل العجز عن الالتجاء إلى مَنْ لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزاً ولا يَنقصه العودُ بالإحسان إليهم ملكا . وما أحد أولى بحفظ الوصيّة من الموصى ، ولا بركوب الدلالة من الدالّ ، ولا بحسن الرعاية من الراعى . ولم تزل فى نعمة لا تغيِّرها نقمة ، وفى رضى لم تكدّره سَخْطة ، إلى أن جرى القَدَر بما عمِىَ عنه البصر وذَهِل عنه الحذر[٧] . فسُلِبَ الموهوب ، والسالب هو الواهب . فَعُدْ إليه بشكر النعمة ، وعُذبه من فظيع النقمة ، ولا تَنْسَه ينسك[٨] ، ولا (١٨ آ) تجعل الحياء من التذلل للمعز المُذِل شِرْكاً بينك و بين

---

(١) كذا فى الأصل

(٢) الدنيات : واحدتها دنية قلنسوة محددة الأطراف وليست من كلام العرب . كان يلبسها القضاة والأكابر (تاج العروس) وانظر الشذرات (٢ : ٢٣٤)

(٣) السناء : الرفعة

(٤) فى زهر الآداب (١ : ٢٥٤) : « قال الجاحظ : حدثنى حميد بن عطاء ... »

(٥) الزيادة من زهر الآداب

(٦) فى الأصل « علو »

(٧) فى الأصل « الحديث »

(٨) فى الأصل « ينسيك »

رعيّتك ، فتستحق مذموم العاقبة . ولـكن مُرْهم ونفسَك بصرْفِ القلوب إلى الإقرار بكُنْه القُدْرة ، وتذليل الألسن فى الدعاء بمحض الشكر له . فإن الملك ربما عاقب عبده ليَرْجعه عن سيّئ فعله إلى صالح عمله ، ولِيَبْعثه على دائب[1] شكره يُحْرِزُ به فضل أجر » . فأمر الملك أن تقوم فتنذرهم بهذا الـكلام ، ففَعَلَت . فرجع القوم عن بابه ، وقد علم الله منهم قبول الوعظ . فدَرّتْ عليهم أخْلاف الخيرات ، ونزلت عليهم بركةُ السّموات ، وعاد ضيقهم فرجاً وشِدّتهم انفساحاً[2] .

أخبر الواقدى قال : مات رسول ملك الروم بدمشق فى زمن معاوية ، فوُجد فى جيبه لوحٌ ذهبٌ مكتوب فيه حَفْراً : إذا ذهب الوفاء نزل البـلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، وإذا ظَهرت الخيانات قلّت البركات .

وُجد فى سيرة المعتصم أن باسيل[3] ملك الروم أرسل إليه رسولا وكتب إليه : « من باسيل بن فلان — حتى انتسب إلى ثلاثة آباء أو أربعة ملوك — إلى أخيه المعتصم .

« إن الملوك لم تزل يغزو بعضُها < بعضاً > ، ويعلو بعضها على بعض . وربما أُتِيتْ من وزراء (١٨ ب) السوء . وقد كان منا بزبطرة[4] ما كان وتَبَيَّنْتُ وجهَ الخطأ فيـه . وقد كِلْتَ لى بالصاع أَصْوُعاً فيما فعلتَ بعمورية . وأنا أسألك بالطينة المباركة التى أنتَ منها أن تُنعم علىّ بإطلاق بطارقتى ، فإنهم مائة وخمسـون بطريقاً[5] . وأنا أفتدى كل واحد

---

(١) فى الأصل « ذات »

(٢) فى زهر الآداب (١ : ٢٥٥) : « فاعترف لها الملك بالفضل ، فقـلدها الملك ، فاجتمعت الرعيّـة لها على الطاعة فى المـكروه والمحبوب . » انظر التتمة فى المصدر المذكور

(٣) لعل المؤلف وهم فى نقل هذا الاسم . لأن هـذا الـكتاب أرسل إلى المعتصم إثر وقعة عمورية أى بعد سنة ٨٣٨ م كما يتضح منه . وباسيل الأول Basils 1 er ولى الحـكم فى بزنطية سنة ٨٦٧ م أى بعد تسع وعشرين سنة من تاريخ وقعة عمورية . وبعد خمس وعشرين سنة من وفاة المعتصم (توفى المعتصم فى حدود سنة ٨٤٢ م) . وكان باسيل هذا معاصراً للمعتز والمهتدى والمعتمد . ومن المؤكد أنّ مرسل الـكتاب هو توفيل بن ميخائيل Théofhile الذى ولى الحـكم سنة ٨٢٩ م وتوفى سنة ٨٤٢ م . وقد كان معاصراً للمعتصم ، وماتا معاً فى سنة واحدة . وهو الذى هاجم زبطرة . وقد ذكره المؤرخون العرب كثيراً . انظر : بزنطية والعالم الإسلامى لديومبين . و Larousse Jllushée (٧ : ٩٩٥) ومروج الذهب (٤ : ١٥) وابن الأثير (٥ : ٢٤٦) . وصبح الأعشى (٥ : ٣٩٩)

(٤) زبطرة مدينة بين ملطية وسميساط فى طرف بلاد الروم . انظر : معجم البلدان (٢ : ٩١٤) . وفيها كانت الموقعة . فسار المعتصم على أثرها ونزل عمورية . انظر مروج الذهب (٤ : ١٥)

(٥) البطريق للروم كالقوّاد للعرب ويُقال لمن كان على عشرة آلاف رجل . انظر : المغرب (١ : ٤٠) مفاتيح العلوم (ص ٧٧) ، شفاء الغليل (ص ٣٨)

منهم بمائة من المسلمين . وقد تهادت الملوك قبلنا . وقد وجّهْتُ مع رسولى من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوباً ، طولُ كل ثوب منها أربعون ذراعاً فى عرض عشرين » . وذكر سائر ما أهداه وصفته ، وأرسل بذلك بطريقاً وخادماً وجماعةً معهما . فلما وصلوا أخذ محمد ابن عبد الملك الكُتُب وتوصَّل إلى علم ما تضمَّنت ، وردَّها بخواتيمها وقال : أمير المؤمنين مشغول عنها . فكانت الهدية موقوفة ستة أشهر ثم أُذِن للرسول فدخَل على الملك ، فلما رآه المعتصم قال : أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك ! قال : كلاّ ، إن طول المقام أوْجَبَ لى الذمام . ولم نزَل نسمع من حكمائنا أنّ إبطاء الرسول يُؤذِن بالنجاح . وما ضرّنى مقام قرَّب منك ، وأشهدنى نِعَمَ الله عندك . فأُعجِبَ المعتصم بما تُرْجِم له من كلام الرسول وقبل هديتّه .

فأقبل عليه محمد بن عبد الملك (١٩ آ) الزيَّات فقال له : كم خراج بلدكم ؟ قال : أقلّ من مائة ألف دينار[١] . فقال محمد : هذا غلَّة بعضِ ضياع أمير المؤمنين . فقال الرسول : نحن أحزمُ وأحكمُ فى باب الخراج منكم . أنتم تستخرجون من الناس مالاً فتكسبون عداوتهم ، وتوغرون صدورهم ، ويسرق المال عمّالكم ويُعطَوْن عليه الأرزاق . ثم يُحمل من بلد إلى بلد آخر . فيذهب ويتخرّم[٢] فى الطريق . وتحتاجون أن يُسْلَم إلى خزَنَة وحُرّاس ، ثم تخرجه إلى رجالكم . ونحن جعلنا خراجَنا رجالا ، فكُفينا هذه المؤنة ، وصيرّنا هذا المقدار الذى ذكرتُه لك رسماً للخراج لئلا يبطل اسمُه ، فأمِنّا عداوة الناس وحفظنا المال وكُفينا ما أنتم فيه .

قال المؤلّف : فسكت محمد بن < عبد الملك > الزيات ، ولم يحر جواباً إلى الرسول . وقد كان الجوابُ ممكناً والحجة متوجهة عليه والخطأ فى القول لازماً له . وذلك أن رجال

---

(١) فى معجم البلدان (٢ : ٨٦٦) . « ... سأل المعتز بالله أحمد بن اسرائيل عن خراج الروم فقال : يا أمير المؤمنين خرجنا مع جدك المعتصم فى غزاته . فلما توسط بلد الروم صار إلينا « بسيل الخرشنى » ، وكان على خراج الروم . فسأله محمد بن عبد الملك عن مبلغ خراج بلدهم ، فقال : خمسمائة قنطار ، وكذا وكذا قنطارا . فقال : حسبنا ذلك فإذا هو أقلّ من ثلاثة آلاف ألف دينار . فقال المعتصم : اكتب إلى ملك الروم . إنى سألت صاحبك عن خراج أرضك فذكر أنه كذا وكذا . وأخسّ ناحية فى مملكتى خراجها أكثر من خراج أرضك فكيف تنابذنى ؟ » اهـ . انظر أيضاً أحسن التقاسيم للمقدسى (ص ٦٤) .

(٢) يتخرم : ينقص .

الحرب بمثابة الجوارح التى لا يجوز أن تُمرّن بعمل من الأعمال ، ولا مهنة من المهن غير اختطاف الأرواح وصيد الرجال وإعمال الحيلة فى التسليم من اللقاء والكرّ والفرّ ، وفى الإقامة والتحيّز(١) ، فلما صارت الروم أهل تناية(٢) وأصحاب فدّان وزراعة ومهن وصناعة ، نشأ الأبناء على ما عليه (١٩ ب) الآباء فركنوا إلى الدعَة وهابوا الحروب ، ونكصوا عن لقاء الأعداء وصيد الرجال . وصاروا جمعَ العصا ، وخشوا الفَلْس(٣) ، فحينئذ صار الرجل الواحد من المسلمين لا يهاب لِقاء الجمع الكثير من الروم ، وله تسلّط عليهم واقتدار على تفريق جماعتهم . هذا مضاف إلى ما وعد الله به فى كتابه من النصر ، وأن المائة منهم غالبة للمائتين ، بعد أن زال حكم الواحد بعشرة رحمة وتخفيفا . ثم صار الملك منهم لا تتعلق به رغبة ؛ إذ هو قليل المال ، نزر الجباية . فلما أحسّت الروم بعدم الرغبة امتنعت من الخطار بأنفسها ، وقلّ مَنْ يعمل للآخرة منهم ، وإنما تُخاطر التماساً للمثوبة والجزاء . وتحقّق العلج منهم أنه إذا أُسِرَ وحَصل فى بلاد الإسلام ، يُؤمَّر أو يُقوَّد ، ويُعفى من كدّ التعب ودأب النَّصَب ، ويصير بعد الذلّ عزيزاً وبعد المهنة والإذالة(٤) وادعاً مكرماً . وصار ما بأيدى الروم من الضياع والإقطاع كأنما(٥) هو كالمُلْكِ لهم ، يرثه خلف عن سَلَف ، والحقِ الذى لا يجب لغيره شىء فيه ؛ وإن غيّر أو بَدّل على ما سنّتهم الآن جارية من البَدَل ، فإنما ينقل من مشتى إلى مصيف أو ربيع إلى خريف ، وصار الملك إذا دعته ضرورة إلى انتزاع بعض ما فى أيديهم كانوا العدوّ الحاضر (٢٠ آ) المُشارك فى الدار ، غير المأمون(٦) الضرر والغوائل ، المُطالب بالذحول والطوائل(٧) ، الواضح الفساد ، العديم الرشاد ، فكيف صار أحكم من فعل المسلمين فى الخراج ؟

وقد كنتُ أعرف عن الروم أنّ أخسّ الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب ، وأنّ

---

(١) انحاز القوم تركوا مركزهم إلى آخر

(٢) تَنَأَ بالبلد إذا قطنه والاسم التناءة

(٣) الفَلْس ورقة الجزية . وقد تكون العَلَز وهو قلق وهلع يصيب الأسير من الهمّ

(٤) أذلته إذالة أهنته (٥) فى الأصل «كاعا»

(٦) فى الأصل «الغير مأمون»

(٧) الذحول ج ذحل : الثأر ، أو طلب مكافأة بجناية جنيت عليك ، أو عداوة أتيت إليك . والطوائل ج طائلة ؛ وهى العداوة (القاموس)

الشاكرىّ[١] أجلّ رتبة منه ، حتى علمتُ الآن قلّة احتياجهم إلى مَنْ يحفظ الارتفاع ويحملُ أعباء الملك . وتساوى كافتهم فى البلادة . وقلة المعلوم . ولعمرى إنّ نوازع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقلّ من نفقات المسلمين ودواعيهم . ولو ألزم[٢] ملك الروم مَنْ فى بلاده من المؤن والمغارم ما يُلزم فى بلاد المسلمين ، لما قامت لهم قائمة ، ولاحتاجوا إلى أحد أمرين : إما اجتياح أموال رعاياهم ، أوالتسلّط على مَنْ يُجاورهم ، وحيازة ما فى أيديهم إليهم . والرومىّ إذا تجمّل قَطَعَ الثوبَ الديباج الذى من عمل زوجته وابنته وأخته ، يقيم على لابسه عشرين سنة إذا صانه من البِذْلة . ولا عهد للرومى بالشِّرْب[٣] والعصب[٤] ، والمعلّم[٥] ، والمذهب ، والمُصَنّف ، والمُنَيَّر[٦] ولا باستعمال[٧] الرومى والأصبهانى ، ولا برفيع التونى[٨] الذى يودع أنابيب الذهب والفضّة ؛ هذا مالا عهد لملوكهم به . فكيف لوضائعهم[٩] . والملك منهم (٢٠ ب) وغيره يتساويان فى اللباس : إنما هو الطّلى[١٠] والديباج والمسده[١١] . وأوانيهم

---

(١) فى مفاتيح العلوم ، وشفاء الغليل أن الشاكرىّ هو الخادم

(٢) فى الأصل «لزم»

(٣) الشِّرْب : الثوب الرقيق من الكتّان (المخصّص) . وكان من تنّيس فى المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون فيها الثياب الشرب التى لا يُصنع مثلها فى الدنيا ، وكانت تحمل منها إلى بغداد . انظر : ابن إياس (١ : ٥٠) ، ابن حوقل (ص ٣٢٣) ، الاصطخرى (ص ١٦٧) ويصفه دوزى بما يلى :
espéce de toile de lin trés fine et trés précieuse. 1 : 740 suppl.

(٤) العصب ثياب رقاق تنسب إلى اليمن (المخصص) ، وإذا كانت القصب فتكون القماش الرقيق من الكتان . انظر ابن أياس (١ : ٤٨ — ٥٠)

(٥) ضرب من ثياب فيها علامات . علّم الثوب وأعلمه جعل فيه علامة (تاج العروس)

(٦) نَيَّرت الثوبَ ونيّرته فهومنَير : جعلت له نيراً أى علَماً ، أو كان له أهداب (تاج العروس)

(٧) فى الأصل « بالاستعمال »

(٨) التونى نسبة إلى تونة جزيرة قرب تنيس ودمياط فى مصر يُضرب المثل بحسن ثيابها وطرزها . انظر معجم البلدان (١ : ٩٠١) و دوزى (1:155 Suppl)

(٩) الوضائع ج وضيعة — الأدعياء — أوأسماء أقوام من الجند تجعل أسماؤهم فى كورة لا يغزون منها (القاموس) أو المسالح (طبقات الناس عند العرب فى مفاتيح العلوم ص ٧٧)

(١٠) الطّلى ثياب تصنع من القنب ، وهى أرق من الدبيقى وأبقى على الكدّ . أنظر مروج الذهب (١ : ١٢٢) ومعناها اللغوى المصبوغ أو المدهون . انظر قاموس لين Lane ص ٨٦٢ ، والزخرفة المنسوجة لمرزوق (ص ٦٦)

(١١) كذا فى الأصل ، ولعلها المسدّى

الذهب والفضّة . ولو ابتاع أحد ملوكهم قحفاً[١] خزفياً[٢] بمائة دينار يلحقه الصدع فلا يساوى درهما ، أو من مخروط البلّور ورفيع المحفور ما إذا بات نديًّا من الماء أو النبيذ فى غلافه تصدّع وعادت القطعة التى تُساوى ألف دينار بالنزْر اليسير من الثمن . وكذلك الزجاج المُحكم والقلب سليم (؟) وغرائب الصينى من الصحون البُلْق والمشمشى والسواد والزمردى والخافقيّات الفائقات < و > الرشيدى الشفّاف ، ومُلَح الطرائف ، هذا مالا يتملكونه[٣] على الأمر الأكثر ، إنما يُهدى إليهم ويسمعون[٤] بذكره ، فأما الفروش عندهم فمن صنعتهم أيضاً . إنما هى[٥] الديباج والطنافس والقُطُف[٦] . والبزْيون[٧] فأما طميم[٨] القرقوبى[٩] ، ومذهب الدبيقى[١٠] ، ورفيع الخسروانى[١١] ، فتفرّد بملكه ملوك الإسلام . وأغذية الروم الشوّاء والصليق . وأكثرها فى صيدهم مما فى مروجهم < من الطير > والدواب . < ولولا الإطالة > لاستقصيتُ القول فى المصارفة والهداية إلى طُرُق اللؤم والنذالة التى جعلها الله وقفاً عليهم دون الأمم فهى فيهم جمّة كثيرة .

---

(١) فى الأصل « نخفا »
(٢) فى الأصل « قزحيا »
(٣) فى الأصل « لا يتملكوه »
(٤) فى الأصل « ويسمعوا »
(٥) فى الأصل « هو »
(٦) القُطُف ج قطيفة على الشواذ (المخصّص) وهى الدثار المخمّل (القاموس)
(٧) البُزيون كعُصفور ، على قول ، رقيق الديباج (تاج العروس) أو الثياب الحريرية المختلفة الألوان الموشّاة بالزهور . أنظر فى دائرة المعارف الإسلامية مقالة الأستاذ Streck عن Arménie وكتاب التبصر بالتجارة للجاحظ (ص ١٧)
(٨) الطميم ضرب من الأقمشة الغالية ، وكأنه الديباج المطرّز بالذهب . انظر: Kremer, Beitrage Zur Arabischen Lexicographie P. 17 والزخرفة المنسوجة ،رزوق ص ٧٦ . وقال المقريزى (١ : ٤١٦) إنه نوع من أنواع الخسروانى
(٩) القرقوبى نسبة إلى قرقوب من مدن واسط مشهورة بأنماطها (المقدسى ص ١١٩) وانظر . الاصطخرى (ص ٩٣) . ويقول صاحب كتاب (الفاطميون فى مصر) إن هذا القماش كان يصنع أيضاً فى دمياط وتنّيس ، وإنه مشهور بألوانه اللامعة (ص ٢٥٧ حاشية ٥) ويقال إن المعز الفاطمى خلّف خريطة كان أمر بعملها سنة ٣٥٣ من الحرير الأزرق التسترى القرقوبى المنسوج بالذهب . انظر المقريزى (١ : ٤١٧)
(١٠) دبيق قرية من قرى دمياط تنسب إليها الثياب المثقلة ، والعمائم الشرب والدبيقى المعلم المذهب (المقريزى : ١ : ٢٦٦) وانظر مقالة الأستاذ Becker عنها فى دائرة المعارف الإسلامية . والمقدسى (ص ١٠٤) وابن حوقل (ص ١٠٢) وياقوت (٢ : ٥٤٦)
(١١) نوع من نسج الحرير الرقيق الحسن الصنعة منسوب إلى عظماء الأكاسرة (الخفاجى) وانظر : المغرب (ص ٦٠) و دوزى (Suppl. 173)

الباب التاسع عشر

« فى مَنْ دُفِع من الملوك إلى مضيق من جواب رسول ، فألهمه الله تعالى الصواب ووفّقه فى الجواب »[1]

جاء فى سيرة المنصور بالله (٢١ آ) أنه ورد عليه من طاغية الروم رسل كثير ، بلغ من دهاء بعضهم وفطنتهم أن أخذ المنصورُ من رأيه[2] واستعمل مشورته . واجتهد بعضُهم فى إلصاق عيب بالمنصور فى محاورته ، فألهم الله المنصور من سداد الجواب و بيان الحجّة ، ما ليس فى وُسْع أحد أن ينطق به إلاّ عن إلهام وتوفيق .

أمّا الأوّل ، فإنّ المنصور أمر بعضَ ثِقاته أنْ يطوفَ معه فيريه مدينته و يوقفه على مبانيه وممالكه . فلما نظر إلى ذلك كلِّه ، وأعاده إلى المنصور قال للرومىّ : كيف رأيتَ ما شاهدت ؟ قال : كلُّ ما رأيت جليل نبيل ، إلا ثلاثة أشياء . قال : ماهى ؟ قال : النفس خضراء ولا خضرة لك ، والماء حياة ولا حياة لك ، وعدوّك معك — يعنى السوقة — . وكانت السوق مخالطة لقصره . قال المنصور : أما الخضرة فإنى خُلِقْتُ للجدّ لا للهزل ، وأما الماء فحسبى[3] منه ما بَلّ الشفة وروّى الصدى[4] ، وأما مجاورة العوام ، فما أُبالى أن يطّلع على سِرِّى خاصّتِى وعامّتى لأنى لا أنِى[5] فيه وأُحصِّنه . فلما انصرف الرسول تعقّب الرأى وتبيَّنه ، فعلم أنَّ الصواب فيما قاله الرسول . فعَمَرَ العبّاسيّة[6] ، وكان يطلّ عليها . وأجرى من كرخايا[7] وغيره ما أجراه ، ونقل السوقَ إلى الكرخ[8] . (٢١ ب) .

---

(١) هذا هو العنوان الأصيل لهذا الباب . أما العنوان السابق فقد أقحم فى غير مكانه

(٢) فى الأصل « أخذ من المنصور من رأيه »

(٣) فى الأصل « محى » (٤) الصدى : العطش

(٥) لا أنى : لا أقصّر

(٦) العبّاسيّة محلّة ببغداد مشهورة — كانت بين يدى قصر المنصور — وهى منسوبة إلى العباس بن محمد بن على . أنظر : معجم البلدان (٣ : ٦٠٠)

(٧) كرخايا نهر كان ببغداد . ذكره الشعراء ، لم يكن له أثر زمن ياقوت . أنظر . معجم البلدان (٤ : ٢٥٢)

(٨) أنظر هذه القصة مختصرة فى الطبرى (٣٢٣ / ١٠ / III) . وانظرها مروية باختلاف فى اللفظ فى تاريخ بغداد (١ : ٧٨) وبزيادات ونقص فى معجم البلدان (٤ : ٢٥٤)

وأما الرّسول الآخر فإنه طيفَ به أيضاً ، فرأى < على > الجسر خَلْقاً مِن ذوى الزمانة[١] والعاهة يتصدّقون ويسألون . فقال الرسول للربيع ، وكان معه : ما فى ملك صاحبك عيب غير أمرِ هؤلاء الزَّمْنى . وقد كان يجب أن يُراعى أمرُهم حتى لا يجتمع عليهم — مع الزّمانة — الفقر والمسئلة . فقال الربيع : لم يذهب <ذلك> عنه ، ولكنّ بيوت الأموال لا تتَّسِعُ لذلك . وبَلَغَ المنصور ماجرى بينهما ، فاغتاظ[٢] على الربيع . فلما حَضَرَه الرّسول قال : بلغنى مقالك للربيع آنفاً ، وليسَ الأمرُ على ما أجابَك به . وقد كان فى مالى ما يَسَعُهم ويوفى على سَدِّ مفاقرهم[٣] ، ولكنَّ أمير المؤمنين أفْكَرَ[٤] فى أمرهم ، فأحَبَّ ألا يستأثر على سائر رعيَّته ممّن صَحَّحَ الله جسمه . وبَسَطَ يده بملك الدنيا والآخرة وثوابها . فترك لهم سبيلاً إلى الصدقة واصطناع العُرْف ، ونصيباً فى ابتغاء الثواب بالإفضال . فَعَقَدَ العِلْجُ ثلاثين وقال وقد أومى[٥] إلى الأرض : « قالون[٦] ، قالون »[٧] .

---

(١) الزّمانة العاهة : زَمِنَ زمانةً فهو زمِنٌ وزمين ج زمنى . (القاموس)

(٢) اغتاظ على صاحبه وتغيَّظ . غضب (الأساس)

(٣) المفاقر ج مَفْقَرَة . بمعنى الفقر ، وهو جمع شاذ (اللسان)

(٤) أفكر بمعنى فكّر (القاموس)

(٥) كذا فى الأصل بمعنى أومأ ، ولها وجه

(٦) معناه فى الرومية «جيد» . انظر : روضة المحبين (ص ١٨٧) ، شفاء الغليل (ص ١٥٧) أو «أصبتَ» انظر المغرب فى ترتيب المعرب (٢ : ١٣٣) .

(٧) فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (ص ١٣٣) : « فقال الرومى : الحق ما قاله أمير المؤمنين . » وقد رويت هذه القصة فى الكتاب المذكور بألفاظ مختلفة . وفيه «عمارة بن حمزة» بدلا من « الربيع بن يونس » .

الباب العشرون

« من عَجِل من الملوك إلى سَفَه فى المكاتبة ، فكان حلمُ مَنْ كاتبَه أوجَعَ له ممّا جَناه على مُكاتِبه »

جاء فى السيرة أنّ هشام بنَ عبد الملك كتب إلى ملكِ الروم كتاباً كان عنوانه : « من هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى الطاغية ملك الروم . » فلما وصل إليه الكتاب وقرأ العنوان قال : « ما ظننتُ أن الملوك (٢٢ آ) العقلاء يسبّون ، وما كان يؤمنه أن أكتُبَ إليه : « من ملك الروم ، إلى الملك المذموم ، الأحول المشئوم ! » وأعاد الكتاب ولم يفضّه ولا قرأه ، ثم سار عُقَيْبه فشَعَّثَ[1] بلاد الإسلام .

كتب نقْفور ملكُ الروم إلى هارون الرشيد بعد أن استولى على مملكة الروم : « من نِقفور ملك الروم إلى هارون ملكِ العرب . أما بعد فإنّ الملكة[2] التى كانت قبلى أقامتك مقام الرُخ[3] ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق[4] ، فحمَلَتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقاً أن تحمل إليها أمثاله . لـكنّ < ذاك من > ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأتَ كتابى فارددْ ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتَدِ نفسك بما تقع المصادرةُ عليه[5] وإلاّ فالسيف بينى وبينك[6] .

---

(١) شعّث : فرّق

(٢) فى الأصل « المملكة » . وفى الأغانى (١٧ : ٤٤) « هذه المرأة »

(٣) الرُخ من أدوات الشطرنج الكبار ، والجمع رِخَخة

(٤) من أدوات الشطرنج الصغار . أصل معناه الراجل ، وجمعه بيادقة ، وهو معرّب دخيل

(٥) فى الأصل « عليك »

(٦) لهذا الكتاب روايتان غير هذه . ففى الأغانى (١٧ : ٤٤) : « أما بعد ، فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباك وأخاك موضع الملوك ، ووضعت نفسها موضع السوقة ، وإنى واضعك بغير ذلك الموضع ، وعامل على تطرّق بلادك والهجوم على أمصارك ، أو تؤدى إلىّ ما كانت المرأة تؤدى إليك والسلام . » وفى صبح الأعشى : (١ : ١٩٢) « أما بعد . فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه ، ووضعَتْ نفسها موضع الرخّ ، وينبغى أن تعلم أنــى أنا الشاه ، وأنتَ الرخ ، فأدّ إلىّ ما كانت تؤدى إليك . »

فلما قرأ الرشيدُ الكتاب ، استفزَّه الغضب ؛ حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه[١] ، واستعجم الأمر على الوزير من أن يُشير عليه أو يتركه يستبد برأيه . فدعا بدواة وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من هارون الرشيد إلى نِقفْور[٢] ملك الروم

« قرأتُ كتابك يا أبن الفاجرة[٣] ، والجواب ما تراه[٤] دون أن تسمع به[٥] والسلام »[٦] .

وشَخَص لوقته ، حتى أناخَ على هِرَقْلَة[٧] ، ففتح وغنم واصطفى ، وأفاد وأحرق (٢٢ ب) واصطلم[٨] . فطلب[٩] نِقفور الموادعة على خراج يؤديه فى كل سنة ، فأجابه إلى ذلك . فلما رجع عن غزوته ، وصار بالرَّقة ، نَقَض نِقْفور العهد وخان الميثاق عما أُخِذَ عليه ، فما تهيَّأ لأحد إخباره بذلك إشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرَّة فى مثل تلك الأيام . فاحتال وزيره يحيى ابن خالد بشاعر من أهل جنده[١٠] يكنى أبا محمد ، ويُسمى عبد الله بن يوسف[١١] فقال :

---

(١) فى الطبرى (III/٦٩٥/١١ سنة ١٨٧) : « وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم . »

(٢) فى صبح الأعشى (١ : ١٩٢) « يقفور » والصواب بالنون لأن أصله «Nicefhore»

(٣) فى الطبرى (III/٦٩٦/١١) وابن الأثير (٦ : ٦١) : «يا ابن الكافره»

(٤) فى الأغانى (١٧ : ٤٥) « ما تراه عياناً لا ما تسمعه » وكذا فى مروج الذهب وتاريخ أبى الفداء (٢ : ١٨ ط . قسطنطينية)

(٥) فى الطبرى (٦٩٦/١١) والأغانى (١٧ : ٤٥) « تسمعه »

(٦) ورد هذا الكتاب فى صبح الأعشى كما يلى : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . أما بعد ، فقد فهمتُ كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من اتبع الهدى . » انظر صبح الأعشى . (١ : ١٩٢) و (٦ : ٤٥٧)

(٧) مدينة ببلاد الروم ، وهى بالفرنسية Heraclée انظر معجم البلدان وصبح الأعشى (٥ : ٣٥٠) .

(٨) اصطلم : استأصل

(٩) فى الأصل « وطلب »

(١٠) فى الأصل « من أهل جدّة » وكذا فى الأغانى (١٧ : ٤٥)

(١١) فى الوزراء والكتاب (ص ٢٠٧) « عبد الله بن محمد الشاعر المعروف بالمكى » وفى الطبرى (III/٦٩٦/١١) « ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمى » وفى ابن الأثير (٥ : ١١٨) « الحجاج بن يوسف التيمى » وانظر المنتظم لابن الجوزى (٥ : ق ٢ : ٢٠)

نقَض الذى أعطيْتَه نِقفور ... وعليه دائرةُ البوار تدور[١]

أبْشِر أميرَ المؤمنين فإنّه ... غُنمٌ[٢] أتاك به الإله كبير[٣]

فتحٌ يزيد على الفتوح مؤيَّدٌ[٤] ... بالنصر فيه لواؤك[٥] المنشور

فلقد تباشرت الرعية أنْ أتى ... بالغدر منه وافد وبشير[٦]

ورجَتْ يمينُك أن تعجّل غزوة ... تشفى النفوس، مكانها مذكور[٧]

نِقفور إنّك حين تغدر أن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور

أظَنَنْتَ حين غدرتَ أنك مُفْلَتٌ ... هبلتك أُمُّك ما ظننْتَ غرور[٨]

وقال أبو العتاهية :

تجلَّبَت الدنيا لهارون بالرضا ... وأصبح نِقفور لهارون ذِميًّا[٩]

وقال غيره[١٠] :

---

(١) فى الأصل «نقض العهد الذى ...» ولا يستقيم الوزن بها . وفى الأغانى (١٧ : ٤٥) .

« نقض الذى أعطاكه نقفور ... فعليه ... ... »

(٢) فى الوزراء والكتاب (ص ٢٠٨) «فتح»

(٣) فى الأصل «غنم أتاك به إلاه الكبير»

(٤) فى ابن الأثير : (٦ : ٦١) «مؤمناً» (٥) فى الأصل «لَوْ أوّل»

(٦) فى الأصل «بالنقض عنه وافد» (٧) فى الطبرى بعد هذا :

أعطاك جزيته وطأطأ خدّه ... حَذَرَ الصوارم والردى محذور

فأجرْتَه من وقعها وكأنّها ... بأكفنا شُعَلُ الضرام تطير

(٨) هبلتْك أمك أى ثكلتْك . وفى الطبرى بعد هذا :

ألقاك حتفك فى زواخر بحره ... فطَمَتْ عليه من الإمام بحور

إنّ الإمام على اقتسارك قادِر ... قَرُبَتْ ديارك أم نأتْ بك دور

ليس الإمام ، وإن غفلنا ، غافل ... عما يسوس بحزمه ويدير

ملك تجرّد للجهاد بنفسه ... فعدوه أبداً به مقهور

لا نُصح ينفَع من يغش إمامه ... والنصح من نصحائه مشكور

نصح الإمام على الأنام فريضة ... ولأهلها كفّارة وطهور

وفى الوزراء والكتاب (ص ٢٠٧) «فقال الرشيد ليحي : قد علمت أنك احتلت فى إسماعى هذا الخبر على لسان المكى ، ونهض نحو الروم فافتتح هرقلة .

(٩) كذا فى الطبرى . وفى الديوان (ص ٣١٥) «تَجلْبَبَتْ» . انظر القصيدة فى الديوان وفى الأغانى (١٧ : ٤٥) .

(١٠) فى الطبرى (III/٦٩٨/١١) أنه «الحجّاج بن يوسف التيمى»

نَجَّت بنِقْفور أسبابُ الردى عبثاً   لمَّا رأته بغيل الليث قد عبثا[١]

وكتب باسيلُ بنُ إليون[٢] ملكُ الروم إلى المعتصم أمير المؤمنين يَسْفُه عليه (٢٣ آ) ويتوعّده ويتهدّده . فأمر بإجابته ، فكلٌّ عمل له نسخة طوّلها واستوفى معانيها ، واحتجّ عليه من كتابه بما فَسَخَ به دعواه ، وأبطل عليه ما حكاه . فلما قُرِئت عليه النسخ استطولها وقال : ليُكْتَب إليه بما أنا مُمْليه ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد ، فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ خطابك ، والجواب ما ترى لا ما تسمعُ به ، وسيعلم الكافر لمن عُقبىٰ الدار » .

وسار تِلْوَ كتابه ، فخرّب بلاده ، وسبىٰ رعيته ، واستولى على أكثر مملكته ، ولولم ينخع[٣] له بالطاعة لأتىٰ على نفسه .

---

(١) الغَيْل الأجَمَة الكثيرة الشجر . وفى الطبرى بعد هذا :

ومَنْ يَزرغيله لايخلُ من فَزَع	إن فات أنيابه والمخلب الشبثا
خان العهود ، ومَنْ ينكث بها فعلى	حدبائه لا على أعدائه نكثا
كان الإمام الذى تُرْجى فواضله	أذاقه ثمر الحلم الذى ورثا
فَرَدّ ألفته من بعد أن عطفت	أزواجه مرُهاً يبكينه شُعُثا

(٢) انظر الحاشية ذات الرقم (٣) من الصفحة (٣٤)

(٣) نَخَع له بالشىء : أقرّ (القاموس)

الباب الحادى والعشرون

«أذكر فيه نوادر جاءت فى الرسالة ، ونُبذاً من حِيَل الملوك على الملوك»

«حسداً لهم على إصابة رسلهم للصواب ، به ختمتُ الكتاب»

من خداناماه[1] الكبير .

كانت ملوك الفرس إذا وفد عليها رسول اشترطت عليه أربع خصال وسامحته بما بعدهن مما عساه أن توقعه فيه الأقدار . وهى : ألاّ يكذب[2] <الملك> فإن الكذوب لا رأى له . وألاّ يجيبه عما <لا> يسأله عنه ، فإنه دليلٌ على الموق[3] <و> سوء الأدب ، ولا يمدحه فى وجهه بما يخالف أفعاله ؛ فإنّ فيه استخفافاً[4] به ، ونصرة[5] على لزوم مالا يجمُل من الأفعال ، ولا يحرِّشُه على الرعيّة ، فإنها إلى حسن الرأى فيها أحوج .

وكان زياد بن أبيه (٢٣ ب) شرط على رسله النافذة برسائل إلى البلدان أن يقول : «لا يحمِّلك أحد رسالة إلاّ أبلغتنيها ، ولا يكلّمك أحد فى حاجة إلاّ رفعتَها إلىّ» . فَسُئِل عن ذلك منْ فعله ؟ فقال : «التبرّع بالأخبار تقع عنه الفوائد العظيمة» . وأنشد بيتَ طَرَفَة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزوّد

قال رسول ملك الروم لعمر رضى الله عنه وقد طلبه فوجده نائماً فى المسجد : «عدلتَ ، فأمنْتَ ، فنمتَ . وجرنا ، فخفنا ، فحرسنا» .

وجّه عبدُ الملك بن مروان الشعبىَّ برسالة إلى مَلك الروم بكتاب . فأعطاه الجواب ، ودَفَع إليه رقعة مختومة وقال له : إذا أدّيتَ الجواب ، وأوصلتَ الكتاب ، فأعْطِ صاحبك

---

(١) كذا فى الأصل . وفى الفهرست (ص ٣٠٥) : «وبين الكتب التى ألّفها الفرس فى السير والأسمار الصحيحة التى لملوكهم كتاب (خداى نامه)

وفيه (ص ١١٨) : «وقد نقل ابن المقفّع كتاب خداينامه فى السير إلى العربية» .

(٢) فى الأصل «يكذبه» والضمير راجع على الملك

(٣) الموق : الحمق فى غباوة (القاموس)

(٤) فى الأصل : «استخفاف» (٥) فى الأصل : «ونصرته»

هذا الـكُتَيِّب[١] . فلما انصرف الشعبى وأدّى وأوصل وأراد الانصراف ، ذكر الرقعة وقال : يا أمير المؤمنين حمّلنى رقعة وقال « كيت وكيت » فقال عبد الملك : لعلّها كيدةٌ من كيداتهم ، هاتها ! . فدفعها إليه ، فلمّا فضّها وقرأها إذا فيها : « العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يملّـكون غيره ! »[٢] . فلما وقفَ الشعبىّ على ما تضمّنت الرقعة ، خُلع عقلُه ، واستطار لبّه ، وأظهر بَلَهاً ثم قال : « يا أمير المؤمنين ، إنما كَبُرتُ فى عينيه لأنّه لم يرَكَ ، ولو رآك لاستحقرنى ! » فقال له : « أحسنت يا شعبىّ ! ولـكن أتدرى ما أراد بما كتب ؟ » ، قلت : لا . قال : « حسدنى عليك ، فأراد أن يغرينى ويحملنى (٢٤ آ) على قتلك » .

وجاء فى أخبار بغداد أنّ جريرَ بن اسماعيل البَجَلى[٣] بعثه المنصور برسالة إلى سليمان ابن علىّ ، وهو بالبصرة . قال : فأجازه بثلاثة آلاف[٤] درهم . فقال له جرير : أعزّ الله الأمير ، تجيزنى بهذا مع طول الشُّقة وتحمُّل المشقَّة ؟ قال له سليمان : هى جائزة عمك خالد إيّاى حين أتيته برسالة من هشام . قال جرير : إن أقَرّ الأمير أن بنى هاشم مثل بجيلة ، قبلتُ الثلاثة ! فضحك وأمر لى بعشرة آلاف درهم .

قال الشاعر فى مدح رسوله :

أقول لأيْمَنَ ومضى رسولاً   مع اليُمن السّعادة والنجاحُ
وأيْمَنُ حيثُ أمَّ أتى بنُجْحٍ   وقابله من الأمرِ الفلاحُ
وما كذب الرجاء له غدوٌّ   حميدٌ فى الأمور[٥] ولا رواح

وقال البحترى يصف رسوله :

وكأنّ الذكاء يبعث منه   فى سواد الأمور شعلة نار

<و> قد قرّرتُ فى أوّل هـذا ، <أن> الـكتاب رسول والقلب مرسله ،

---

(١) فى ابن عساكر (٧ : ١٤٥) « ... قال الشعبى فلما دخلتُ عليه جعل لا يسألنى عن شىء إلاّ أجبته . وكانت الرسل لا تُطيل الإقامة ، فأمسكنى عنده أياماً . فحين أردتُ الانصراف قال لى : « أمن بيت المملـكة أنت ؟ » قلتُ : لا ، لـكننى رجل من العرب . فدفع إلىّ رقعة خاصّة وقال : إذا رجعت إلى صاحبك فأبلغه جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا ، وادفع له هـذه الرقعة ... » مختلفة

(٢) انظر بقية الرواية

(٣) البَجَلى نسبة إلى بجيلة كسفينة حى باليمن من معد . (القاموس)

(٤) فى الأصل « بثلاثة ألف »   (٥) فى الأصل « فى الأمير »

وأنّهم أجمعوا على أن يكون الرسول حسن الوجه والاسم والـكنية والعشيرة .

وجاء فى أخبار مصر أن عبد العزيز بن مروان لمّا تقلّدهـا ودخل فصل الشتاء هرب خيفة من الوباء إلى حلوان ، وتديّرها قاطناً بها ، واستخلف على مصر (٢٤ ب) معاوية ابن حديج[١] . فاحتاج إلى بعض الأمر ، فأنفذ إليه رسولاً لم يكن على الشرائط المقرّرة . فقال له عبد العزيز : ما اسمُك ؟ قال : أبو طالب . فتطيّر به وقال : يا عاضّ بظر أمّه ، أسألك عن اسمك فتكنى ؟ فقال : اسمى : (مدرك) . قال : ممّن ؟ قال : من بنى لاحق ، فتطيَّر به وباسمه وكنيته وعشيرته ، وتغيّظ على معاوية بن حُديج ، فحُمَّ لوقته وساعته ، فـكان فى هذه العِلّة هلاكه[٢] .

قال حكيم يونانى : « إذا أرسلك السلطان فى رسالة فلا تزِد فى رِسالته ، ولا تزل عن نصيحته ، ولا تؤثره على الحق ولا تعدل عن الصدق ، ولا يحملك تقصير المرسَل إليه على أن تحكى عنه مالم يَقُل ، وتنسب إليه مالم يفعل ؛ فإنّك لا تخلو فى ذلك من فِرْية تقطع لسانك ، وخيانة تضرُّ سلطانك ؛ فاحفظ رأسك من عثرة لسانك ، واجعل لدينك من دنياك نصيباً ، وكُن من نفسِك على نفسِك رقيبا ، وصيِّر لـكل جارحة من جوارحك زماماً من العقل والنُهى ، ولجاماً من الورع والتُقى ».

وإذا عملتَ على إرسال رسول تستنصحُه فاختبر فَهْمَه وفِطْنَته ، واستَبِرْ[٣] دينه وأمانتَه ، وألزمه الوفاء والعِفّةَ ، وجنِّبه الإكثار والخِفّة ، وحذِّره أن يزيلَه عن جميل الصدقِ أو سبيل الحقِ عاجلُ بر وإكرام ، وتبجيل وإعظام . (٢٥ آ) فإن كذب الرسول يفوّت المراد ، ويولِّد الفساد ، ويُبطل الحزم ، وينقض العزم . واعلم أنه موسوم بعقله وموزون بفعله . وأنّ معايب الرسل ومعايرهم[٤] أفحشُ من معايبك ومعايرك ، ومناقبهم ومآثرهم أحسنُ من مناقبك ومآثرك ، لأنّ بهم يُستدلّ على مقدار معرفتك بمقادير الرجال ، ويوقَفُ على كيفيَّة تصرُّفك بمصاريف الأعمال . فأحسِن الاختيار لهم والاستظهار عليهم . واعلم أنّهم أساسُ

---

(١) معاوية بن حُدَيج بمهملة ثم جيم مصغّراً . انظر تهذيب التهذيب (١٠ : ٢٠٣)

(٢) انظر : خطط المقريزى (١ : ٢٠٩)

(٣) استبر كسبر : امتحن غور الشىء

(٤) المعاير العيوب

الملك وحُرّاسه ، فلا تُغفِل مُراعاة أحوالهم ، ولا تُمهل مكافأة أفعالهم . وأولِ المحسن ما يستحقه بحسن الوفاء ، والمسيء ما يستوجبه من سوء الجزاء ، ليتصرّفوا على الأمانة ويتعفّفوا عن الخيانة إن شاء الله .

وجاء فى سيرة المأمون أنّه أرسل رسولاً إلى ملك الروم فلما وصل إليه ، وأوصل ما صحِبه من الكُتُب ، وأقام أياماً ، استأذنه فى الدخول إلى الأسرى فأذِنَ له . فدخَل إليهم وسألهم عن أخبارهم ، فأعلموه ماهم عليه . فلمّا أراد الخروج عنهم قام إليه رجلٌ من أهل بغداد ، وأنشده أبياتاً ، وسأله أن ينشِدَها المأمون .

والأبيات[١] :

خرجنا من الدنيا فلسنا مِنَ أهْلها	ولسنا من الأحياء فيها ولا الموتى[٢]
ألا أحد يرثى لأهل محـلة	بأرض بلادالروم فى ضنكها أسرى
كأنهم لم يعرفوا غيرَ أسرهم	ولم يعرفوا إلا الشدائد والبلوى
طوى عنهم الأخبار قصْرٌ مُمَنَّع	له حارس ، تهدا العيون وما يهدا (٢٥ب)
إذا دخل السجّان يوماً لحاجة	فرِحْنا وقلنا[٣] جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا[٤] ، فُجلُّ حديثنا	إذا نحن أصبحنا الحديثَ عن الرؤيا
فإن حَسُنَت لم تأتِ عجلىً وأبطأت	وإن سَمُجَتْ جاءت على عجل تترى[٥]

فلما وصل الرسول إلى المأمون فأنشَدَه الأبيات ، أبكاه وأحزنه . فافتتحه[٦] واستنقذهم ،

---

(١) نسبها المسعودى فى المروج (٢ : ٢٩٥) إلى الفضل بن يحيي . ونسبها الجاحظ فى المحاسن والأضداد إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (ص ٥٩) ، ونسبت فى شذرات الذهب إلى أبى العتاهية (١ : ٣٣١) وقال : كان الفضل بن يحيي ينشدها فى سجنه

(٢) فى عيون الأخبار (١ : ٨١) ، والمحاسن والأضداد (ص ٥٨) . «خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها» وقبل هذا البيت:

إلى الله أشكو إنه موضع الشكوى	وفى يده كشف المصيبة والبلوى

(٣) فى عيون الأخبار ١ : ٨٢ «عجبنا وقلنا»

(٤) فى عيون الأخبار (١ : ٨٢) « وتعجبنا الرؤيا » .

(٥) فى عيون الأخبار (١ : ٨٢) « وإن قبحُت لم تحتبس وأتت عجلى » .

وفى المحاسن والأضداد (ص ٥٩) :

فإن حَسُنَتْ كان بطيئاً مجيئها	وإن قبحت لم تنتظر وأتت عجلى

وليس البيت بمستقيم .

(٦) كذا فى الأصل . ولعل قبل هذا الحرف جملة ساقطة .

وفتح بعد ذلك من بلاد الروم مُدُناً جليلة وحصوناً منيعة واستباح قِلاعاً شاهقة ، وقفل من بلاد الروم إلى مصره[1].

قال الشاعر فى تخيّر الرسول وانتخابه وترك التسمّح فيه :

إنَّ الرسول مكان رأيك فالتمس ... للرأى آمن مَنْ وَجَدْتَ وأنصحا

تأبى الأمور على الغبىِّ فإن سعى ... فيها الذكى فبالحرا[2] أن تصلحا

فإذا تخيَّرتَ الرسول فلا تكن ... متجوِّزاً فى أمره متسمِّحَا

وتَوَخَّ فى حُسْنِ اسمه وروائه ... قول النبىِّ تيمُّناً وتنجُّحا

واجعله إمَّا ماضياً أو نافذاً ... أو ياسراً أو مُنْجِحاً أو مُفْلحا

وقال الآخر يمدح رسوله ويذكر حرصه واجتهاده ويُمنه وبركته .

مبشِّراً فى حيث وجهتَه ... من المناجيح الميامين

كأن مايقضيه من حاجة ... أبعثه فيها له دونى (٢٦ آ)

فقال شاعر العرب[3] فى إفهام الرسول وصاته ، وتكرير القول عليه إلى أن يلقنه ويفهمه :

إذا أرسلتَ فى أمرٍ رسولاً ... فأفهِمْه وأرسله أديبا

ولا تترك وصيَّته بشىء ... وإنْ هو كان ذا عقل لبيبا[4]

فإن ضيَّعتَ ذاك فلا تلمه ... على أن لم يكن خفظ الغيوبا[5]

كتب بعض الظرفاء إلى بعض إخوانه كتاباً وصف فيه رسولاً فقال فى فصل منه :

« ... وقد رسمتُ بينى وبينك فى[6] النقل إليك عنى ، وإلىّ عنك ، لطيفاً ظريفاً لو كان فى عينٍ لما قَذِيَت ، أو على يمامة[7] لما تأوّدت ، تُفهمه اللحظة ، ويلقن[8] الإشارة ويستغنى

(١) فى الأصل « إلى مصر » .

(٢) الحرا الخليق ، ومنه بالحرا أن يكون ذلك (القاموس) .

(٣) وردت هذه الأبيات فى مهذّب الأغانى (٩ : ١٣) لأبى العطاء السندى .

(٤) فى المحاسن والمساوئ للبيهقى (ص ١٦٩) « أريبا » .

(٥) فى المحاسن والمساوئ (ص ١٦٩) « علم الغيوبا » .

(٦) فى الأصل « والنقل » . (٧) اليمامة : الغصن .

(٨) لقِن : فَهِم .

عن العبارة . لا يردّه حجاب ولا يُغلق عنه باب . أرق من الهوى[١] ، وأخفى من الطيف فى الكرى ، إن رأيته مغضباً رضيتَ ، أو مُحْفَظا عَفَوْت . أو مهموماً سَلوْت ، وكتب أسفل كتابه :

أكرم رسولِى فإنَّه أذُنٌ … تسمعُ عنِى ومقلةٌ تنظر

أدنو من النازح البعيد به … ولم أغب عن جميع ما يحضر

ما ندم اثنان ظلَّ بينهما … بالرفق واللطف عاقل يسفر

وقال الآخر فى الإسراع برسوله :

جُعلتُ فداءك لا تحبِسَنْ … رسولى إليك ولا تُخْلِفَنْ موعدى (٢٦ب)

ولا تُرْجِعَنَّ رسولى إليك … رجوع رسول أبى الأسود

وقال الآخر[٢] :

إنْ تَشْقَ عينِى بها فقد سَعدَتْ … عينُ رسولِى وفزتُ بالخبر[٣]

وكلّما جاءنِى الرسول لها … رددتُ عمداً فى طرفه نظرى

تظهر فى وجهه محاسنها … قد أثَّرت فيه أحسنَ الأثر

خُذْ مقلتى يا رسول عاريةً … فانظر بها واحتكم على بصرِى

وقال الآخر[٤] فى المعنى وزاد زيادة ملّح بها :

بعثتك مشتاقاً[٥] ففزتَ بنظرة … وأغفلتنى حتى أسأتُ بك الظنَّا

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى محاضرات الراغب (٢ : ٤٧) أنها لمحمد بن أميّة . وفى الطبرى ، وابن الأثير ، وتاريخ بغداد لطيفور (ص ٢٩١) أنها للعباس بن الأحنف . وليست فى ديوانه المطبوع .

(٣) فى الأصل « قرّت بالنظر » ولايستقيم الوزن . وعند طيفور (٢٩١) « وفزت بالخبر » وهو ما أثبتنا .

(٤) فى محاضرات الراغب(٢ : ٤٧) ، والطبرى (١١٥٢/١١ III سنة ٢١٨) أنها للمأمون . وفى العقد الفريد (٤ : ٣٧٦) : « عتب المأمون على جارية من جواريه ، وكان كلفاً بها ، فأعرض عنها ، وأعرضَتْ عنه . ثم أحزنه الهوى وأقلقه الشوق . فأرسل يطلب مراجعتها ، وأبطأ الرسول . فلما رجع أنشأ يقول :

٥ فى الطبرى ... وابن الأثير (٥ : ٢٢٩) « بعثتك مرتاداً » .

وناجيتَ مَنْ أهوى وكنتَ مقرَّباً[١] فياليت شعرى عن لقائك[٢] ما أغنى[٣]

وأمْرحتَ[٤] طرفاً فى محاسن وجهها ومتَّعتَ باستماع نغمتها أذنا[٥]

فياليتنى كنتُ الرسول ، وكنتَنى فكنتَ الذى يُقصىَ وكنتُ الذى يُدنى[٦]

وقال آخر :

هجر الرسول بهجر مرسله فبقيت لا عيناً ولا أثرا

صحَّت نصيحته لمرسله فأراه يهجر كلما هجرا

واستأذن المدينى فى توجيه رسول فملّح :

ائذنى للرسول يأتيك منى بكتاب ولا تردّى جوابى

فلعمرى ما حسرتى منك إن قا سيتُ فيك العذاب دون العذاب (٢٧ آ)

إنَّما حسرتى تذكُّرُ ما بى من بلاء وليس تدرين ما بى

واعْلميه ، ولا تثيبى عليه أنا راضٍ بالعلم دون الثواب

وقال شاعر العرب[٧] :

<إذا>[٨] أرسلونى عند تقدير حاجة أمارس فيها كنتُ نعم الممارس

ونفعىَ نفعُ الموسرين وإنّما سوامى سوام المقترين المفالس[٩]

وقال الآخر ، وقد خاف أن يُعاد إليه رسوله بغير ما أربه :

يا سوء منقلَب الرسو ل مخبّرى بخلاف ظنى

إنى أعيذُك أن تكو ن شغلتَنى وشُغِلتَ عنى

---

(١) فى الطبرى ... وتاريخ طيفور (٢٩٠) « مباعداً » وفى العقد (٤ : ٣٧٦) « مبعّداً » .

(٢) فى الطبرى ... « عن دنوّك » .

(٣) وبعده فى الطبرى : أرى أثراً منه بعينيك بيّناً لقد أخذت عيناك من عينه حسنا

وفى العقد : أرى أثراً منها بعينيك لم يكن لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا

(٤) فى العقد « ونزّهتَ طرفاً » .

(٥) فى العقد « ومتّعتَ باستظراف نغمتها أذنا » .

(٦) فى محاضرات الراغب :

ألا ليتنى كنتُ الرسول وكانني فكان هو المقصى وكنتُ أنا المُدنى

(٧) فى حماسة أبى تمام (٢ : ٢٧٠) أنها ليزيد بن الطثرية .

(٨) فى الأصل « تعذر » ولا يستقيم الوزن ، والتصحيح من الحماسة .

(٩) فى البيتين إقواء . وكذا وردا فى الحماسة .

وقال الآخر :

وابعث رسولاً فى ملاطفةٍ قد أحكمتْ أحكامه الحيَل
ممّن عليه غباوة وترى أفعـــاله كالنار تشتعل

وجاء فى أخبار الشعبيّ أنّه قال : قال لى ملك الروم لمّا شيعنى وقد قفلتُ من عنده : « كنتُ أحبُّ أن أسألك عن ثلاث . وكان حسنُ حديثك يمنعنى من ذلك . قلتُ : فليسألنى الملك الآن عما أحبّ . قال : خضابك هذا حين غيَّرته ألا رددته إلى سجيته وسِنْخِه[1] الأول أو تركته كما[2] غيّره الله تبارك وتعالى ! . قلتُ : الجوابُ عن هذا السؤآل أنّ هذه سنّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم . قال الملك : سُنَنُ الأنبياء لا مَتْرَك لها ولا احتجاج عنها . قال الملك : فهل للعرب من الأمثال مثل أمثال العجم ؟ قلتُ نعم . <قال> فعرِّفنى منها مثلاً واحداً ، قلتُ : ابنَ آدم إذا[3] (٢٧ ب) لم تَسْتَحْى فاصنَع ما شئت . قال : هذا الذى لا يشبهه مثل ! قال : فأخبرنى أيُّما أفضل أنتَ أم أبوك ؟ قلتُ أبى أفضلُ منى . قال : فمن أفضل أنتَ أو ابنك ؟ قلتُ : أنا أفضل من ابنى . قال : هكذا نجد صفتكم أنّ الآخر فالآخر شر حتى يكون الآخر بمنزلة الـكلاب[4] . قال . قلتُ فإنّ ابن عم نبينا عبد الله بن العباس يروى عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « سيجىءُ فى آخر الزمان أقوام تكون وجوههم وجوه الآدميين ، وقلوبهم قلوب الشياطين أمثالُ الذئاب الضوارى ، ليس

---

(١) السِنْخ : الأصل. (٢) فى الأصل « عما » .

(٣) فى الأصل مكرّرة .

(٤) فى تاريخ ابن عساكر (٧ : ١٤٦) : وجّهنى إلى ملك الروم ، فلما كلّمنى قال : أنتَ أحقُّ بموضع صاحبك منه . فقلتُ : على بابه عشرةُ آلاف كلهّم خير منى . فقال : هذا من عقلك ! ثم قال : أريد أن أسألك عن ثلاث خِلال ، فإن خرجْتَ منهنّ فأنت أعلم الناس . قلتُ : سَلْ . قال : حتى تخرج وأشيعك وأسألك عنهن ، فتمضى وليس فى نفسى منهن شىء . فلما شيّعنى قلتُ : سَلْ عن الثلاث خِلال . فقال : يا شعبي لـكم مَثَل ؟ قلتُ : نعم ، ليس فى الأرض مَثَل مثله . قال : وما هو ؟ قلتُ : إذا لم تستحى فاصنع ما شئت . فقال : حسبك ما سمعتُ بهذا المثل قط . قال يا شعبيّ لِمَ غيّرت لحيتك بصفرة ، ألا صبرتَ على البياض كما ابتليت أو رددتها إلى نسجها الأوّل فخضبتَ بالسواد ؟ فقلتُ : هذى سنّة نبيّنا . فقال : ما جاء به النبيّون فليس فيه حيلة . قال : فأخبرنى أنتَ خير أم أبوك ؟ فقلت أبى خير منى . قال : وأنت خير من ابنك؟قلتُ : نعم . قال : وابنك خير من ابن ابنك؟قلتُ : نعم . فقال الحمد لله الذى أظفرنى بك يا شعبي ، آخركم قردة وخنازير إذا كنتم تزدادون فى كل قرن شراً . وانظر الشذرات (١ : ١٢٧) فقد رويت بلفظ مختلف أيضاً .

فى قلوبهم شىء من الرحمة ، سفاكون[1] للدماء ، لا يرعوون[2] عن قبيح . إن تابعتهم واربوك[3] ، وإن تواريت عنهم اغتابوك ، وإن حدثوك كذبوك ، وإن ائتمنتهم خانوك . صبيهم عارم ، وشابهم شاطر ، وشيخهم لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر . الاعتزاز بهم ذل ، وطلبُ ما فى أيديهم فقر . الحليمُ فيهم غاوٍ ، والآمر بالمعروف مُتّهم ، والمؤمن مستضعف ، [والفاسق فيهم مُشَرَّف][4] . السُنَّة فيهم بدعة ، والبدعة سنة . فعندئذ يُسَلِّط الله عليهم شرارهم ، ويدعو خيارهم فلا يُستجابُ لهم »[5] .

قال الحسين بن محمد[6] : قد أكثرتُ من الإيجاز والاقتصار ، وذلك أننى أكثرتُ رسوم الأبواب ، وقَلَّلْتُ ماضمّنتها . لأن الثابت إذا أفاد المعلوم أغنى عن التكرير والإعادة . ولم أرو فى كل باب إلا الفقرة المفردة < و > الخبر المنقطع . ولم أقوّ الحجج[7] وأعترض < على > الأقوال إيثاراً منى لترك التطويل ، وعلماً منى بأن اليسير يُغنى عندك عن الكثير ، لأنك بحمد الله مِمَّن نشأ فى دواوين الأدبِ ، ورُبِّى فى حجور (٢٨ آ) العلماء ، واغتذى بالعلوم ، وارتاض بالفِكر والفِطَن ، وغَنِىَ بالإشارة عن العبارة ، والتلويح عن التصريح . والله يجمّل الزمان ببقائك ، ويُدافع لنا عن مُهجتك وحَوْبائك[8] ، ويبقيك عَلَماً للعلم وينبوعاً للفهم ، ما أظلم ليل وأضاء نهار ، وما غرّدت على أيكها الأطيار ، بغالب أقضيته ، ونافذ مشيئته ، إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد
خاتم النبيين ، ورضى الله عن الصحابة أجمعين
بتاريخ سلخ شهر المحرم ، أوّل سنة ٧٩٠ من الهجرة
النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم . (٢٨ ب)

تام

---

(١) فى مجمع الزوائد (٧ : ٣٢٦) « سفاكين » .

(٢) فى الأصل . « لايرعون » . (٣) فى مجمع الزوائد « واروك » .

(٤) الزيادة من مجمع الزوائد .

(٥) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ . ٣٢٦) « روى الطبرانى هذا الحديث فى معجمه الكبير ، وفيه محمد بن معاوية النيسابورى وهو متروك » .

(٦) فى الأصل « الحسن بن محمد » . (٧) فى الأصل « الحج » .

(٨) الحوباء : النفس .

رُسُلُ المُلُوكِ

وَمَن يَصلح للرِّسَالَةِ وَالسِّفارة

الجُزءُ الثَّاني

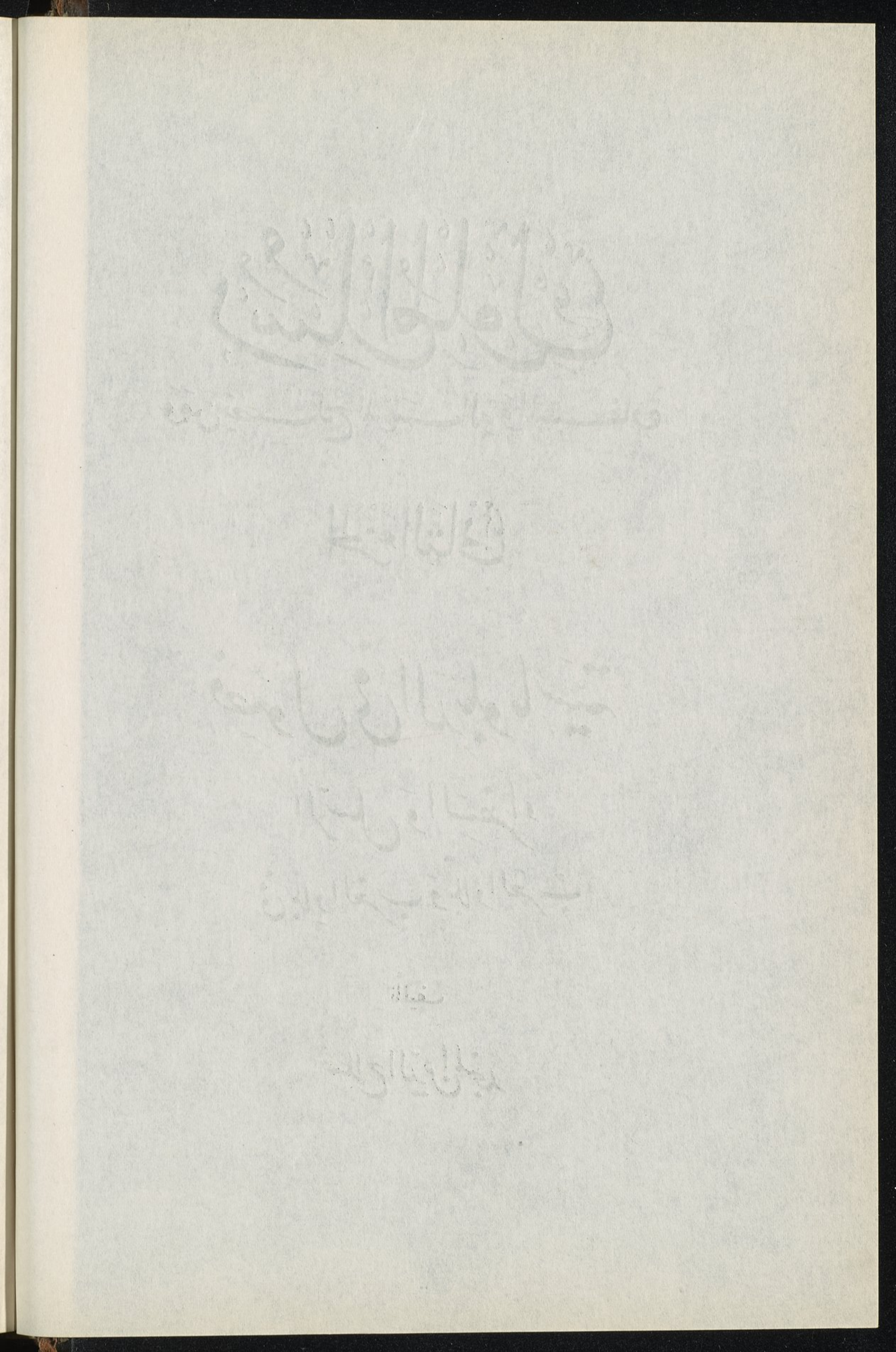
فُصُول في الدّبلوماسيّة

الرّسل وَالسُّفراء

في بلادِ الغرب وَبلاد العَرب

تأليف

صلاح الدين المنجد



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه فصول قصار فيها إيجاز وتبسيط دفعنى إلى كتابتها ما قرأته عن الرسل والسفراء فى كتاب رسل الملوك لابن الفراء الذى حققته . فجاءت متممة له . وقد عنيت أن أجلو فيها صفحة من أمتع صفحات الدبلوماسية الإسلامية فى العهود الخوالى تتعلق بالرسل والسفراء . وقصدت أن تكون مقدمة لدراسة واسعة عن الدبلوماسية فى الإسلام . هذه السياسة التى كان لها شأن كبير فى تاريخ المسلمين وعلاقاتهم بالأمم المجاورة .

وإنى لأفخر أن تكون هذه الفصول أول ما يكتب فى هذا الموضوع باللغة العربية فى هذا العصر ؛ إذ ندر أن تجد عن الرسل والسفراء العرب وأحوالهم وصفاتهم وما يتعلق بهم ما يشفى الغلّة أو يرضى النفس .

ولقد حاولت أن أبيّن هنا كل ما يتعلق بالرسل والسفراء فى الإسلام منذ عهد الرسول حتى فتح القسطنطينية . وأظهر أن جميع الميزات والأوضاع التى تتبع اليوم فى الدبلوماسية الحديثة — وليدة العصور الأخيرة — كانت معروفة لدى العرب فى القرون الخالية . عدا أمور قليلة . وأن بعض هذه الميزات والأوضاع كان ذا صفة حقوقية بمعنى أنه كان ينفذ ويحترم .

ولقد اضطررت فى سبيل ذلك أن أتحدث فى القسم الأول من هذا الكتاب عن الممثلين الدبلوماسيين فى الغرب وأن أردف ذلك بما يتعلق بالرسل والسفراء لدى العرب ، لتكون المقايسة واضحة جليّة ، وليعلم القارئ ما عندهم اليوم وما كان عند العرب أمس .

وكان من الطبيعى أن يختلف نهجى فى القسم الأول عن النهج الذى اتبعته فى القسم الثانى . ذلك لأن أحوال الممثلين الدبلوماسيين فى الغرب مقررة معروفة . فجهدت فى تلخيصها وتبسيطها ونقلها ، فى حين أن أحوال الممثلين فى الإسلام ما تزال مجهولة . فأنا آتى إذن بأشياء جديدة . ولا بد لى من سوق الأدلة لأدعم رأياً أذهب إليه وأبلغ هدفا أريد إدراكه ؛ ومن هنا كانت كثرة النصوص والاستشهادات . فلا أقرر إلا بعد الاستشهاد ، وإذا قطعت بشيء سقت أدلتى عليه .

ولا أزعم أن هذه الفصول كاملة ، رغم ما عانيت فى جمع موادها و إظهارها كما ترى . وأرجو أن تعقبها فصول أ كثر سعة منها . غير أنها مع ذلك جديدة تحتاج إليها البلاد العربية ، فى يقظتها الدبلوماسية التى نراها فى جميع الأقطار ، رغم إيجازها .

و إنه لواجب أن أشكر العلامة الكبير الأستاذ أحمد أمين بك الذى تفضل بالموافقة على طبع هذا الكتاب ووقف على نشره . كما أشكر سلفا من يدلنى على خطأ وقعت فيه لأجتنبه .

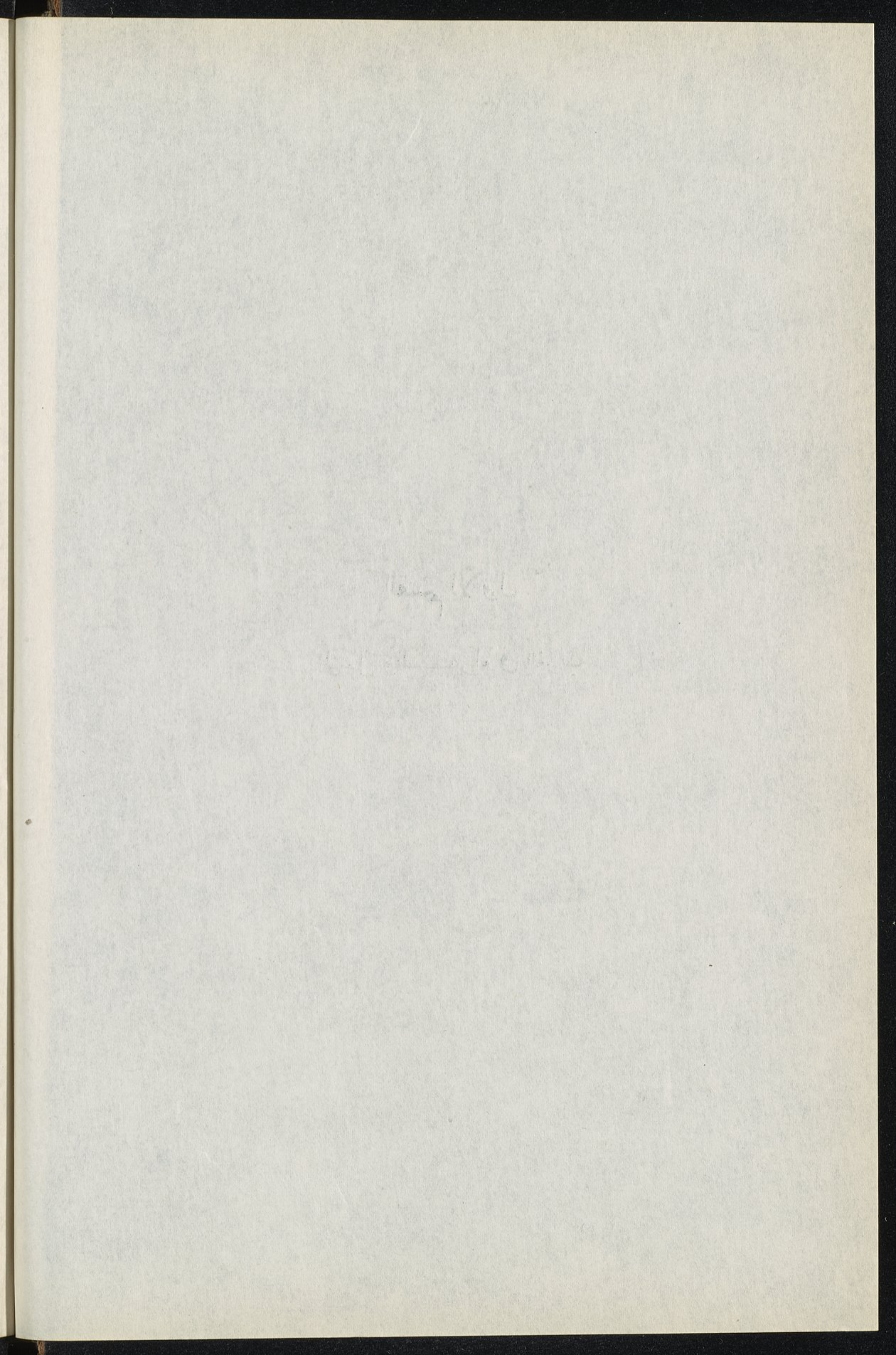
والحمد لله

بستان الرئيس — دمشق
١ كتوبر سنة ١٩٤٥

صلاح الدين المنجد

القسم الأول

الرسل والسفراء فى الغرب



الفصل الأول

الباب الأول

تعريف السفير — الرسل عند القدامى من الفرس والمصريين والعبرانيين وأهل يونان — الرسل فى القرون الوسطى — الرسل قبيل معاهدة وستفاليا — الرسل بعد معاهدة وستفاليا — عصر الدبلوماسية العظمى

السفير أو الرسول شخص كلّف المثول أمام حكومة أرسل إليها ليبقى لديها ويتكلم باسم من أوفده أو يقضى أموراً مضى لإنجازها وتذليل المصاعب دونها . وقد عرف المصريون والفرس والعبرانيون وأهل يونان وخاصة الرومان عادة الترسل والسفارة . فكان بعضهم يرسل إلى بعض رسلا يدافعون عن الحقوق ويحلّون المصاعب وينجزون الأمور . وقد سمى أهل يونان والرومان هؤلاء الرسل باسم « أوراتور » ومنحوهم حقوقا خاصّة يتمتعون بها ، على أن هذه الحقوق لا تماثل حقوقهم فى أيامنا ، ولا تشا كل ما أقرّه لهم الشرع الدولى من ميزات وصفات .

فلما أظلّت الناس القرون الوسطى قامت فى أوربة حكومات متباينة ، وكان لكل منها صبغة ووجهة ، فبقيت طوال أجيال لا يرسل بعضها الرسل إلى بعض إلا قليلا . لأن العالم المتمدن يومئذ كان فى الأغلب يقوم فى مملكة واحدة ذات شأن ، وكان ما تعدّاها من الممالك والأمم أدنى من أن يوازى بها أو يرسل الرسل إليها . وكان الملوك يرسلون الأمراء إذا اضطروا فى أحايين شتى فينوبون عنهم فى احتفال يقام أو زواج يعقد ، أو ترسّل يجرى ، ولينجزوا لهم خواصّ أمورهم التى كانوا لا يميّزونها من أمور الناس ومصالح الرعية . وكان البابا فى أحايين أخرى يرغب إلى الملوك والأمراء فى إرسال رسل إليه يقدّمون له باسمهم الطاعة ويؤكدون الولاء والخضوع .

ولعل البابوات كانوا السباقين الأوائل إلى إيفاد رسل إلى ملوك فرنسة وإمبراطور بزنطية . وكان هؤلاء الرسل يسمّون « المسؤولين Responsables » ، ثم انقلبوا إلى سفراء

دائمين ، يطلق عليهم اسم « نوّاب البابا » لدى ملك فرنسة وعاهل إنجلترة وغيرهما .

ثم جرى ملوك فرنسة على هذه السُّنّة ، فكان للويس الحادى عشر رسل مقيمون لدى ملك إنجلترة ودوق برغونية . ولما تكاثرت مصالح الفرنسيين واتسعت أعمالهم وتشابكت قضاياهم اضطر ابنه شارل الثامن إلى إجبار الأمراء أن يكون لهم رسل دائمون عند سائر الملوك . فالتمثيل السياسى الدائم كان إذن نتيجة سياسة التوسع التى ظهرت فى القرن السادس عشر .

على أنه لم يكن لهؤلاء الرسل نظام خاص يجرون عليه . وكانت الدبلوماسية يومئذ تمنح هؤلاء صفة تمثيل الملك فى كل شىء . ومن هنا نشأت عوائق النفقات والتكاليف التى يتطلبها التمثيل ، والتى كانت الدولة تعجز عن القيام بها ، لأن نفقات من يتكلم باسم الملك لا حدّ لها ولا حصر ؛ كلما اتسعت كان ذلك أدل على عظمة الملك ورفعة مكانته . فلم يكن بدّ ، والأمر كما رأيت ، من اللجوء إلى انتقاء هؤلاء الرسل من ذوى الترف والثراء الذين ينفقون إنفاق من لا يخشى الفقر فى سبيل إظهار عظمة الملك دون أن تخسر الدولة خساراً عظيما .

ولم يصبح الرسل والسفراء دائمين يقومون فى ديار الحكومة التى أرسلوا إليها إلا فى ثنايا القرن السادس عشر (القرن العاشر الهجرى) وقد انقسموا منذ ذلك الحين إلى فئات . وفى القرن السابع عشر حددت صفات الفئة الثانية منهم . ويمكن أن تتخذ معاهدة وستفاليا Westphalie (١٦٤٨) مبدأً لوضع أسس ثابتة لنظام الممثلين السياسيين . ثم كان لمعاهدة اوترخت Utrecht (١٧١٣) أثر كأثر معاهدة وستفاليا فى ذلك .

وبين معاهدة وستفاليا ومؤتمر فينا قام أعظم عصر دبلوماسى عرفته أوربة فى تلك الأزمنة . ووجد التمثيل السياسى ميداناً واسعاً . وأصبح الرأى العام يفرض الحوادث فرضاً دون أن يتابع سيرها . وجعلت وفرة مصالح الدول وتضاربها أمر تمثيل ممثل واحد ، دولةً واحدة ، فى الدول جميعاً ، مستحيلاً . فكثرت أنواع الممثلين ، وكان لهم شأن يفوق شأنهم اليوم ، لأن بُعْدَ عواصم الدول بعضها عن بعض ، وصعوبة نقل الأخبار ، ورغبة الحكومات فى عرفان ما يجرى فى كل دولة ، كان يشوّقها لتسقط الأخبار وسرقة الأسرار . وقد عُرف منهم فى هذه الحقبة ثلاثة ضروب : وزير مطلق Plènipotentiaire ، وزير مقيم Resident ،

وزير قائم بالأعمال Chargè D'Affaires . وما كاد مؤتمر فينا يقوم حتى كانت قضية الممثلين السياسيين ومراتبهم وصفاتهم ، نظراً لما جرى من قبل ، من أكثر القضايا التى بحثها المؤتمر شأناً وأعظمها أثراً .

الباب الثانى

تصنيف الرسل والسفراء — الملحق ذو الرقم ١٧ من معاهدة فينا — بروتوكول إيكس لاشابيل

كان أمر تصنيف الرسل من أهم القضايا التى تناولها مؤتمر فينا . وإلى زمنه يرجع عهد تصنيف الممثلين الدبلوماسيين المتبع فى أقطار العالم إلى يومنا هذا . وقد كان هذا المؤتمر قد عقد فى التاسع عشر من آذار سنة ١٨١٥ من قبل الدول الثمان التى وقعت فى معاهدة باريس سنة ١٨١٤ أى النمسا وأسبانيا وفرنسة وبريطانيا العظمى والبرتغال وبروسية وروسيا والسويد وهاك الملحق الذى تضمن نظام الممثلين وتصنيفهم :

« نظام درجات الممثلين الدبلوماسيين الصادر فى التاسع عشر من آذار ١٨١٥ — مؤتمر فينا الملحق السابع عشر .

« لتلافى الحيرة التى كثيرا ما حدثت أو التى يمكن أن تنشأ أيضا عن مطامع التقدم فى المراسم والتشريفات بين الممثلين الدبلوماسيين المختلفين . فقد وافق مفوضو الدول الثمان التى وقعت فى معاهدة باريس على المواد التاليات وهم يعتقدون أن من الواجب دعوة رؤساء الدول الأخرى إلى اتباع النظام نفسه .

« المادة الأولى : يصنف الموظفون الدبلوماسيون ثلاثة أصناف :

ا — السفراء ، الليغا ، النونس .Ambassadeurs, Legats, Nonces

ب — الرسل المبعوثون Envoyés الوزراء Ministres Plènipotentiaires

ح — وسائر المعتمدين لدى وزراء الشؤون الخارجية .

« المادة الثانية : أن للسفراء والليغا والنونس وحدهم صبغة تمثيلية .

« المادة الثالثة : أن الرسل الدبلوماسيين المكلفين القيام بمهمات رسمية فوق العادة لا يمتازون فى هذه الناحية من غيرهم من حيث الرتبة .

« المادة الرابعة : يحتل الرسل الدبلوماسيون مكانهم بين رسل الدول الأخرى فى كل صنف باعتبار تاريخ تبليغهم وصولهم الرسمى .

« المادة الخامسة : يحدد فى كل دولة أسلوب موحد لاستقبال الموظفين الدبلوماسيين فى كل صنف .

« المادة السادسة : إن صلات القرابة ما بين البلاطات المختلفة لا تكسب موظفى هذه البلاطات الدبلوماسيين رتبة ما .

« المادة السابعة : إن الترتيب الذى ينبغى اتباعه فى توقيع الصكوك والمعاهدات الجارية بين الدول المختلفة التى تقبل بنظام التصنيف هذا يعين بالقرعة .

« ضم هذا النظام إلى بروتوكول ممثلى الدول الثمان المطلق الصلاحية التى وقعت فى معاهدة باريس فى اجتماعهم المنعقد فى التاسع عشر من آذار ١٨١٥ » .

وفى سنة ١٨١٨ عقد مؤتمر ايكس لاشابيل وبحث مرة ثانية فى الأحوال الدبلوماسية فأصدر المؤتمر ملحقا هذا نصه :

مؤتمر ايكس لاشابيل Congres D'Aix-La-Chapelle بروتوكول ٢١ نوفمبر ١٨١٨ :

« قطعاً لدابر المناقشات المزعجة التى قد تحدث فى المستقبل بشأن أمور خاصة تتعلق بأصول التشريفات الدبلوماسية لم تبت فى ملحق مؤتمر فينا الذى بحث فى المسائل المختلفة المتعلقة بالدرجات، قررت البلاطات الخمسة أن يؤلف الوزراء المقيمون المعتمدون لديها ، بالنسبة لدرجاتهم ، طبقة متوسطة بين وزراء الدرجة الثانية والقائمين بالأعمال Chargés

Metternich, Castlereagh, Wellington, Richelieu, Ihardinberg, Bernstorff Nesselrode, Capo D'Istria

حول هذا التصنيف : ونتج عن بروتوكول ايكس لاشابيل أن أصبح الممثلون الدبلوماسيون أربعة أصناف . الصنف الأول : السفراء وسفراء الليغا والنونس الذين يعتبرون سفراء عاديين . والصنف الثانى : الرسل والوزراء المطلقو الصلاحية المعتمدون لدى الملوك ورؤساء الدول . وقد جرت العادة أن يضاف إلى هؤلاء (الأنترنونس) وهم رسل البابا وأقل مرتبة من النونس . والصنف الثالث : الوزراء المقيمون وقد أضيفوا فى بروتوكول ايكس لاشابل ووافقت الدول فى أيامنا على اعتمادهم . والصنف الرابع :

القائمون بالأعمال والرسل الموقتون والدائمون المعتمدون لدى وزراء الشؤون الخارجية .

ونرى أن مؤتمر فينا فى وضعه نظام التصنيف الدپلوماسى كان مصدرا لتقاليد دپلوماسية جرت الدول عليها حتى يومنا . وأهم ما فيه أن المعتمدين المكلفين بمهمات موقتة لا يحق لهم من جراء ذلك أن يطالبوا بالرقىّ إلى مراتب أرفع من مراتبهم . ومن ناحية أخرى فإن صلات القرابة والمصاهرات بين الأسر الموجودة فى البلاطات المختلفة لا تكسب المعتمدين الدپلوماسيين المنتسبين إلى هذه الأسر امتيازا خاصا . وأمر آخر له شأنه هو تصنيف هؤلاء الممثلين الدپلوماسيين حسب تاريخ وصولهم الرسمى . وهذا هو أساس أنظمة التشريفات بعينه . ثم لجىء إلى القرعة لترتيب توقيع المعاهدات والاتفاقات إذا اقتضت الحاجة ذلك .

الباب الثالث

إيضاح الأعمال — إيضاح الأسماء

ولعل من الطرافة أن نتتبع أعمال كل صنف ونفسر كل اسم .

أما كلمة السفير Ambassadeur فتنحدر من أصل جرمانى من كلمة Ambacht ومعناها ممارس السلطة القضائية باسم رئيس الدولة فى الكور والأقاليم . ثم أطلقت على أرفع صنف من الرسل الذين يمثلون رؤساء دولهم لدى رؤساء الدول الأخرى ، ولا يفاوضون وزير الشؤون الخارجية بل رئيس الدولة وحده .

أما الليغا Legat فهو سفير البابا يوفد للقيام بمهمة سياسية خاصة أو ليمثله فى أمر من الأمور . وتنتهى مهمته بانتهاء عمله ، ومن هؤلاء من هم دائمون . وينتقون عادة من الكرادلة Cardinaux . ومنهم من يطلق عليهم اسم Legats Missi وهم سفراء البابا الذين يعنون بالتمثيل الدپلوماسى ويمثلون البابا لدى رؤساء الدول المسيحية .

أما النونس فهو سفير البابا الدائم غير أنه يقوم علاوة على مهمته السياسية التى يكلف القيام بها بوظائف روحية ودينية .

أما الأنتر نونس التابعون للبابا فيعتبرون كالممثلين الدبلوماسيين من الدرجة الثانية ، ولم يكن لحامل هذا الاسم من قبل صبغة دينية ، وكانت النمسا قد عينت لدى الخلفاء العثمانيين فى

الحقبة الواقعة بين سنتى ١٦٧٨ و ١٨٥٦ ممثلا دپلوماسيا يحمل اسم أنتر نونس . ثم اختص سفراء البابا من الدرجة الثانية وحدهم بهذا الاسم .

أما الوزراء المفوضون فهم أقل درجة من السفراء إذ لا يمثلون رئيس دولتهم وليس لهم الحق فى مفاوضته رأسا .

أما الوزراء المقيمون فقد ظهروا بظهور السفارات الموقتة وكان من النادر بادئ بدء أن يكون للدول ممثلون دائمون مقيمون فى الدول الأجنبية ، وكان أحدهم إذا اضطر إلى إطالة إقامته فى إحدى البلاد أطلق عليه لقب « المقيم » . ولما أصبحت المهمات الدائمة من القواعد العامة لازم هذا اللقب وزراء الدرجة الثالثة .

والقائمون بالأعمال هم ممثلون دپلوماسيون ولـكن من طبقـة أدنى . ولهم حكم الوزراء العامين باعتبار أنهم مدعوون فى كل حين إلى النيابة عن رؤساء البعثات كلما نشبت خلافات فجائية أو قام نزاع بين البلدين وذلك لصعوبة مراجعة وزراء الدرجة الأولى أو الثانية فى مثل هذه الأحوال .

وينبغى أن يميز القائمون بالأعمال من القائمين بالأعمال الوكلاء . أما الأوائل فهم ممثلون دپلوماسيون عاديون يعينون لمراتب ثابتة دائمة وعليهم إدارة الأعمال الدپلوماسية ، شأنهم فى ذلك شأن الممثلين من الدرجات الأخرى . والفرق الفرد بين القائمين بأعمال و بين وزراء الدرجات الثلاث الأخرى أنهم لا يعتمدون لدى رؤساء الدول ، بل يرسلون إلى وزراء الشؤون الخارجية . أما القائمون بالأعمال وكالة فهم ممثلون يكلفون بمهمات موقتة وعليهم إدارة أمور البعثات بالوكالة بانتظار تسمية موظف أكبر ، وزيرا كان أو سفيرا . ويقوم بهذه الوكالة فى أحايين كثيرة موظفو المفوضيات والسفارات من الدرجة الثانية .

الباب الرابع

إصلاح التصنيف

محاولة جمعية الأمم الإصلاح — استفتاء الدول Referendum

وقد لاقى تصنيف الممثلين الدپلوماسيين على الشكل الذى أقرّه مؤتمر فينا ثم مؤتمر

إيكس لاشاپيل القبول لدى الحكومات كلها ، لأنه يستند على تقاليد قديمة و يمتاز بأنه كما زعموا يوافق العقل والمنطق .

إلاّ أن محاولة قامت فى السنين الأخيرة لإصلاح هذا التصنيف . وكانت جمعية الأمم أولى الداعيات إلى هذا الإصلاح . فقد ألَّف مجلس هذه الجمعية فى عام ١٩٢٤ لجنة من ذوى الرأى والخبرة لجمع القانون الدولى . فأعد أعضاؤها جريدة بالقضايا ذات الصلة بالشرع الدولى التى رؤى أنها خليقة بأن تفرد لها مباحث خاصة . وقد كان لتصنيف الممثلين الدپلوماسيين المكان الأول فى هذا المسرد .

وكلفت لجنة فرعية مؤلفة من عضوين تقديم تقرير خاص بذلك . فاقترحت تصنيفاً جديداً ، وجهت هذه اللجنة إلى الدول فى اليوم الثانى من نيسان سنة ١٩٢٧ ثلاث مسائل تسألها رأيها فيها . فصوتت ثمانى حكومات من سبع وعشرين حكومة على إجراء التعديل (النمسا ، استونيا ، لتوانيا ، هولنده ، البرتغال ، سلفادور ، السويد . . .) كما اقترحته اللجنة الفرعية ، وتقدمت أربع دول أخرى (الدانمارك ، فنلندا ، هنغاريا ، بولونيا) بملاحظات ذات شأن لتبنى تقرير اللجنة الفرعية ، واحتفظت ثلاث دول أخرى برأيها : (استراليا ، مصر ، رومانيا) .

وقد صرحت البرازيل بأن الأمم الديمقراطية الحديثة لا تعتبر الميزة المعطاة للقرار تحويراً للمبادئ الجمهورية . و بينت إحدى عشرة دولة بصراحة بأنها تعارض كل تعديل للنظام المتبع : (إفريقية الجنوبية ، ألمانيا ، بلجيكا ، أسبانيا ، الولايات المتحدة الأميركية ، بريطانيا العظمى ، زيلندا الجديدة ، الهند ، النروج ، فرنسة ، اليابان) ، وقد دعمت بلجيكا وأسبانيا معارضتهما بحجج قوية جدا ذات شأن .

والظاهر أن أعظم الدول لا ترغب فى التعديل ، بل تميل إلى إبقاء النظام الذى وضعه مؤتمر ڤينا . على أن التعديل لا بدّ واقع بعد حين .

الباب الخامس

صفة التمثيل — اقتراحات جديدة

وثمة أمر يحتاج إلى تفصيل . فقد رأيت أن فى بنود ملحق مؤتمر فينا السابع عشر عناية بأمرين : الأول ظاهرى يرمى إلى تلافى المنازعات التى كانت تحدث فى التشريفات بين الممثلين الدبلوماسيين ، وهى منازعات قد كان من الممكن تلافيها دون الاستعانة بتصنيف وهمى لا يقرّه المنطق . والثانى ، وهو الأمر المقصود يرمى إلى ضمان الشأن الأول لممثلى الدول الكبرى .

والواقع أن المفوَّضين المطلقى الصلاحية الذين قرروا ذلك حاولوا بادئ الأمر أن يصنفوا الدول نفسها ، وكانوا يستهدفون من وراء ذلك تحديد مدى نفوذ سلطان كل دولة . فلما رأوا أن فى هذا من المشقة والعنت ما لا يستهان به ، وأن دونه صعوبات وأهوالا عظاما لا تذلّل عادوا إلى تصنيف الممثلين الدبلوماسيين . ومع ذلك فقد حصروا صفة تمثيل الملك والتكلم باسمه فى السفراء والليغا والنونس .

فماذا قصدوا من صفة التمثيل هذه ؟

لقد كانوا يقصدون أن السفير يمثل الدولة نفسها ويتعاقد مع رئيس الدولة المعتمد لديه مباشرة .

وقد أقام العلماء حول صفة التمثيل هذه نقاشاً واسعاً فيه من الطرافة الشىء الكثير . فقد ذهب Ferreira إلى أن هذا التعريف الذى عرّفت به صفة التمثيل مشوب بخطأ بيِّن ، لأن السفراء يومئذ كانوا لا يمثلون رؤساء دولهم فى مصالحهم الخاصة ، ولأنهم كانوا من جهة ثانية لا يستطيعون التعاقد مع رؤساء الدول بلا تدخل وزير الدولة . كما أن من الخطأ أن لا يُعترف لممثلى الدولة الدبلوماسيين ذوى الدرجة الثانية أو الثالثة بالصفة التمثيلية .

فليس الملك فى الوضع الراهن للشرع الدولى العام ذا سيادة مطلقة لأن الأمة وحدها هى ذات السيادة . وإن ما يكلف الممثلون القيام به هو فى الحقيقة مصالح الأمة كلها ، فينتج عن ذلك أن هؤلاء الدبلوماسيين سواء أكانوا ينتمون إلى دولة عظيمة أم حقيرة ، ملكية أو

جمهورية ، وسواء ألقبوا سفراء أو وزراء فإنهم يستمدون سلطتهم من مصدر واحد ، ويقومون بمهمة جليلة واحدة . إنهم يدافعون عن مصالح متشاكلة ، ويهدفون أهدافاً متشابهة هى : مصالح الأمة .

ولذلك نجد أن بين كتب الاعتماد التى يحملها السفراء أو الوزراء ذوو الصلاحية المطلقة وبين واجبات هؤلاء وحقوقهم ، ثم بين الامتيازات والحصانات التى اعترف لهم بها ، والصلات التى تصل بعضهم ببعض أو الحكومات التى ينتسبون إليها ، مساواة مطلقة .

فإذا اعتبرنا ما تقدم لم نجد ما يبرر تصنيف السفراء قبل الوزراء ، بل يمكن القول بأن تطبيق نظام مؤتمر فينا وإيكس لاشاپيل عمل يخالف دستور البلاد التى لا تقر بالسيادة إلاّ للأمة وحدها .

وذهب Gustavo Guernero إلى أنه إذا كان الخطأ فى فهم الصفة التمثيلية التى ميزت السفراء من غيرهم قد أثار نقدات فى القرن الحالى فإننا لا نجد ما يدعو الآن إلى الاحتفاظ بألقاب مختلفة لتسمية أشخاص يقومون بعمل ذى هدف واحد .

ويؤيد علماء الشرع الدولى هذا الرأى . فقد كتب كلوبر Kluber سنة ١٨١٩ أنه يجب اعتبار الممثل الدپلوماسى من حيث الأعمال التى يكلف القيام بها ممثلا للحكومة . وله أن يتصف بالصفة التمثيلية . وأضاف إلى ذلك أن هذه الصفة واحدة يتصف بها الوزراء جميعاً بصرف النظر عن طبقاتهم .

ونادى فيرارا Ferreira بإسقاط اسم السفراء من المجموعة الدپلوماسية باعتبار أن نظام الحكومات الدستورية لا يسمح بالتعاقد بين الملوك مباشرة ، وهؤلاء يتكلمون باسم الملوك ويعقدون العقود مع الحكومات باسم الملوك أيضاً . ويضيف إلى ذلك أن هذه الطبقة الأولى طبقة السفراء متى ألغيت باعتبار أنها تخالف دستور البلاد ، وأبطلت معها المراسم التى تمتاز بها والتى لا تأتلف هى وعادات هذا العصر واتجاهاته ، عندئذ يصبح اسم سفير لقب الوزراء الذين ندعوهم ممثلى الدرجة الثانية والذين ينبغى أن يتبوؤا الدرجة الأولى فى الدپلوماسية منذ اليوم .

واستنتج برادير فودير Pradier Fodere أن تحقيق هذه الرغبة هو تحقيق أمنية العقلية الحديثة المعاصرة . ومن المؤكد أنه ينبغى أن لا توجد سوى فئة واحدة من الوزراء العامين

مادام هؤلاء لا يتكلمون باسم حاكم أو ملك ، وإنما يتكلمون باسم أمة ويمثلون مصالحها . والأمم وحدها هى صاحبات السيادة .

ويوجز سواريز José-Leon Suarez فى الاستنتاج فيقول (١٩١٩) : لما كان مصدر لتمثيل الدپلوماسى هو سيادة الأمة ، وكانت هذه السيادة مطلقة فمن البديهى أولا أن لا يكون صبغة تمثيلية واحدة ، ومن المنطق ثانياً أن لا توجد سوى طبقة واحدة من الممثلين الدپلوماسيين .

وكتب Fiore بهذا الشأن فقال : « . . . . وإن من الصعب تعيين الفرق بين ممثلى الدرجة الأولى وممثلى الدرجة الثانية . إن رئيس السلطة التنفيذية أو رئيس الدولة هما اللذان يعتمدان ممثلى الدرجتين على السواء . ولقد كان تمييز السفراء من الرسل قد بنى بادئ بدء على أساس كان له من قبل وجه . فقد كانوا يمنحون السفراء فى ذلك الحين حق عقد الاتفاقات مع رؤساء الدول مباشرة ، فى حين أن الآخرين رغم أنهم معتمدون لدى هؤلاء الرؤساء ما كان يسمح لهم بالتعاقد مباشرة مع رئيس الدولة . فكانوا يعتقدون أن الشخص الذى يتمتع بالشأن الكبير والصلاحية الكبرى ، وهى التعاقد مع رئيس الدولة ، هو أرفع شأنا من الوزير القائم بالأعمال . إن تمييزاً كهذا لا شأن له اليوم لأن تطور الحكومة لا يسمح للملوك بالتفرد بإدارة شؤون الدولة . فصلاحية هؤلاء الممثلين الدپلوماسيين قد أصبحت فى الواقع واحدة .

ويهزأ البارون سيلاسى Scilassy فى كتابه Manuel Pratique De Diplomatie Moderne من نظام السفارات ويسميه «مقبرة السفارات» . ويقول : «إن الاختلاف الموجود فى الدرجات اليوم بين السفراء والوزراء يرجع أمره إلى تقاليد تاريخية لا إلى تباين شأن هذه المراتب نفسها . فكم من وزراء دبلوماسيين كانت مهمتهم أدق شأنا وأكثر خطراً من مهمات السفراء فى دول أخرى» . ودعا إلى إطلاق لقب واحد على جميع الممثلين الدپلوماسيين حتى ممثلى البابا .

فى هذا كان علماء الشرع الدولى الأمميون يفكرون منذ زمن بعيد سبق تأسيس جمعية الأمم . وتلك كانت مبادئهم . وما دام الشرع الدولى ينزع نحو تفكير جديد فى الأمر فلا يعقل بعد الآن أن يثابر على مراعاة تقاليد لا فائدة منها ولا شأن لها .

اقتراحات جديدة

ذلك ما قاله علماء الشرع الدولى وما أخذوه على النظام القديم . ولقد رأيت أن أقوالهم كلها تدور حول دائرة واحدة لا تخرج عنها ؛ ورأيت أن فيها قوة وسداداً . فهم يريدون أن لا يكون اختلاف بين أنظمة الحكومات الدستورية ونظام السفراء وصفة التمثيل . ويريدون أن تنسجم الأمور فلا تتصعب وأن تكون سهلة لا تعقّد فيها .

وقد اقترحوا اقتراحات شتى ننقل إليك واحدا منها . فقد كتب غريرّو وكيل رئيس لجنة المحكمة الدولية الدائمة أنه يمكن ضم السفراء والليغا والنونس والوزراء ذوى الصلاحية المطلقة والوزراء المقيمين فى صنف واحد وأن يطلق عليهم اسم واحد أيضا . ويحتفظ لممثلى البابا بمراسمهم التقليدية اعترافا بفضل رئيسهم . ثم يؤلف القائمون بالأعمال طبقة ثانية ، لا لأنهم يختلفون عن سائر الممثلين الدبلوماسيين من حيث المصالح التى يمثلونها ، بل لأن كتب اعتمادهم تمنح من وزراء الشؤون الخارجية وتقدم للوزراء أنفسهم .

أما الاسم الذى يطلق على ممثلى الدرجتين فقد انتقى غريرو لهما اسم سفير ، وزير عام ، رسول ، عميل .

يقول ونصرف النظر عن لفظ عميل لأنه يومئ إلى أعمال أدنى مما يقوم به الممثلون الدبلوماسيون .

ونطلق اسم رسول على القائمين بالأعمال الذين لم يحسن اختيار لقبهم من قبل .

ولما كان لفظ وزير عام أو وزير ذى صلاحية مطلقة يحط فى الظاهر من شأن السفراء اليوم فمن المستحسن إبقاء لقب سفير لتسمية الممثلين الذين وردت أسماؤهم فى الدرجات الثلاث التى وضعها مؤتمر فينا .

وهكذا لا يبقى لدينا إلا السفراء والرسل .

هذا ما اقترحه غريرو . ومن الواضح أن اتجاهات الحرب الحاضرة ستسفر عن نظام جديد يقترب من الأممية ويدعو إلى وحدة العالم كله ... وينزع الفروق بين هؤلاء الممثلين .

الفصل الثانى

الباب الأول

صفات السفير

أجمع أهل الرأى فى الدپلوماسية أن الممثل السياسى ينبغى أن يتحلى بصفات عقلية . وأخرى جثمانية وأن تكون له هبة طبيعية تساعده على أداء بعض الواجبات والقيام ببعض المهمات .

وقرروا أن هناك صفات لا بدّ أن تتوفر فيه ، منها : الصدق والأمانة والشجاعة والنزاهة والعزم وقوة الإرادة وصحة الحكم وتوقد الذكاء واللين والعقيدة . . فإذا اقترنت هذه الصفات بهبات شخصية زاد شأنها وعظم صاحبها . وإذا أوتى إلى ذلك كله طلاقة اللسان وحلاوة البيان و براعة التكيف حسب البلدان كانت له المنزلة التى بها لا يستهان .

وينبغى أن يتقيد الممثل السياسى بمواعيده و يفى بعهوده . كما ينبغى أن يكون قد نال من العلوم والمعارف شطراً كبيراً و بالأخص مما كان له صلة بالشؤون الدپلوماسية . وقد ضمنت المسابقات التى تقام لانتقاء الدپلوماسيين فى مختلف بلاد العالم هـذا الأمر لأنهم يضطرون إلى عرفان كل شيء يتصل بسبب إلى مهنتهم . ثم يضيفون إلى ما عرفوه معارف جديدة فتنضج عقولهم وتتسع ثقافتهم .

وقد وجهت العناية إلى انتقاء الدپلوماسيين من الذين يحسنون لغات متعددات ، وقد كان للفرنسية والإنجليزية المقام الأول . وقد سما شأن اللغة العربية فى الأزمنة الأخيرة وقدّم من يتقنها على غيره .

ولا بدّ للدپلوماسى المحنك من أن يحتاط ليسلم من الزلل . وينبغى أن لا تؤول به حيطته إلى الإسراف فى الحماسة ، لأن كل حماسة فى غير موضعها فيها من الإساءة إليه أكثر مما فيها من الإحسان .

ومن الواجب أيضاً أن لا يكون له فى البلد الذى اعتمد فيه مصالح مالية تشغله عن مصالح أمته لأن امتلاك البنى يقضى بالاختلاط مع الناس ومحاورتهم ومعاملتهم . وقد يؤدى ذلك إلى خرق هيبته وتقاعسه عن الدفاع .

و إذا كان الرسول أو السفير كاتبا أو مؤرخا فألف أو أرخ وكتب ما قد يكون له الأثر الطيب فى حسن سمعة حكومته أو تبيان سموّ المصالح التى يدافع عنها فلا بدّ من أن يأذن له رؤساؤه بنشر ذلك قبل نشره .

إن الحيطة وكتمان الأسرار والاقتصاد فى الكلام خلال يستحسن وجودها فى كل دپلوماسى قدير . وقد يصل الرسول أو السفير إلى ما يشاء بصدقه وأمانته إذا أمسك لسانه عن الكلام فلم يتفوه إلا بما هو صحيح ، ولم يعد إلا ما هو واثق من الحصول عليه . وهذه الخلة إذا وجدت ورافقها كتمان الأسرار ساعدته على إدراك النُجح فى أعماله .

و إذا كان الكذب من ضرورات الدپلوماسى أحياناً فليس معنى ذلك أن يكون أبداً كاذبا . و إن تاريخ الدپلوماسية حافل بالفضائح الشهيرة الملأى بالكذب ، ولم ينفع الكذب أصحاب تلك الفضائح إلا قليلا .

ويجب أن يكون ما يسمعه الدپلوماسى أضعاف ما يتكلم به . وبذلك يجتنب إفشاء أمور كان يجدر به أن يحتفظ بها ويدع محدثيه يتكلمون عليها . وبذلك يضم إلى ما عرفه عنها أشاوى أخرى . ولا بأس أن يتلوّن أحيانا مع احتفاظه بشخصيته الأصيلة تبعاً لشخصية مخاطبه ، فيوافقه على آرائه و يوهمه أنه على مذهبه و يتكلم على قدر عقله . وعندئذ يقف بسهولة على مآرب محدثه ويعرف ما يرمى إليه وما يخفيه فى نفسه . وذلك بفضل هذه الحيلة التى تحمل على الظن بوجود مشاركة فى الرأى والهدف .

و يظهر فضل هذه الرياضة العقلية إذا مارسها الدپلوماسى إبّان المفاوضات ، وتساعده على التحرر من التعليمات الضيقة التى أعطيت له ، و يسهل عليه أن يفهم عن خصمه و يعلم الأهداف التى يستهدفها و يختار بعد ذلك الطريق المعبّد ليتفاهما معا ، فيرضى عنه الخصم و يصل هو إلى ما طلب منه .

وواضح أن الدپلوماسى يجب أن يجتنب كل ما يجرّ عليه الطعن لأن نقاء سلوكه وهيبة وقاره لهما أثرهما فى ممارسة الأعمال التى يحمد عليها ولا يذم .

وواضح أيضاً أن معظم هذه الصفات لا تظهر إلا مع الزمان . غير أنه لا بدّ من مؤهلات طبيعية لذلك . ورؤساء الدپلوماسى يراقبون سيرته سرا بطرق شتى . فإما أن يرقى و إما أن يسفل . ولذلك يجب أن يكون مراقباً نفسه دائما حذراً من كل شىء .

والمال والنسب لهما أثرهما فى كمال الدپلوماسى . إلا أن هذين العاملين لا يكفيان وحدهما لجعله كاملا ، ولا بد من الكفاءة والثقافة والقدرة على العمل . ولكن إذا تساوى مرشحان لمرتبة دپلوماسية فى الثقافة والكفاءة فيفضل المرشح ذو الغنى على المرشح الفقير .

وشرف النسب وكرم المحتد لا يقل شأناً عن وفرة الغنى . وللدپلوماسيين ذوى النسب الشريف أثر أحياناً فى بلوغ ما يريدون . وهذا لا يعنى أن دپلوماسيا بارعا قلّب الدهر أشطره وتغلب على صروف الأيام وذاق الحلو والمرّ و بلى الخداع كله لا يستحق أن يتقدم صاحب النسب العريق أو المنظرانى الجميل السافل فى نفسه الدنىء فى طباعه وأعماله .

أما السن فلا حدود لها . فالحكومة تنتقى من تشاء . فقد ترسل دپلوماسيا فى الثلاثين من عمره إلى أعظم حكومة وتبعث بآخر فى الستين من عمره إلى أصغر دولة . وهى إذ تنتقى تضمن مصلحة الأمة ، وتراعى إمكان نجاح هذا الممثل الدپلوماسى فيما ذهب فيه .

ولا يتقيد ببلوغ الستين من العمر لإخراج الدپلوماسى ، فقد يؤدى المسنّ ما لا يؤديه الشاب من الأعمال بفضل ما أوتيه من نضج وما شداه من علم .

و يمكن استخدام الممثل الدپلوماسى فى فرنسة حتى بلوغه الخامسة والستين من عمره ، فى حين أن السن المحددة هى الستون . (المرسوم الصادر فى ٣١ آب ١٩٣٩) .

وهناك قضية الجنس . أيقتصر فى اختيار رجال الدپلوماسية على الرجال دون النساء ؟ إن هذا لم يراع قط . فقد وجدت نساء دپلوماسيات أوتين البراعة والمهارة ، وقمن بأعمال رائعات ، إلا أنه يجب أن نعترف أن براعة هؤلاء شذوذ لا يصادف دائما ، ومن المنطق لأسباب كثيرة أن يكون الأمر كذلك . ومن الدول التى انتقت النساء للأعمال الدپلوماسية النروج ، و بلغاريا ، والأرغواى ، وروسيا السوفيتية ، وأسبانيا . وقد برعت

مدام كوتنتاى Mme. Kottontai الروسية فى أعمالها الدپلوماسية براعة كبرى شهدت لها بها حكومتها .

وقد حاول نساء فرنسة أن يكون منهن ممثلات دپلوماسيات . لـكنهن لم يبلغن ما أمّلن . (انظر المرسوم الصادر فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٩) ولما فازت إحدى الطالبات فوزاً كبيراً فى إحدى المسابقات التى أجريت لانتقاء ممثلين دپلوماسيين لم ترسل إلى دولة ما ، بل عهد إليها بعمل فى دواوين وزارة الشؤون الخارجية نفسها .

الفصل الثالث

الباب الأول

القبـــول والرفض

القبول Agréatation هو إحدى الطرق الأساسية فى تعيين الممثل الدبلوماسى لتكليفه القيام بمهمة ما لدى دولة ما . ويجرى القبول عادة فى الزمن الواقع بين تسمية الممثل السياسى لمنصب ما واليوم الذى يستطيع فيه أن يقوم بعمله لدى الدولة التى اعتمد لديها . وإذا كانت الدولة التى ترسل الممثلين حرّة فى انتقائهم ، فإن الدولة التى يعتمد الممثل لديها لها الحق أيضاً فى رفض كل ممثل دبلوماسى لا ترضى عنه أو تجد فى وجوده لديها إزعاجا لها . فحرية القبول تشترط حرية الاختيار .

فإذا أرادت إحدى الحكومات أن توفد ممثلا دبلوماسيا ذا رتبة معروفة إلى دولة ثانية فلا بد لها قبل إيفاده من إخبارها عنه لإبداء رأيها فيه . فإما أن تقبل الاقتراح ويكون المرشح مرغوباً فيه Persona Grata ، وإما أن ترفضه ويكون غير مرغوب فيه Persona non Grata وهذا ما نسميه بالقبول .

ويشير المؤلفون فى الدبلوماسية وشؤونها إلى أن هذه الطريقة ليست سوى اتفاق بسيط بين الحكومتين وهو اتفاق لا ينشئ حقا تطالب به (الدولة التى اعتمد الممثل لديها) كما أنها لا تنشئ اضطراراً (للدولة المعتمدة) لإجراء الأمور المذكورة . لأن إباء الحكومات وتفردها فى القيام بأمورها لا يسمحان بأن يُملى عليها ولو من طرف خفى رغبة أو إرادة . والمنطق السليم يقضى بأن يعترف لكل حكومة بحق إدارة شؤونها الدبلوماسية ، وهذا أمر لا جدال فيه . ولكن نجد من جهة ثانية أن فى اعترافنا لكل حكومة بحق قبول ممثلى الدولة الثانية أو رفضهم خطراً ظاهراً . ذلك لأن رفض الحكومة أن تقبل الممثل المرسل إليها من حكومة أخرى رفضا صريحا علناً يسىء إلى الدولة التى أرسلت الممثل ولو كان لتلك الحق فى ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن إعلام الدولة باسم الذى سيرسل إليها قبل إرساله من التقاليد الحسنة التى يتجنب بها مفاجآت قد ينتج عنها ما لا يحمد عقباه .

إن إبلاغ قرار تعيين ممثل بدلاً من ممثل يجرى بسهولة زائدة . وقد يكون الممثل المنقول قد علم بمن سيخلفه قبل مغادرته البلاد التى هو فيها . وقد يتراسل رئيسا الدولتين بذلك ، وهو مما يندر حدوثه فى أيامنا . وفى هذه الأحوال كلها لا يشعر الممثل المنقول بأى غضاضة ، لأن الحكومات كالأفراد كثيرة التحوّل ، فلربما رغبت فى ممثل ورغبت عن آخر . ولأن أسباب الرفض لا تستهدف فى أكثر الأحيان الممثل المخلوع نفسه .

وهنا تنشأ قضية ذات شأن ، أتُرْغَمُ الدولة التى رفضت قبول ممثل ما على تبرير رفضها . لقد كانت هذه القضية مثار جدل طويل من الوجهة النظرية والوجهة العملية . ويبدو بادىء بدء أن هذا السؤال ليس يجدى نفعاً ما دمنا نعترف لكل دولة بحقها فى إدارة أمورها الدبلوماسية كما تشاء ، وفى اختيار الممثلين الذين يوافقون هواها ، ورفض الذين يخالفون أهدافها . فينتج عن هذا أنه ليس من الواجب تبرير الرفض . وقد كانت إنجلترة تطالب الحكومات التى ترفض قبول مرشحى جلالة الملك عن أسباب رفضها . وقد كانت هذه النظرية الإنجليزية التى لم تتبعها سائر الدول كافية لطرح هذا السؤال على بساط البحث . وقد ثار الجدل ودرست المجامع العلمية للشرع الدولى هذا الأمر ، وجهدت فى إيجاد حل له . وكانت النتيجة التى وصلت إليها أن ليس على الدولة التى اعتمد الممثل لديها أن تبرر رفضها إياه . وحينما انعقد المؤتمر الخاص بالدول الأميركية عام ١٩٢٨ فى لاهافان أدخلت على المادة الثامنة من الاتفاق الخاص بالممثلين الدبلوماسيين فقرة تقضى بأن لا يسمح لأية دولة بإرسال ممثلين دبلوماسيين يمثلونها لدى دولة أخرى إلا بعد موافقتها ، وبأن للدول الحق برفض استقبال أى ممثل من غير أن تبرّر رفضها . ويضيف النص إلى ذلك بأن يعترف أيضاً بالحق نفسه للدول نفسها فيما يتعلق باسترداد ممثل قد باشر عمله .

وقد قبل المعهد الأميركى للشرع الدولى فى المادة العاشرة من مشروعه المتعلق بالممثلين الدبلوماسيين المبدأ المذكور ، وقال لا ينبغى تبرير الدولة رفضها قط .

وللرفض ضربان : رفض عام مطلق ، ورفض خاص .

أما الرفض العام Refus Général ou Absolu فيحدث عندما تصرّ إحدى الدولتين علانية على الامتناع عن استقبال أى وزير كان من الدولة الثانية خلال حقبة من الزمن ، أو أن تخشى الدولة التى اعتمد لديها الممثل حدوث قلاقل فى بلادها من جراء وجود الممثل لديها ، وخاصة إذا كان طراز الحكم فى بلاده يخالف طراز الحكم فى البلاد التى أرسل إليها . وقد اتخذت كثير من الدول هذه الوسيلة لرفض استقبال ممثلى البابا أو ممثلى روسيا السوفيتية .

أما الرفض الخاص Refus Spécial فيكون مستهدفا الممثل الدبلوماسى نفسه . وهذه أكثر الحالات وقوعا . وفى هذه الحالة تسرع الحكومة التى أرسلته سواء أكان ذلك قبل إرساله أو بعد إرساله ثم رفضه ، إلى تسمية ممثل آخر توافق الدول الثانية عليه . وقد ينتج عن هذا الرفض فى بعض الأحايين أن تغضب الدولة المعتمدة فتقطع علاقاتها الدبلوماسية خلال حقبة معينة . ولكن ذلك لا يقع إلا قليلا .

الباب الثانى

أوراق الاعتماد — جواز السفر

أما أوراق الاعتماد lettre de Créance فتتضمن الإخبار بإرسال الممثل السياسى ليقوم بأعماله لدى الحكومة الموفد إليها ، ويكون فى هذه الأوراق اسم الممثل السياسى ونوع مهمته بوجه عام ورجاء قبوله واعتماده ، وقد تذكر المدة التى سيبقى فيها والتفويض الذى يخوله العمل باسم دولته . وتصدّر هذه الأوراق عادة بما يلى :

« من الملك فلان . . . . إلى الرئيس فلان . . . »

ويقدّمه الموفد الدبلوماسى إلى رئيس الدولة نفسه ساعة استقباله .

أما أوراق القائم بالأعمال فتصدر عن وزير الشؤون الخارجية فى حكومته وتسلم إلى وزير الشؤون الخارجية فى البلد الموفد إليه .

وإذا كان الممثل سيقوم بمهمة معينة فيحمل أوراق تفويض يوقعها الملك أو رئيس الدولة ووزير الشؤون الخارجية معاً . وتسمى أوراق التفويض التام Plein Pouvoir

وتكتب هذه الأوراق عادة بلغة الدولة الموفدة وتشفع بترجمة لها بلغة الدولة الموفد إليها .

وإلى جانب أوراق الاعتماد أو أوراق التفويض يكون مع الممثل السياسى جواز سفره الذى يودعه وزارة الشؤون الخارجية فى الدولة المرسل إليها فيبقى فيها حتى حين يتخلّى عن عمله أو ردّه أو استرداده .

الباب الثالث

مراسم الاستقبال cérémonial

فإذا ما قبلت الدولة الممثل المرسل إليها غادر بلاده . فإذا بلغها أعلم وزير الشؤون الخارجية فيها بوصوله وطلب أن يضرب له موعداً يقابل فيه الملك أو رئيس الدولة ويقدم إليه فيه أوراق اعتماده .

وقد جرت العادة أن يرسل إلى وزير الشؤون الخارجية نسخة عن الخطاب الذى يريد إلقاءه أمام رئيس الدولة أثناء المقابلة الرسمية . ويكون هذا الخطاب مكتوبا بلغة الممثل الدبلوماسى إلا إذا كانت العادة فى تلك الدولة على غير ذلك .

والغاية من إرسال نسخة عن خطابه هو إعلام رئيس الدولة به وإعداد ما يمكن قوله ردا عليه .

وفى اليوم المحدد لمقابلة الرئيس يذهب الممثل فى موكب رسمى إلى قصر الملك أو الرئيس ويكون معه وزير الشؤون الخارجية فى أغلب الأحايين إذا كان سفيرا من الدرجة الأولى . وفى القصر يستقبل بحفاوة من قبل موظفى القصر نفسه . فيمثل بين يدى رئيس الدولة ثم يلقى خطابه ويقدم أوراق اعتماده . فيجيب رئيس الدولة عن خطاب الممثل بخطاب قصير يستوحيه من أفكار الممثل نفسها .

وتتضمن هذه الخطب الترحيب وإظهار الرغبة فى تعاون الدولتين معا والتضامن أو الاتحاد فى سبيل السلام أو فى سبيل هدف مشترك تسعى الدولتان إليه .

وتكون حفلات استقبال الممثلين مقرونة بالتهويل والتعظيم . وقد يبالغ بالاحتفاء مبالغة قصوى وخاصة للسفراء . أما الوزراء من الدرجتين الثانية والثالثة فيكون الاحتفاء بهم أقل .

على أن هذا الأمر لا يتبع قاعدة معينة ، ولا شك أن شأن دولة الممثل السياسى وعظمتها وخطورة أمرها ثم شأن الممثل نفسه ورغبة الدولة فيه — كل أولئك يؤثر فى أسلوب الاستقبال وشكله .

أما الوكلاء السياسيون والقائمون بالأعمال فهؤلاء يرسلون إلى وزراء الشؤون الخارجية وإليهم يقدّمون أوراق اعتمادهم .

الباب الرابع

واجبات الممثل الدبلوماسى

فإذا ما استقرّ الممثل فى البلد الذى أوفد إليه فينبغى أن يستهدف فى أعماله كلها تمتين صلات الود والصداقة بين بلاده والدولة التى اعتمد لديها ؛ فهو فى سبيل ذلك يجب أن يغتنم الفرص السانحة لتوثيق عرى الوداد بأى وسيلة كانت ويزيد فى تعاون البلدين من أجل رفاهيتهما . وينبغى أن يفاوض الدولة التى أرسل إليها ليثبت حقوق دولته ويدافع عن مصالح بلاده ويتلافى ما قد ينجم من المشكلات التى توقع بين الدولتين العداوة والتنافر .

ثم عليه بعد أن يدافع عن مصالح بلاده أن يدافع عن مصالح رعايا دولته فى البلد الذى وجد فيه وتسهيل أمورهم . وقد ثبت أن التمثيل السياسى ذو أثر كبير فى حل الصعوبات التى تعترض سبل الرعايا . والممثل فى أحوال كهذه يراسل وزير الشؤون الخارجية ، وهو يتولى مراسلة أولى الأمر فيما طلب الممثل السياسى . وجدير بالذكر أن الممثل الدبلوماسى لا يحق له أن يخاطب غير وزير الشؤون الخارجية .

وإلى جانب ما ذكرنا لا بد له من تتبع أحوال سياسة البلاد وحركات ساستها وخاصة الأعمال التى تؤثر فى سياسة بلاده أو فى سياسة البلاد الخارجية . وهو يراقب الحياة العسكرية والبحرية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد . فيحصى جنودها ومقدار صادراتها ووارداتها وما تحتاج إليه أو يعوزها وما يكسد من منتوجاتها لديها ، ويسجل ما يجرى فى نواديها السياسية وبرلمانها ، ويستقرئ أقوال صحفيّيها وميول حكومتها . ويستخلص من ذلك كله الهدف الذى تسعى الدولة إليه وما فيه من محاسن وما قد ينتج عنه من مساوئ

ثم يرسل تقريراً بما يراه إلى وزير الشؤون الخارجية فى دولته، وعلى ضوء هذه الاستعلامات تستطيع هذه الدولة تعيين وجهة سياستها نحوها.

وبديهى أن الممثل يجب أن يعلم ما ذكرنا بطرق دبلوماسية لا يبصرها أحد ويساعده على جمعها الملحقون بالسفارة العسكريون والتجاريون وأمناء سرها ومستشاروها. ويمكن أن يقوم بهذه المهمة فى حال غياب السفير المستشار أو أمين السر.

وأمر خطير لا بد للممثل منه هو حياده وابتعاده عن التدخل فى شؤون الدولة التى هو فيها؛ فهو يسمع ويبصر ولكنه إذا سأله أحد غير دولته أظهر التصامم والعمى. فهو لا ينتقد الأعمال السياسية ولا يثير حزبا على حزب أو يناصر فئة على فئة ويظهر اللباقة فى أعماله ليستطيع أن يقوم بمهماته بيسر وسهولة.

الباب الخامس

استرداد السفير أو ردّه

يمكن أن تنتهى مهمة الممثل الدبلوماسى المعتمد لدى دولة ما على طرق مختلفات نذكر منها أربعة وجوه:

ا — وفاة الممثل الدبلوماسى فجأة.

ب — انتهاء أجل أوراق اعتماد الوزير.

ح — استرداده من قبل حكومته.

ء — ردّه إلى دولته باختياره أو مضطراً.

وإذا استثنينا الطرق الأولى والثانية والرابعة وهى قلّ أن تحدث فإننا نجد أن الاسترداد هو الطريق الوحيد لإنهاء مهمة الممثل الدبلوماسى.

إن استرداد الممثل الدبلوماسى ودعوته إلى بلاده rappel من قبل حكومته يعد عملا إراديا حتى فى الحالة التى يكون فيها الممثل غير مرغوب فيه لدى الحكومة التى أرسل إليها. فى حين أن الرد renvoi والطرد تدبيران اضطراريان يعتبران عملين مخالفين لإرادة الدولة الموفدة ورضائها.

والاسترداد يحدث فى طريقتين مختلفتين : فإما أن تكون مهمة الممثل كادت تبلغ أجلها، أو أن تكون حكومته راغبة فى نقله إلى وظيفة ثانية أو ترقيته إلى رتبة أعلى من رتبته التى يعمل بها . وقد يكون الاسترداد بناء على طلب الممثل نفسه ليعمل فى الإدارة المركزية . وهناك تقدير آخر هو أن يكون الممثل لم يطق مناخ البلد الموجود فيه أو أعجزته وفرة الأعمال فالتمس من حكومته نقله إلى عمل أو بلد آخرين . وفى جميع هـذه الأحوال لا يكون الاسترداد نتيجة لاختلاف الممثل الدبلوماسي المسترد والدولة التى كان لديها .

وقد جرت العادة أن يقدم الممثل الدبلوماسي لرئيس الدولة أو وزير الشؤون الخارجية قبيل مغادرته البلد الذى كان فيه أوراق الاسترداد Lettre de rappel التي أرسلت إليه من حكومته .

وقد تعطيه الحكومة التى كان لديها ، مجاملةً ولياقةً ، أوراقاً تسمى أوراق تجديد الثقة Lettre de récrèance تشيد فيها بخدماته التى أدّاها . والتاريخ الدبلوماسى فقير فى هذه الأوراق ، وأكثر ما نصادف مقالات خاصة تنشر فى الصحف الوطنية الكبرى بإشارة من أولي الأمر .

ولا بد من أن نذكر أن هذا الاسترداد قد يحدث لرغبة الدولة التى اعتمد لديها فى ذلك . وأكثر ما يكون فى حالة إخفاق الممثل فى نوال حظوة لدى رجال الحكومة . أو فى حال نشوب خلافات دبلوماسية أو سياسية بين الدولتين يكون سببها خطأ وقع الممثل فيه ، أو سوء نية قصدها . فتبادر الدولة عندئذ بإعلان استيائها وتطلب استرداد الممثل .

ويقوم بهذا الطلب عادة ممثل الحكومة المستاءة لدى الحكومة الموفِدة . ويكون ذلك بلطف ولباقة كيلا يثير سخط الدولة التى أوفدت ذاك الممثل ، أو لئلا يسيء إلى الوزير المرفوض . ويقتصر الأمر على إعلام الدولة أن ممثلها الدبلوماسى لا ترضى عنه الحكومة التى اعتُمِد لديها . وقد استُرِدّ بهذا الأسلوب سنة ١٩١٢ ممثل دبلوماسى كان إذ ذاك سفير فرنسة فى روسية . وقد أجابت فرنسة طلب روسية واستردت سفيرها لأنه لا يبدى نشاطا فى مهماته السياسية . . .

والواقع أن هناك وضعين فى مثل هذه الحالة . فإما أن تحقق الحكومة الموفدة رجاء

الدولة الثانية وعندئذ تسترد ممثلها . ولا يقدّم أغلب الأحيان الممثل المسترد أوراق استرداده ، إنما يجرى ذلك بواسطة الخلف الجديد فى حفلة القبول نفسها[1] .

و إما أن تتصام الحكومة الموفدة فتعرض عن الطلب أو تحتج ، وعندئذ تضيق الحكومة ذات الشكوى ذرعا وتلجأ إلى طرد الممثل السياسى ولا تحفل بما يتبع ذلك من خطر على السلام الدولى .

على أن الدبلوماسية وطرقها قد أصبحت أبرع من أن يلجأ إلى الطريقة الثانية إلا فى حالات شاذة نادرة .

---

(١) وهذا ماحدث فى استرداد الممثلين Edmond Genest (١٧٩٣)، F. S. Jackson (١٨٠٩) و Jewett (١٨٤٦) و Catacazy (١٨٧١) و Mme. Kollontai (١٩٢٥) .

الفصل الرابع

الباب الأول

حصانة الممثلين السياسيين

لعلّ الحصانة أعظم النِّعم والمزايا التى لا تنفصل عن عمل الممثل الدبلوماسى فهى ضرورية لا بدّ له منها . وقد أبان العالم الكبير فاتّل Vattel ذلك فقال : « لما كان للسفارات شأن كبير فى المجتمع العالمى للدول ، وكان لا بدّ منها للسلام أو الأمان الذى يبغيه ، فإن الممثلين الدبلوماسيين المكلفين السفارة يجب أن يكونوا محصنين مقدسين عند الشعوب جميعاً » . على أن التعليل الحقوقى القريب من المنطق هو أن هؤلاء الممثلين لما كانوا يتكلمون باسم الملك الذى أرسلهم . فلا مندوحة من أن يكونوا أحراراً فيما يتكلمون ، مع العلم بأن الرسول الموفد من قبل أمة أو وزير أو رئيس أو ملك يحتاج ، للقيام بما عهد إليه وحفظاً على نقاوة شرف موفده ، إلى الطمأنينة والحرية ، وأن يكون بمعزل عن الخطر .

ولقد جرت الأمم الخاليات على حفظ الممثلين الدبلوماسيين تشريفاً لمن أوفدهم ، ولم تكن فكرة المحافظة عليهم تستند إلى أساس حقوقى . وقد كان العثمانيون رعاية لسفراء الغرب ينزلونهم فى قصر الأبراج السبعة فى القسطنطينية ويرعونهم . وقد كان بعض العلماء يرى أن هذه الحماية أو الرعاية التى يتمتعون بها تسقط بموت الأمير أو الرئيس الذى يمثلونه . ولما نشبت الحرب بين فينيسيا والقسطنطينية ، أُرسل سفير فينيسيا مع أمين سره وترجمانه ومعاونيه إلى بلاده فى الثالث عشر من مارس سنة ١٧١٥ .

وقد أصبحت الدول تُعنى العناية كلها باحترام الرسول ورعايته ومنحه الأمان الذى تقتضيه مهمته . وسنّت قوانين ضمنتها عقوبات تختلف بين الشدة واللين لمن يصيب هؤلاء الرسل بسوء .

ففى فرنسة قبلت حماية السفراء رغم فقدان نص يقضى بذلك .

ونص "قانون الجزاء الألمانى الصادر فى مايس ١٨٧١ (المادة ١٠٥) على معاقبة من يعتدى على السفراء ويهتك حصانتهم .

وعلى مثل ذلك نصت المادة ٤٩٤ من قانون الجزاء النمسوى والمادتان السادسة والسابعة من قانون ١٢ مارس ١٨٥٨ البلجيكى وقانون ٢١ نيسان ١٧٠٩ البريطانى المعروف باسم Statute of 7 anne والمادة ١٣٠ من قانون الجزاء الإيطالى القديم والمادتان ١١٨ و ١١٩ من قانون الجزاء النرلندى والمادة ١٥٩ من قانون سنة ١٨٥٢ البرتغالى والمادة ٢٦١ من قانون ١٨٦٦ الروسى قديماً وبالمرسوم الصادر فى ٣٠ حزيران ١٩٢١ حديثاً وقانون عام ١٨٦٤ السويدى والمادة ٤٣ (الفصل الثانى) من قانون الجزاء الصادر فى ٤ شباط ١٨٥٣ السويسرى . فهذه المواد والقوانين توجب عقوبة من يعتدى على الممثلين عقوبة تختلف بين السجن البسيط والسجن والتعذيب والجزاء النقدى .

***

فإذا علمنا مبلغ عناية الدول بحصانة الممثل السياسى نتساءل : إلى أى مدى تمتد ؟ لقد قرر القُدامى أن حصانة السفير تنتقل منه إلى حاشيته فهم جميعاً متصلون به ينالهم ما يناله . ولا بد من رعايتهم . فإذا أهينوا فكأنما أهين السفير نفسه . وهى تنتقل أيضاً إلى زوجه لأنها ذات اتصال وثيق به ، فهى تشاركه فى حصانته ، ويقدم إليها إلى ذلك الاحترام الزائد والمجاملات اللطيفة شريطة أن لا يمس السفير . ولم يبدل العرف الدولى الحديث فى هذه القواعد شيئاً . وقد أصبحت الحصانة فى أيامنا لا تشمل السفراء والنونس والليغا والوزراء المقيمين والقائمين بالأعمال والملحقين بالسفارة أوالمفوضية العسكريين والبحريين والتجاريين والطيارين والتراجمة والأطباء الخاصين . . وحدهم ، بل تشمل الخدم والأتباع وتشمل أسرهم وخاصة الأزواج والأولاد .

وقد ذهب العرف الدولى فى الحصانة إلى أبعد من هذا . فقد بلغ السفير من الحصانة أن أصبح محرما على الصحف أن تمسه بقول سوء . أوتفند أعماله أو تطعن عليه وعلى أتباعه. فإذا ما وقعت أشاو كهذه تدخلت الحكومة التى اعتمد لديها ومنعت ذلك . فقد يخشى أن يؤدى ذلك النقد أو الطعن إلى نفور يثار بين الدولتين فتضعف الصلات بينهما أو يحدث ما يسوء ذكره ولا تحمد عاقبته .

وهكذا ترى أن الممثلين الدبلوماسيين أَمْنَعُ ، هم وأزواجهم وأعوانهم وأتباعهم وخدمهم ومساكنهم ، من أن يعتدى عليهم . وأنهم مصونون لا يطعن عليهم . وقد فرض قانون ١٧ مارس ١٨١٩ الفرنسى عقوبة على من يوجه إلى الممثلين الدبلوماسيين كلمات مهينة تبدأ بـ ٥٠ فرنكا وتنتهى بـ ٣٠٠٠ فرنك ثم عدلت هذه العقوبة بقانون ٢٩ تموز ١٨٨١ و ١٦ مارس ١٨٩٣ .

وتظل هذه الحصانة مرافقة الممثل حتى عودته إلى بلاده ، وتبقى فى عودته حتى يصل إلى سيده . فطمأنينة الدبلوماسى ليس بأقل حاجة إليها فى ذهابه منه فى عودته .

وتبقى الحصانة ملازمة السفير رغم انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الموفدة والدولة التى أوفد إليها . ولو نشبت الحرب بين دولتين فإن سفراءهما يبقون محصنين . وقد قرر معهد الحقوق الدولية سنة ١٨٩٥ أن الحصانة تبقى حتى فى حالة الحرب بين الدولتين ، طوال المدة الضرورية كى يترك السفير البلاد هو وحاشيته وأوراقه .

على أن معهد الحقوق الدولية قرر سنة ١٨٩٥ أن هذه الحصانة تسقط فى الحالات التالية :

١ — فى حالة دفاع قانونى مشروع يقوم به الأتباع والخواص ضد أعمال صدرت من أشخاص آخرين يتمتعون بالحصانة أيضاً .

٢ — فى حالة تهديد هؤلاء الأشخاص آخرين بخطر بإرادتهم أو بلا مبرر .

٣ — فى حالة صدور أعمال شائنة منهم سببت تحفظ الدولة التى اعتمدوا لديها باتخاذ تدابير دفاعية واحتياطات حازمة . وفى مثل هذه الأحوال تعلم الدولة حكومة السفير وتطلب إنزال العقوبة بهم ، وتستطيع حفظاً على دار السفارة ومن فيها وما فيها أن تحيط الجند بها كى تمنع الناس من الوصول إليها .

الباب الثانى

الميزات الدبلوماسية

أوتى الممثلون الدبلوماسيون ميزات كثيرة ذات شأن تمتعوا بها . وقد أثّرت حصانة

الممثلين فى منحهم هذه الميزات لأن من الصعب العسير مسّهم بسوء أو ضرهم بأذى . أضف إلى ذلك أن وقوع ذلك قد يسبب التنافر بين الدولتين ويورث التناحر والتقاتل .

فمن هذه الميزات التى أقر الشرع الدولى منحها للممثلين الدبلوماسيين ما يلى :

١ — لا يدفع الممثلون ضريبة عن دار السفارة . وقد نصّ على ذلك قوانين دولية كثيرة فى سويسرا وفنلندة ونروج وإيطالية . أما فى انجلترة فإن القانون لا يستثنى دار السفارة من دفع رسم الملكية (property—taxe) خاصّة . ولكن ذلك يجرى باتفاقات بينها وبين الدولة . . ومن هنا نجد أن الكثرة من الدول ميّالة إلى التحرر من دفع الضريبة المالية . وقد دعا ذلك مؤتمر اتحاد الدول الأميركية إلى وضع مادة خاصة تتعلق بذلك فى مؤتمر لاهافان سنة ١٩٢٨ فقد نصت المادة الثامنة عشرة على أن السفارة ينبغى أن تستثنى من دفع الضريبة إذا كانت ملكا للدولة التى أوفدت الممثل السياسى . أما الممثل السياسى نفسه فلا يستثنى من دفع الضرائب على المبانى الخاصة التى يملكها فى الدولة التى اعتمد لديها .

٢ — لا يدفع الممثلون أيضاً أية ضريبة شخصية بل أى ضريبة مباشرة لأن هذه الضرائب تقيم فى الحقيقة رباطاً يجعل الدافع تبعاً للآخذ . وهذا لا يمكن أن يكون عند الممثلين السياسيين . ومعنى ذلك من الوجهة الحقوقية إذا تم دفع الضريبة تنازع فى السيادة والتبعيّة على الممثل بين الدولة التى أوفدته والدولة التى استقبلته . وقد قرّر مؤتمر لاهافان سنة ١٩٢٨ أن لا يدفع الممثلون السياسيون أية ضريبة شخصية مباشرة . حتى رسوم النفقات الكمالية أيضاً .

٣ — وضريبة الدخل التى تعد من الضرائب المباشرة تدخل فى حكم الفقرة السابقة فلا يدفعها الممثل . وقد أقرّت ذلك القوانين الفرنسية (١٥ تموز سنة ٩١٤ — ٣٠ ديسمبر ٩١٦ — مرسوم ١٥ أكتوبر ١٩٢٦) . وفى انجلترة لا يدفع الممثلون هذه الضريبة (income-taxe) . ونص على ذلك فى إيطالية قانون ١٤ تموز ١٨٦٤ . وفى هولندة الرسالة المؤرخة فى ١٤ أكتوبر ١٩٢٢ المتعلقة بموظفى محكمة العدل الدولية الدائمة ذات الجنسية النرلندية

٤ — وكذلك يُعْفَى الممثلون السياسيون من المكوس . وهناك عرف قديم يقضى أن

تمر حاجات الممثلين فى مراكز المكوس (الجمارك) ومن هنا شمل الامتياز حاجات الممثل الصادرة عنه والواردة إليه . وقد علّل بعض المؤلفين فى الشرع الدولى أن هذه الميزة مشتقة عن حصانة دار السفارة . والتعليل الأقرب للصواب أن الدافع إلى ذلك هو احترام الممثل نفسه واحترام رئيس الدولة الذى يحميه . وليست هذه الميزة إلاّ مجاملة أصبحت من التقاليد .

وقد نصَّ على ذلك فى فرنسة نصوص مختلفة (منها القانون ذو الرقم ٦ المؤرخ فى ٢٢ آب ١٧٩١ والقانون المؤرخ فى ٢٨ ديسمبر ١٩٢٦) . فالممثل الدبلوماسى لا يدفع أى مكس ما ولا تفتش حقائبه عند دخوله البلاد أو خروجه منها ، ويظل يتمتع بذلك طوال ستة أشهر من دخوله ولا يتعرض لمستورداته الخاصة أبداً . فإذا انقضت المدة خضع إدخال الحوائج لرخصة تمنح بسهولة .

أما فى انجلترة فإن عدم الخضوع لدفع المكس والتفتيش (customs duties) نتج عن نظام كانون الثانى ١٩٠٤ والمبدأ فيه حرية الإدخال مع قليل من التحفظ بشأن الخمور والتبغ واللفافات الغلاظ (سيكار) . وتخضع حاجات الممثل لتفتيش قصير ظاهرى . ولا تنطبق حرية الإدخال على أمناء سر المفوضيات والسفارات أو الملحقين بها ، فإذا اقتضت الضرورة ذلك اتخذت التدابير لتسهيل الإدخال .

وقد أطلقت حرية الإدخال طوال ستة أشهر من وصول الممثل فى أسبانيا . واشترطت بلجيكا للإعفاء من المكوس وحرية الإدخال المقابلة . وقد استثنى القانون البلجيكى من ذلك القائمين بالأعمال . ولكن الإدارة البلجيكية لا تميز أحدا من أحد من الممثلين فى ذلك .

وكذلك أطلقت الحرية فى اليابان ونروج والبرتغال وروسية القديمة . وضمنت القوانين السويسرية الحرية لإدخال جميع الحاجات الشخصية للممثل والرؤساء . أما أفراد البعثات فيخضعون لبعض التحفظات .

وقد أقرّ نظام كامبردج لمعهد الشرع الدولى إعفاء الممثل من المكوس وأيده فى ذلك مؤتمر الدول الأميركية فى لاهافان .

٥ — أما الضرائب غير المباشرة فينبغى دفعها لأنها تصيب الممثل وغيره دون قصد .

على أن بعض الدول تعفى الممثلين من دفعها لياقة . وهذا ما طبق فى إنجلترة على Parochial rates . واتبعت الولايات المتحدة سياسة المقابلة فى رسوم البلدية .

وقد اتخذت تسهيلات فى بعض الدول تتعلق برسوم التسجيل (التصديق ، الشراء ، البيع ونقل الملكية . . .) .

٦ — وميزة أخرى لها شأنها هى حق العبادة الخاصة المسماة حق الكنيسة . ومعنى ذلك أن الممثل حر فى القيام بعبادته الخاصة لا يعترض له أحد . وقد كان لهذا شأن كبير فى القرون الخالية . ويحق لرئيس البعث الدبلوماسى مهما كان شأنه ودرجته أن يبنى معبداً يقيم فيه هو وحاشيته شعائر دينه . وأن يعين فيه رجالا دينيين يقومون بالعبادات وأن يسمح لأتباع دولته أن يقيموا شعائرهم فيه .

٧ — وإلى جانب هاتين الميزتين الأساسيتين وهما الإعفاء من الضرائب والمكوس وحق العبادة هناك ميزات أخرى . كالصيد بلا إجازة والتقدم على السيارات الذاهبة إلى حفلة عامة . ولهم الحق أيضاً أن يلبسوا لباساً خاصا بهم إذا شاءوا ، يختلف باختلاف الدول .

٨ — وأمر آخر له شأنه . هو أن الممثل السياسى لا يعاقب إذا أجرم . وقد جرت الدول على اتخاذ الاحتياطات إذا آنست من الممثل ميلا للإجرام لتحول دون وقوع ما يريد ، فهى لا تعاقبه ولكنها احتفظت بحق منعه من انتهاك حرمة القوانين دفاعا عن كيانها .

٩ — وكذلك يعفى الممثل السياسى من الخضوع للقضاء الجنائى والمدنى فى الدولة التى يقوم فيها . فلا تجوز مقاضاته أمام محاكمها ولا يجوز القبض عليه ومعاقبته طبقاً لقوانينها .

وتمنع القواعد الدولية إكراه السفير على أداء الشهادة أمام محاكم الدولة التى أوفد إليها . لكن تجوز دعوته للشهادة . والأصل أن السفير لا يؤدى شهادة ما إلا بعد أن تأذن حكومته .

ويفضل السفراء أداء الشهادة فى السفارة لا فى جلسة علنية .

١٠ — ودار السفارة وما فيها من سجلات وأمتعة يشملها الإعفاء من القضاء الوطنى . فلا يجوز للسلطات المحلية دخولها ولا تفتيشها ولا حجز شىء منها ، لأن السفير لا يقوم بأعماله

وواجباته إذا كان مهددا ، ولأن دار السفارة نفسها تعد قطعة من أراضى الدولة التى يتبعها السفير ، فنظرية تجاوز القوانين هى التى تطبق عليه .

أما إذا كان للسفير أملاك خاصة فالظاهر أن الإعفاء لا يشملها . وحرمة دار السفارة ضرورية ليؤدى الممثل واجباته بحرية ، ولذلك تحميها الحكومة وتحرسها حال وقوع هيجان ضدها .

١١ — والممثل له الحق فى مخابرة دولته دون أن يطّلع على ذلك أحد ، لأن التمثيل السياسى لا معنى له إلا إذا ضمنت حرية الممثل فى مراسلة حكومته سواء أ كانت بالبريد أو على يد رسول خاص . وفى هذه الحالة يحمى الرسول أثناء قيامه بمهمته .

ولهذا فإن بريد السفير إذا كان ممهوراً بخاتم السفارة لا يمسّ .

١٢ — وأخيرا فللممثل الحق فى رفع علم دولته على مقره الرسمى .

الفصل الخامس

الباب الأول

نحو دبلوماسية جديدة

رأيت فى الفصول السابقة صوراً عن السفراء والرسل الدبلوماسيين فى الغرب . وهؤلاء إنما يقومون بأعمالهم ويتمتعون بميزاتهم ليحققوا أهداف الدبلوماسية التى يخدمونها . فيجدر بنا إذن قبل أن ننتقل إلى مباحث أخرى أن ننهى بحثنا فى القسم الأول بالتكلم على هذه الدبلوماسية التى تهيمن على أعمالهم وتسيّرهم نحو هدف محدود معيّن لا يحيدون عنه .

ولكن ما هى الدبلوماسية .

لعل أحكم وأوجز تعريف للدبلوماسية من بين تعريفات كثيرة مختلفة هو تعريف ريفير Rivier الذى قال : « الدبلوماسية هى علم وفن فى آن معاً » . فهى علم فيما يتعلق باكتساب أوسع وأعمق معرفة بصلات الدول السياسية والحقوقية بعضها ببعض وإدراك منافعها المتبادلة وعبر تواريخها والروابط التى فرضتها عليها المعاهدات الدولية فى الماضى والحاضر وأثرها فى المستقبل . وهى فن لأن الممثل السياسى يحتاج كى يقوم بأعباء مهمة تصريف الأمور الدولية إلى هبة خاصة يستشف بها الأمور ، وملاحظة دقيقة يستنبط بها الأشياء ، وتحليل متزن هادئ يتوصل به إلى النتائج ، وحب للتنظيم وفهم للمصاعب . فالدبلوماسية إذن هى علم وفن . وهذا العلم وهذا الفن يدوران حول تمثيل الحكومات والمفاوضة عنها . فهو يمثل الأفراد رعايا بلاده دائما ويمثل المنافع التى يبغونها . يمثل مرسله أميراً كان أو سلطاناً أو هيئة ؛ لأن الحكومات لا تستطيع أن تكون فى كل مكان وليس لها صفة الوجود فى كل مكان . ولأنها لا تستطيع أن تدع شواغلها الملحّة لتطوف فتجمع الأخبار وتدير المفاوضات . فالدبلوماسى إذن يمثل حكومته ويجمع لها الأخبار ويفاوض عنها ويمثل منافع بلاده العليا ومنافع أبناء بلاده ويحرص على تنفيذها . أما المفاوضات فهى من مستلزمات الدبلوماسى ولعلها من أولى واجباته التى ينبغى له القيام بها . فمن أقدم عصور التاريخ كان

الدبلوماسى قبل كل شىء مفاوضاً ، وهو يمثل المرسل لأنه يفاوض باسمه .

ويجب أن نضيف أن الدبلوماسية اتخذت على مر الأجيال صبغة حقوقية متزايدة . ويبدو أن حفظ حقوق الناس كان من أكبر الدوافع للعمل الدبلوماسى منذ العصور الخالية. على أننا نلاحظ الآن أن نفوذ الفعالية الدبلوماسية فى الحياة الحقوقية قوى وأن الدبلوماسية تستهدف أن تكون ضامنَ الحقوق فى وقائع الحياة الدولية .

فالآن وقد عرفنا ما هى الدبلوماسية نستطيع أن نتحدث عن الدبلوماسية الجديدة التى تهيمن على العالم .

ولكى نستطيع معرفة ميزات هذه النزعة الجديدة يجدر بنا أن نعرض عرضاً سريعاً المراحل التى سبقت هذه النزعة .

فالدبلوماسية المنظمة فى أوروبة قد ولدت منذ القرن الثالث عشر على أقصى الحدود ، ولا يظن أن هذه الدبلوماسية ولدت فى إنجلترا قبل سنة ١٦٤٥ ، وفى فرنسة ١٦٢٤ زمن ريشيليو .

ولعل أول من فطن إلى ضرورة الدبلوماسية هم تجار فينسيا حرصاً على مصالحهم التجارية فى البلاد التى يصدرون إليها بضائعهم ويستوردون منها . ثم فطن البابا إلى إرسال رسل من عنده إلى بعض الملوك ، ثم نظم فرنسوا الأول فى فرنسة هذه المصالح الدبلوماسية . ولما جاء ريشيليو Richelieu سعى أن يكون الممثلون دائمين مقيمين فى البلاد التى يرسلون إليها .

وما زالت الدبلوماسية تنمو وترقى حتى احتلت المكان الأول فى المعاهدات والمؤتمرات . ولقد رأيت ما كان لها من أثر فى تصنيف الممثلين فى معاهدة فينا ومؤتمر إيكس لاشابيل .

وعرفت أوروبة رجالا دبلوماسيين بهروا التاريخ بأعمالهم ومفاوضاتهم وحيلهم وذكائهم حتى نسبت إلى بعضهم أعمال هى أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة . ومن هؤلاء الدبلوماسيين : ماكيافيل Machiavel ، مترنيخ Metternich ، تاليران Talleyrand ، بسمارك Bismark ، مازاران Mazarin ، ريشيليو Richilieu ، سولى Sully ، كافور Cavour ،

بترارك Petrarque ، دانتى La Dante ، غيزو Guizot ، ويليام تمبل W. Temple ، بيت Pitt ، بالمرستون Palmerston وغيرهم .

وفى طريقها الطويل مرّت الدبلوماسية بصورة عامة بمراحل أربع :

١ — الدبلوماسية القديمة ٢ — الدبلوماسية الثابتة ٣ — الدبلوماسية الحديثة ٤ — نحو الدبلوماسية الجديدة .

١ — الدبلوماسية القديمة Diplomatie encienne : إن الزمن الذى سادت فيه هذه الدبلوماسية كان أطول الأزمان وأقلها شأنا . يبدأ من أقدم العصور وينتهى فى أواخر القرون الوسطى . ويمكن أن نسميها الدبلوماسية القديمة أو المتقطعة Intermittente . فالحرب كانت سائدة بين الأمم فى أغلب الأحايين والعلاقات بين الشعوب فاترة ضعيفة ، فكانوا يرسلون بعض الأحايين وفى فرص محدودة رسلا إلى حكومة ثانية ليفاوضوا فى أمر أو يوثقوا روابط الصداقة أو يتصلوا ببعض الرجال أو يقترحوا اتحادا أو زواجا . فالعالم القديم الذى كان يمنح هؤلاء الرسل امتيازات خاصة يتمتعون بحصانة لا يتعدى معها أحد عليهم لم يعرف غير هذه الدبلوماسية وكأن مهمة السفراء فوق العادة فى أيامنا تشبه مهمة رسل تلك الأيام لأنهم يقومون بعمل خاص معيّن ، ولعل المانع الأكبر من جعل الرسل دائمين مقيمين كان الخوف من التجسّس . وواضح أن الحيلة والدهاء كان لهما الشأن الأكبر فى هذه الدبلوماسية .

٢ — الدبلوماسية الثابتة Diplomatie Permanente : ومع ذلك فبتأثير تقدم الحضارة عرفوا أن الصلات المستمرة بين الأمم تعود على هذه الأمم كلها بالخير العميم . . فاتسع أفق التفكير وكان ميلاد الدبلوماسية الثابتة ، ويعود تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس لدى بعض جمهوريات إيطالية ، ثم أدخلها مازاران وريشليو فى فرنسة . وواضح أن معاهدة وستفاليا كان لها شأن فى تقدم الدبلوماسية . أما فى روسية فلم يتبع نظام الرسل الدائمين إلا منذ زمن بطرس الأكبر فى القرن الثامن عشر .

فى هذه الحقبة التى سادت فيها هذه الدبلوماسية كانت الحرب كالسابق متواصلة بين الأمم تقريباً ، وكان هدف الدبلوماسية مناقشة الأمور الجارية وإجراء المفاوضات وتوثيق أواصر الصداقة . وكانت مناقشة الأمور والمفاوضات تحتلان شأنا أكثر من توثيق أواصر المحبة .

وكانت جهود الممثل تقتصر على الأمور السياسية وقد تتعداها أحيانا إلى الأمور الإدارية والاقتصادية أعنى فائدة الدولة الموفدة أولا ثم فائدة رعايا هذه الدولة .

وكان على الممثل فى هذه الحقبة أن يتخذ مقررات هامة يرسلها لحكومته . وكان لابتعاده عن حكومته بسبب قلة المواصلات ، يُغَذَّى بتعليمات مفصلة ويُمنح سلطات واسعة . وكانت الخديعة ذات شأن كبير فى هذه الدبلوماسية . حتى إن السر هنرى وتن Henry Wotton كتب : «إن السفير هو رجل شريف يرسل إلى بلاد أجنبية ليكذب لفائدة بلاده»

ولما كانت الخديعة والكذب يعودان على البلاد كلها بالشر فقد أخذ ظلهما بالتقلص وبدأت تحل محلهما الثقة وخاصة بعد موجة مذهب الليبراليسم Libéralisme الذى طغى على العالم أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

وفى نهاية هذه الحقبة بذلت جهود لإعطاء هذه المهمة صفة عملية ، فكان أن قبل مؤتمر فينا تصنيف الممثلين السياسيين أصنافا مختلفة ، وما يزال هذا التصنيف متبعاً إلى أيامنا هذه رغم مخالفة ضرورات العصر .

٣ — الدبلوماسية الحديثة Diplomatie moderne : على أن ظفر الأفكار المحررة وتأثير الأمور الاقتصادية فى القرن التاسع عشر أثرا بشكل قوى فى روح الدبلوماسية ، كما عَدَّل تقدم المواصلات وكمال الآلية من شكلها ، ولكن أهدافها لم تتبدل ولم يطرأ عليها تعديل كبير .

فقد قلت الحروب وأضحت حروباً وطنية ولم يعد الملوك هم الذين يثيرون الحروب لحاجات فى أنفسهم ، بل أصبح الموجِّه البرلمانات والرأى العام . وخاصة الصحافة التى كان لها أثر كبير فى توجيه البرلمانات والرأى العام نفسه . تزين له الباطل وتبشّع له الحق . وزرعت الدعوة إلى الجندية الإجبارية حب الوطن فى القلوب فيّاضاً قوياً . وشاعت معانى الوطنية والدفاع عن البلاد أيما شيوع . وظهرت من جهة ثانية نغمة للدفاع بلا سلاح . ولكن التسلح البحرى والأرضى طغى فى سبيل حماية البلاد . وأضحى الممثل الدبلوماسى لا يمثل فى هذه الحقبة الثالثة فى أغلب الأحايين شخص الملك المطلق أو الأمير المستبد ، ولكنه يمثل — ولو كان هناك رئيس دولة — الحكومة البرلمانية التى أرسلته : الحكومة التى تمثل الشعب .

ولـكن الشيء الذى عدّل من شأن الممثل السـياسى هو قصر المسافات البعيدة بسبب وسائط النقل والتلغراف والسكك الحديدية والملاحة بالبخار والهاتف والسيارات ، فى حين كان على الدبلوماسى فى الماضى فى ساعات الأزمات أن يتخذ مقررات سريعة من غير استشارة حكومته ، أما زميله اليوم فيسرع إلى التلغراف أو يتكلم بالهاتف لينجو من كل تبعة .

وليس معنى هذا أن على الدبلوماسى أن يتبع هذا الطريق دائما لئلا يكون الممثل وسيلة ارتباط ليست بذات شأن ، ولـكن بالعكس فإن قيمة جودة الحكم و براعة اللباقة لا ينتقص من شأنهما رغم المواصلات .

على أن اختصار تلك المسافات البعيدة أثر فى مراقبة الأخبار الفعلية بصورة عامة ، لأن الصحف تنشر الأخبار وهو يرسـل الأخبار نفسها ، فقد تختلف وقد تتشابه وقد تأتلف . وأخذت « الثقة » المحل الأول فى المفاوضات . ولـكن ليس معنى هذا فقدان الحيل الأخرى لاقتناص الأخبار . كما أن هذا لا يعنى أن يكون الممثل ساذجاً لا يتحلى بالدهاء أو الأنانية المقدسة Sacro-égoïsme فى سبيل فائدة بلاده .

وكذلك أثرت الآراء الديموقراطية فى الدبلوماسية أثناء هذه الحقبة ؛ فأصبح على الممثل أن يهتم بمصالح مواطنيه ، وأن يكون هو ومن معـه من المساعدين محامين عن حقوقهم فى البلاد الأجنبية . وأن مسعى الممثل فى هـذا المضمار يضمن له النجاح الـكبير الذى لا يقل عن النجاح الذى سيناله فى المضمار السياسى :

وثمة أثر آخر لا ينفصل عن آثار الديموقراطية ، هو العناية بالأعمال الاقتصادية . ولطالما طعن على الدبلوماسية عزوفها عن هذه الناحية ، لأن الأمور الاقتصادية وما ينتج عنها من فوائد أخذت تحتل المـكان الأول فى السياسة العالمية .

وقد أوجبت الحياة العصرية تنظيما كاملا للشئون الدبلوماسية وأصبح العنصر السرّى ميالاً للاختفاء مع مظاهره القديمة . ولـكن هـذا العنصر خسارة من الوجهة الفنية ومن وجهة العمل الدبلوماسى نفسه . أما مظاهر التمثيل فقـد أصبحت أقل شأناً مما كانت عليه من قبل . كما أن التأثير الشخصى للممثل كمالِه أو نسبِه لم يَعُدْ له ، أو يجب أن لا يكون له ، الشأن الذى كان له من قبل . والمؤسف أن هذه الحقيقة لم تعرف دائما أو لم تلاحظ . ولا شك أن

للصحافة شأناً كبيراً فى توجيه المباحثات و كشفها و إفشائها رغم أن صلة الصحافة بالدبلوماسية ضيِّقة فى هذه الأيام . فمهمتهما متشابهة تقريباً . ولـكن الذى يؤمل أن يعمل هذان بانسجام تام لمصلحة الخير المشترك .

٤ — الدبلوماسية الجديدة :

واليوم يظهر عنصر جديد هو المبدأ الأخلاقى ليدخل فى الدبلوماسية ، فبعد عصر طويل يبدأ منذ أزمنـة ما قبل التاريخ ، حيث كان يخيل أن الغزوات هى عنوان شرف يفوق تقدم العلوم والفنون شأناً ورفعة ، أتى عصر ملّ أهلوه من الحروب . وأخيراً جاءت الاختراعات الآلية الفنية فى هذا العصر فساعدت على الاشمئزاز من المذابح المخيفة التى تبشر بهـا تلك الاختراعات الجهنمية . فهذا الروح المسالم الذى كانت توحى به فى كل عصر طائفة من النخبة الصفوة ظهر ظهوراً واضحاً فى السنين التى سبقت الحرب ، وخاصة فى مؤتمر السـلم فى لاهاى منـذ ١٨٩٩ — ١٩٠٧ . ولـكن سخرية القدر شاءت أن تعقب هذه الفترة التى رفَّت فيها هذه الروح الطيبة المباركة كارثة من أعظم الـكوارث جعلت تلك الروح تخبو ، ولـكنها عادت إلى توقدها بعـد الحرب . ورأى الناس جميعاً وخاصة الإنسانية المتمدنة أن الحرب تمثل رعباً مخيفاً يجب الابتعاد عنه .

وقد لوحظ أن الحروب الوطنية قد قلّت كثيراً وكادت تمحى ، وهذه ظاهرة تبشر بنتائج مغرية تومئ إلى الصلة بين الدبلوماسية والحرب ، وأضحت الدول اليوم تسعى أن لا تثير أى اعتداء على دولة أخرى . وقد قامت الدول بعد الحرب كل منها تريد أن تعين تبعة الحرب وكوارثها ومصائبها . وتلك فـكرة ما كانت من قبـل . وجهدت كل دولة أن تبرهن على طهرها و براءتها مما نسب إليها لتبتعد عن الإجرام الذى تسببه الحرب .

فهذه الوقائع دلائل تومئ إلى تطور الرأى المتمدن ، على أن إدخال المبدأ الأخلاقى فى العلاقات الدولية يظهر أيضا فى مضامير أخرى غير الحرب . فقد أعلن مذهب حرية الأقليات ضرورة تقديم لائحة بأعمال الدول التى انتدبت عليها إلى عصبة الأمم . وواضح أن الهدف من ذلك هو حماية السلام وضمانه .

ومن أول الأعمال التى ظهرت من أجل هذا المبدأ الأخلاقى فى العلاقات الدبلوماسية

هو حذف المعاهدات السرية . فليس من العدل فى شىء أن ترتبط دولة بمعاهدة سرية مع دولة أخرى ولا يعلم أحد بها . فقد يُخشى أن يكون بها شر على دولة ثالثة . وهى بذلك تساعد على بقاء الحروب وظهورها بالارتباطات والتعقيدات التى يمكن أن تنتج عنها ، وتشجع الدول الأخرى على عقد معاهدات مماثلة ضد الآخرين .

فبهذا الاعتبار حُذفت الدبلوماسية السرية تقريباً من الوجود . وأصبحت المفاوضات والمعاهدات تنتشر ويعلم بهـــا الناس جميعاً . وهنا تبدو براعة الديبلوماسى الذى ينال ما يتمنى علناً .

أما ما يتعلق بمحو اتحاد الدول الذى يراه الجميع الدواء الشافى من كل العلل فى سبيل السلام فهو ليس كما يُعْتَقَد ويُخَيَّل أن الأمر يدور فى دائرة فاسدة . والواقع أن دولتين إذا لم تكن تربطهما روابط الاتحاد يتساعدان حتما فى عمل يجدان فيه فائدة متماثلة لهما . ومن جهة أخرى أن الاتحاد لا يكون له شأن عنـــد ما تتعارض مصالحهما . والمهم أن فكرة الحرب نفسها أصبحت تزداد ثقلا على النفوس وبُعداً عنها .

ولا بد من الإشارة إلى أن نفرا من الرجال السياسيين نادوا بفصل المصالح السياسية عن المصالح ذات النظام الاقتصادى وحذف المصالح الأخيرة . ويبدو أن هذا النداء غير قابل التطبيق . فالمقدمات التى يأتى بها الطرفان صحيحة بعض الأحايين ، إذ ليس من النادر أن تكون المصالح الاقتصادية الشديدة أصعب فى الحل من اختلاف الوجهات الوطنية . ولـكن هذه الأمور منذ وجد العالم لم يمكن أن تتجزأ . ثم إن المصالح الاقتصادية التى كان لها فى الماضى الشأن الـكبير لا بدّ من العناية بها بعد أن نمت الصناعة أى نموّ وتقدمت بفعالية وقوة إلى الأمام .

إذن فمع هذا التطور الذى يستهدف المثل السامى تمشى معا المصالح السياسية والمادية . ونلاحظ يقظـة الوعى الدولى لوضع حد للحروب والالتجاء إلى المفاوضات وحل الأمور بالديبلوماسيات . على أنه رغم هذه اليقظة فإن هناك المادية والآلية تهددان العالم مرّة أخرى مع عوامل سياسية واقتصادية أخرى ، وقد تعادل الدبلوماسيون بروح التضامن نحو السلم الذى ظهر قبيل هذه الحرب . وسعوا كل السعى للاستفادة منها .

إن حكم الدولة لم يعد مطلقا كما كان من قبل . والحق الإعلانى أصبح له شأنه فى النظام الدولى . فقد أضحى حقا صحيحاً سينظم بهذه الأشياء وليس بما يثيره حق الدولة لكى يعدل من مطامعه . وهذه أول مرّة نراه فى تاريخ العالم .

وقد انتشر مفهوم حقوق الناس وتطوّر تطوراً هاما منذ سنين بعيدة . وقد كان يجب التكلّم على أثره فى هذه الدراسة . ولكن قد كان لا يخلو عملنا من سخرية .

ويلاحظ أن العلماء المشرعين قدموا فى هذه الفترة الأخيرة بأعمال باهرة فى حقل الدبلوماسية يدفعهم إلى ذلك خير الإنسانية . فهو عمل علمى رائع بتجرده وبُعدِه عن العصبية وبجميل تنظيمه وبعد نظره . فقد أخذت مقرراتهم الإيجابية فى شؤون شتى بعين الاعتبار . وقد أنشئ مجمع علمى للأمور الدبلوماسية الدولية .

لا جرم أن التفاعلات التى مرَّ ذكرها أثرت كلها على الدبلوماسية الجديدة ، وهناك أمر ذو شأن نراه قد تحقق ، هو البقاء بعلاقات حسنة مع جميع الدول . وبدأنا نسمع تعريفاً جديداً للدبلوماسية هو نتيجة هذه التفاعلات فقد قال السير أرنست ستو Stow : « إن هدف الدبلوماسية عند الدبلوماسى هو توافق مصالح بلاده ومصالح البلاد الأخرى ، ورفع شرف بلاده عالياً وجَنْى عقلية دولية » .

وكثرت فى سبيل ذلك المؤتمرات الدولية للتداول فى الأمور وهيمن الضمير الأخلاقى على الدول الديموقراطية . ولكنَّ الذى كان يُعكِّر هذا الصفو هو الدكتاتوريات التى كانت أداة هدم الوئام .

ولقد أرتنا هذه الحروب الأخيرة كيف تحطم الطغيان وانتصرت الديمقراطية ، وبدأ يهيمن على الناس عالم جديد يرجى أن يكون فيه خير وطمأنينة وسلام .

مصادر القسم الأول

Dictionnaire Diplomatique de l'Académie diplomatique International, Paris.

Matières : Diplomatie
Agents Diplomatiques
Consuls
Lettres de créances, de rappel, de récréance
Immunités Diplomatiques
Privilèges Diplomatiques
Style Diplomatique
Exterritorialité.

J. CAMBON : Le Diplomate, Paris, 1920.

CHEVREY-RAMEAU : Repertoire diplomatique et consulaire 1883-85.

FLASSAU : Histoire Générale et raisonnée de la diplomatie Française, 2° ed. 1811.

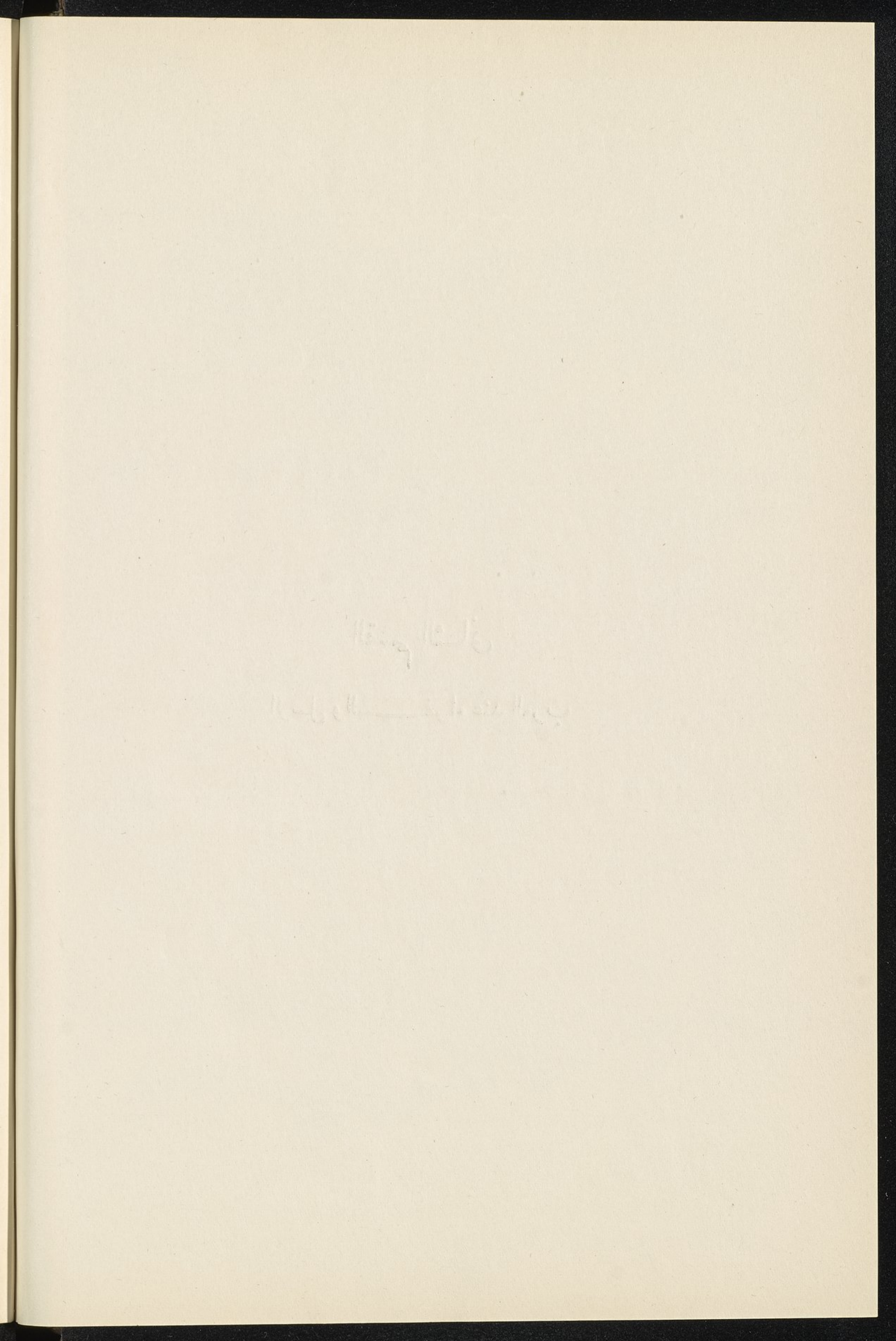
MANNET : Manuel diplomatique et consulaire, 3° ed. 1910.

ROUSSEAU de CHAMOY : L'idée du Parfait ambassadeur (publié par M. DELAVAUD en 1912, dans la Revüe Générale de droit international public).

SZILASSY (De) : Traité Pratique de diplomatie Moderne, 1925.

القسم الثانى

الرسل والسفراء عند العرب



الفصل الأول

الباب الأول

لمحة عن الرسل فى دول الإسلام

كان وضع العرب الجغرافى قبل الدعوة و بعد الفتح محاطا ببلاد غريبة الجنس واللسان فقد كانت بلاد الفرس والروم تتاخم البلاد العربية وتحيط بها . فكان فى العراق الفرس وكان فى مصر والشام الرومان . فلما انتشر الإسلام وامتدت الفتوح واستولى العرب على مصر من جهة والشام من جهة ثانية وفارس من جهة أخرى تقلّص ظل بعض هذه الأمم ، وضعف بعضها ، وزالت فارس من الوجود وتحطَّم عرش كسرى وطرد الروم من الشام ، وخرج هرقل يبكي هذه البلاد الجميلة الفاتنة وخرجت مصر من سيطرة الروم وامتد رواق الإسلام فيها . على أن العرب إذا كانوا قد أخرجوا الروم من الشام فقد عجزوا عن إخراجهم من بزنطية رغم محاولاتهم وغزواتهم . إذ ارتدت الروم إلى آسية الصغرى و بلاد الأناضول إلى الإمبراطورية الرومية الشرقية وتحصنوا بجبالها الجنوبية التى تفصلها عن الشام فعمروا بها المسالح والحصون وظلوا يتاخمون العرب و يحاولون الغدر بهم من حين إلى حين .

ولقد وجد العرب أنفسهم ، قبل الفتح لأسباب دينية وسياسية معاً ، و بعد الفتح للقيام بالجهاد مرة وللتوسع أخرى ، أقول وجد العرب أنفسهم مضطرين إلى تبادل الرسل مع الروم لأهداف معينة يبلغونها .

فالرسول صلوات الله عليه أرسل الرسل إلى قيصر وكسرى والمقوقس . وكانت دعوتهم فى الظاهر دينية لأنها دعوة للإسلام . ولكن الحقيقة أن هؤلاء الرسل كانوا دبلوماسيين أيضاً ، لأن تحت الدعوة الدينية إلى الإسلام كانت دعوة إلى العرب ولغتهم . دعوة قومية سياسية تضمن للعرب السيطرة والنفوذ ، لأن الدين نفسه جعل للغة القرآن ميزة كبرى لنزول القرآن بها .

ولقد اضطر قيصر بعد ذلك إلى إرسال رسول إلى النبي [١] ، فلما انتقل الرسول إلى الملأ الأعلى أرسل أبو بكر ثلاثة نفر رسلا إلى قيصر [٢] . فلما أتى عمر أرسل إليه رسولا [٣] وورد عليه منه رسول [٤] .

وقامت الدولة الأموية وامتد سلطانها فى الشام . فتاخمت الروم وقربت منهم فاضطروا إلى إذكاء نار الجهاد للتخلّص منهم ، ولكن هذه الغزوات التى كانت تشن فى كل سنة مرة أو مرات كانت تفشل أكثر الأحايين وكان يكتب لها النصر أحايين أخرى . وكان معاوية مشغولا بمملكته الفتية . فلم يستطع أن يتغلب على الروم ، فاضطر إلى إرسال رسل إلى بلاد الروم ليهادنهم [٥] فيستريح من الغزو . فكانت الرسل تتردد فى سبيل ذلك .

ومثل هذه الحالة واجه الخليفة عبد الملك . فقد ألهته الفوضى التى قامت فى البلاد والثورات التى نشبت فى العراق والحجاز عن ضرب الروم ، فأرسل إلى الروم رسلا ليهادنهم وأرسل الروم إليه رسلا يوافقون على ذلك .

وهكذا أخذت الرسل تتردد بين دمشق وبزنطية . فأتى دمشق رسل الروم زمن هشام [٦] وسليمان [٧] وزمن عمر بن عبد العزيز [٨] ، وأرسل العرب رسلهم إليهم .

وبينما كانت الروم فى الشمال تناوش العرب كانت الجيوش العربية الإسلامية تتقدم فى الشرق حتى تبلغ الصين . فى هذه الحقبة تذكر المصادر التاريخية أن رسولا اسمه سليمان أوفده هشام بن عبد الملك إلى الخليفة الصينى هسوان تسونج سنة (١٠٨ هـ) . وتذكر هذه المصادر أن العلاقات السياسية زادت يومئذ بين العرب والصين ، وأنها توثقت زمن العباسيين حين أرسل هؤلاء جنداً من جندهم ليعينوا ملكا على آخر هناك فطاب لهم

---

(١) مسند أحمد ٧٥/٤ .

(٢) صبح الأعشى ٣٦٠/٦ . وانظر أخبار هذه السفارة مفصلة فى تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط) ج ٦ ورقة ١٦٣ آ .

(٣) الشرع الدولى فى الإسلام للأرمنازى ص ١٥٣ . وانظر هناك خبر هدية أم كلثوم لملك الروم .

(٤) رسل الملوك — الباب الحادى والعشرون .

(٥) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٨٣ .   (٦) رسل الملوك .

(٧) السفارات الخلافة لعبد الله عنان (الرسالة) .

(٨) مسجد دمشق (مخطوط ورقة ٨ آ) . وانظر مخطوطة ابن عساكر عند كلامه على مسجد دمشق .

العيش فيها واستقروا وتزوجوا من بناتها[١] .

إذن فنحن نجد أن العرب منذ فجر عهدها اضطرت إلى إرسال رسل إلى البلاد المتاخمة لها تارة والبعيدة كل البعد عنها تارة أخرى .

فلما تولت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية ازدادت الصلات الدبلوماسية بالأمم المجاورة قوة . فعظم شأن الرسل وكثر توافدهم فأرسل المنصور إلى ملك الفرنجة رسلا فنزلوا مارسيليا وشتوا فى متز وأقاموا فى قصر سلس على ضفاف اللوار[٢] . كما أرسل رسلا آخرين إلى ملك الروم[٣] وأرسل الروم والفرنجة رسلا إلى المنصور وإلى المهدى فلما جاء هارون الرشيد ترددت الرسل بينه وبين شارلمان . وقام شبه توازن دولى يومئذ بتحالف هارون الرشيد وشارلمان من جهة ومملكة الروم الشرقية ودولة الأمويين فى الأندلس من جهة ثانية[٤] ، وازداد النشاط الدبلوماسى . وأضحت بغداد مركزاً هاما ورأت من رسل الملوك كثيرين ، فقد أتتها رسل ملك الحبشة والخزر والصين والروم[٥] .

وأرسل العباسيون رسلا من عندهم . وخاصة إلى الروم للقيام بأمر الفداء والمهادنة فى أغلب الأحايين . وتعدت الرسل الروم فذهبوا إلى البلغار[٦] مرة وإلى الصين مرة[٧] ، وإلى بلاد الصقالبة مرة[٨] ، وقد ترك لنا هؤلاء الرسل أخباراً كثيرة عن رحلاتهم هذه نجدها مدوّنة فى كتب التاريخ ومعاجم البلدان .

أما فى الأندلس فقد مدت أمم النصرانية على قول المقرى لعبدالرحمن من وراء الدروب يد الإذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والأعمال[٩] ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والفرنجة والمجوس إلا وفدت عليه . كرسل الروم والصقالبة والألمان والفرنجة[١٠] ، فكان ملوك الأندلس مضطرين أمام توافد

---

(١) P. de Thiersant : Le Mohsmétisme en Chine 1—70 ، وانظر الصين وفنون الإسلام ص ١٠ .
(٢) السفارات الخلافية والسلطانية لعبد الله عنان الرسالة عدد ٨٨ سنة ٩٣٥ ص ٣٦٩ .
(٣) كتاب البلدان ص ٣٧ .
(٤) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ١٣١ .
(٥) رسل الملوك — الباب الثامن عشر .
(٦) معجم البلدان ١/٧٢٢ .
(٧) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ٣٢ .
(٨) معجم البلدان ٢/٤٨٤ .
(٩) نفح الطيب ٣/١٤٨
(١٠) نفح الطيب ٣/١٨٢ .

الرسل عليهم أن يرسلوا رسلا من عندهم بالمقابلة[١] .

وقام الفاطميون فى مصر فنشأت دولة جديدة نظرت إليها الروم بعين الرضا لما كان بينها و بين العباسيين من تنافر ، واضطر الفاطميون إلى إرسال رسل إلى الروم وخاصة فى زمن المستنصر بالله زمن الوباء[٢] ، ووردت عليهم رسل هؤلاء[٣] ليفاوضوا و ينظموا أمور الفداء أو يحكموا العلاقات التجارية التى طمعوا بها من مصر لمركزها الهام[٤] .

وفى زمن الصليبيين تناصر العرب والفرنج فانتصر الإسلام . ولقد بدأت ولكنها ما انتهت وفى خلالها كانت رسل العرب تذهب إلى مستعمرات الفرنجة فى البلاد المقدسة ، وكانت رسل هؤلاء تتردد إلى القاهرة تارة ودمشق أخرى .

ثم اتسعت الدبلوماسية زمن المماليك . وكانت مصر الدولة الكبرى التى تتجه إليها أبصار الروم والفرنج والمسلمين . فكثرت الرسل الواردة والصادرة حتى كان يأتيها رسل من الروم والفرنج والبنادقة وأهل جنوة وأسبانيا والبرتقال واليمن والهند وسرنديب والسلاجقة والتتر . وحتى اجتمع فى مرة معاً أربعة عشر رسولا من أمم مختلفة فى القاهرة[٥] .

فكان المماليك يرسلون الرسل أيضاً . فأمام هذه العوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية وتحت تأثيرها رأى العرب أنفسهم مضطرين إلى إرسال الرسل أو تلقى الرسل تبعاً لقوتهم وضعفهم . فكان لا بدّ وقد اتسعت الشؤون الدبلوماسية من أن يعنوا بالرسل والسفراء . يعنوا بانتقائهم وشروطهم وصفاتهم و يمنحوهم ميزات خاصة بهم . فلننظر كيف كان الرسل فى الإسلام وما هى أخبارهم[٧] .

---

(١) نفح الطيب ٣/١٢٥ و ١٧٨ . (٢) المقريزى ٢/١٣٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) وانظر عن مركز مصر التجارى : مصر الإسلامية . المواصلات فى مصر ص ٣٣ و ٣٨ وابن الفقيه ص ١٥٣ . (٥) انظر السلوك للمقريزى .

(٦) السلوك للمقريزى ج ١/ق ٢/ص ٥٤٣ ، دولة المماليك فى مصر وليم مور ص ٥٨ و ٨٤ ، والسلوك ١/٢/٤٩٦ وابن إياس ص ١٩٨ والسلوك ج ٢ ص ١٦٣ ، و ج ١ ق ١ ص ٢٤٣ .

(٧) للتوسع فى هذه اللمحة السريعة عن الدبلوماسية فى الإسلام راجع ما كتبه عبد الله عنان عن السفارات الخلافية والسلطانية فى الرسالة . وتاريخ المماليك البحرية — علاقات مصر الخارجية . وحواشى الدكتور زيادة القيمة فى السلوك للمقريزى وفريد أبو حديد فى صلاح الدين وعصره . ونجيب الأرمنازى فى الشرع الدولى فى الإسلام .

الباب الثانى

الرســـول ، الســـفير

تحديد لغوى

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرسل والسفراء فى الإسلام أن نحاول تحديد معنى كل منهما ، وأن نعلم ما يرافق كلاً منهما من أعمال ومهمّات ، وأن نجلو الفرق بينهما .

و يجدر بنا أيضاً أن نرجع بادئ بدء إلى كتب اللغة لنرى ما حدّدت به معنى الرسول ومعنى السفير .

(ا) فالرسول مأخوذ من الإرسال . وهو التسليط والإطلاق والتوجيه . والذى يرسل هو الرسول أو الرسيل . وكأن فى معنى الرسول أنه يطلق إلى آخر و يوجّه إليه و يسلط عليه . و بهذا فسّر المفسّرون آيات من الذكر الحكيم ورد بها لفظ الرسول أو الإرسال . فقد قالوا فى معنى قوله تعالى «إنا أرسلنا الشياطين على الـكافرين تؤزهم أزّا» أى أطلقوا إليهم وسلطوا عليهم . وقالوا فى معنى إرسال الله أنبياءه إلى خلقه إنه توجيهم إليهم لإنذارهم .

وقد ذكروا أن عمل الرسول هو « متابعة أخبار الذى بعثه لآخر » أى أنه ينقل أخبار مرسله إلى من يرسل إليه . وعلى هذا فسر الأنبارى قوله (أشهد أن محمداً رسول الله) أى أشهد أن محمداً متابع للأخبار عن ربه .

هذا ما ذكرته كتب اللغة كالقاموس والتاج واللسان .

و يبدو أن هذا الحرف قد تخِذ فيما بعدُ معانى خاصةً اصطلاحية عند الناس بحسب فئاتهم . فالرسول فى الدين له معنى ، والرسول عند الفقهاء له دلالة ، والرسول بين الملوك له مفهوم ، والرسول بين العشاق له معنى آخر .

على أنّ هذه المعانى كلها تشترك بصفة واحدة هى صفة الإطلاق والتوجيه ونقل الأخبار ، وتختلف فى طبيعة العمل الذى يقوم به كل رسول .

فقد ذكر النووى فى الفتح المبين أن الرسول فى الدين إنسان حر ذكر من بنى آدم يوحى إليه بشرع و يؤمر بتبليغه .

وهو عند الفقهاء من أمره المرسل بأداء الرسالة فى عقد أو فى أمر آخر كتسليم المبيع وقبض الثمن فى البيع أو أخذ المبيع وأداء الثمن فى الشراء ، وهو لا يضيف العقد لنفسه ، فهو يبلغ الرسالة فقط وليس بوكيل .

وهو عند الملوك رجل يُرَسَّل بين ملكين فى أمور خاصّة من عقد صلح أو هدنة أو فداء أو تحالف ، وتكون فيه صفات معروفة يجب أن تتوفر به . فيمثل المرسِل كأنه هو ويتكلّم باسمه

وهو عند العشّاق من يحمل الكتب المعطّرة ويبث الأشواق المتأججة وينقل أخبار الود والحب والهيام . ويكون لطيفاً فطنا يجمع بين القلوب ويواسى فى الحب الجروح(١) .

فيتضح لنا من هنا أن هذه الكلمة اكتسبت فروقا من حيث العمل الذى يقوم به الرسول ، تظهر إذا قرنت بالفئة المرسلة ، الفقهاء أم الملوك أم العشاق والأصدقاء .

ويتضح لنا أيضاً أن هذه الكلمة فى موضوعنا الدبلوماسى لا تشير إلى رتبة خاصّة كما تشير إليها كلمة envoyé الفرنسية مثلا . وإنما على الرسول أداء الرسالة مهما كان نوعها وموضوعها .

(ب) أما كلمة السفير فقد أجمعت المعاجم على أنها من سفر وأسفر بين القوم إذا أصلح . ويظهر من هنا أن فى السفارة معنى من معانى الرسالة وهو التوجه والانطلاق إلى القوم . غير أن هنا تحديداً فى العمل وحصراً لا يخرج عن الصلح .

وبهذا فسّر أبو العلاء المعرى كلمة السفير فقال : « السفير هو الذى يمشى بين القوم فى الصلح أو بين رجلين » .

وذكر القلقشندى أن السفير هو الرسول والمصلح بين القوم(٢) .

وقد يلقب أيضاً بالسفيرى . وكان يسمى به بعض الخواجكية من المماليك لسفارتهم بين الملوك(٣) .

على أن هذه الكلمة اتخذت معانى أخرى تخرج عن الصلح الذى حصرته به كتب اللغة .

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم ص ٣١ . (٢) صبح الأعشى ١٥/٦ .

(٤) صبح الأعشى ١٥/٦ .

وسترى أن من السفراء من أرسل للتعزية أو الاستنفار أو التهنئة أو تقديم الهدايا .

كما أن كاترمير قد لاحظ لهذه الكلمة معانى أخرى .

فالمقريزى فى السلوك يقول : « قد تم ذلك بسفارة الأمير » ويترجمها بمعنى « توسطه وتدخله » Intervention .

ونجد فى مكان آخر من السلوك أنها وردت بمعنى المفاوضات « قد ذكرنا السفارة التى وقعت بينهما » وهى هنا Nègociation .

ونقرأ فى تاريخ مصر للعسقلانى قوله : «مع حسن سفارة بين الناس و بين السلطان » . أى (avec les bonnes dispositions de servir d'intermédiaire entre les sujets et le Sultan.)

وبهذا المعنى نقرأ : « كاتم السر سفير بين السائل والمسؤول» وقد عربها كاترمير بما يلى :

(Le Chef de la Chançellerie secrète est *l'intermédiaire* entre celui qui fait une demande et le prince à qui elle est adressée)

وقد تأتى بمعنى رسالة أو مهمة كقول ابن خلدون : «اختص بالسفارة إلى ملك المغرب»

(١) Il fût choisi pour un mission auprès du souverain du magreb

ومهما يكن من أمر المعانى التى استنتجها كاترمير فإن كلمة السفير لا تنحصر بالرسول الذى يذهب للصلح ، بل قد يكون حتى لأشياء أُخَرَ : للزواج مثلا . فقد حدّث حميد الطويل عن نفسه فقال : « خطب رجل إلى الحسن البصرى وكنت أنا السفير بينهما » (٢)

والآن ينبغى أن نتساءل السؤال الآتى : هل فرق العرب بين الرسول والسفير ؟ وهل قدّم أحدهما على الآخر ؟ وهل أوتى السفير ميزات خاصّات لم تكن للرسول كما هو الحال فى الغرب ؟

من الصعب الإجابة عن هذا السؤال بوضوح لفقدان كثير من المصادر لدينا . . على أنه يمكن القول أن العرب فى علاقاتها الدبلوماسية بالأمم الأخرى لم تفرق بين الرسول والسفير

---

(١) انظر مراجع هذه الكلمات فى :
(ا) معجم lane ١/١٣٧١ .
(ب) كاترمير Quatremére, Histoire des Sultans Mamlouks 1—193
(٢) حلية الأولياء ٢/١٥١ .

بمعنى أنه لم يكن لأحدهما ميزة خاصة على الآخر ، كأن يرسل الوزير الرسول ويرسل الملك السفير أو كأن يحق للسفير تمثيل الملك ولا يحق ذلك للرسول . فهذا أمر لم يكن معروفا ، وإنما كان الرسول والسفير رجلين يوفدان فى مهمات شتى إلى الملوك فيسفران ويرسلان ويمثلان الملك . أما الفهم الشائع القائل إن السفير هو أعلى طبقة من الرسول فبعيد عن الصواب . ومنشؤه كما أعتقد المفهوم الحديث للسفير عند الغربيين .

على أنه يجب تقرير أمور :

١ — أن السفراء والرسل فى الإسلام يشبهون اليوم السفراء فوق العادة الذين يوفدون بمهمة رسمية ينتهى عملهم التمثيلى بانتهائها كعقد معاهدة أو حضور زفاف أو إجراء فداء . ولقد كانوا ذوى صفة دبلوماسية فى أعمالهم هذه .

٢ — وكان بعض الرسل والسفراء من عمال الدولة أى موظفين رسميين تدفع لهم الرواتب وتنفق عليهم النفقات ويلبسون ملابس خاصة[١] .

٣ — ولقد عرفوا واتبعوا معظم القواعد الدبلوماسية التى يتبعها الغربيون اليوم كلها أو بعض وجوهها . والفارق بين هؤلاء وأولئك هو الإقامة الدائمة فى الدولة التى أوفدوا إليها . لأنهم كانوا يقومون بما عهد به إليهم ثم يعودون . والإقامة الدائمة من مستحدثات العصور الحديثة .

٤ — إن صفة التمثيل كانت معروفة لديهم . فالسفير والرسول يمثلان الملك ويتكلمان باسمه ويفاوضان عنه ويحكمان الشروط والعقود نيابة عنه[٢] .

وسنرى فى الأبواب القادمة لدى الرسل والسفراء العرب معظم ما رأيناه من قبل لدى الرسل والسفراء فى الغرب .

الباب الثالث

انتقاء السفراء

يجرى الغربيون فى انتقائهم الممثلين الدبلوماسيين على طريقتين : الأولى اختيار المبرزين

---

(١) رسل الملوك الباب الثامن عشر . (٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٥ .

الأولين فى مسابقات علمية عامة يجرونها بعد اختبار دقيق للمرشّح وتتبع لأحواله وصفاته. وتضمن هذه المسابقات عادة عرفان مبلغ فهم المتقدم وثقافته. وتكون هذه الطريقة فى أغلب الأحايين وسيلة لانتقاء الممثلين الدبلوماسيين المبتدئين. والطريقة الثانية هى تسمية من لُمست فيه الكفاءة والزكانة وعرف بالدهاء، رسولا أو سفيراً بلا امتحان يجرى أومسابقة تكون.

وقد اتبع العرب الطريقة الثانية وجروا على انتقاء من عرف وشهر أوشهد بفضله ودهائه أوسار ذكره واستفاضت شهرته. وقد كانوا ينتقون فى أغلب الأحايين من ظهر فضله أو زاد علمه أو نضج فهمه أو سما دهاؤه أو رفع منصبه. وشهد الناس بذلك كله.

ولقد عرفنا طائفة من الرسل والسفراء الذين كانوا يوفدون إلى ملوك الروم أو الفرنج أو الحبشة أو غيرهم. واستقصينا سيرتهم وتبيّنا أحوالهم، فوجدنا فيهم أكثر ما ذكرنا من الصفات.

على أن هؤلاء الرسل كانوا ينتقون ضمن دائرة محدودة من مهن معروفة ويكون لهم صفات مذكورة.

فلقد انتقى المنصور عمارة بن حمزة رسولا إلى ملك الروم. وكان عمارة هذا من الدهاء بمكان لا يجارى به (١).

وانتخب القاضى أبو بكر الباقلّانى سفيراً، وكان من جلال القدر وسعة العلم على جانب عظيم (٢)، وكان الذى بعث به عضد الدولة (٣).

وأرسل عبد الملك بن مروان الشعبى رسولا وكان قاضياً. وكان أمّة فى الفهم والذكاء والعلم، فحسد ملك الروم العرب عليه وأغرى عبد الملك بقتله (٤).

وأوفد عبيد الله بن نصر سفيراً وكان طبيباً بارعا فى الطب متوليا المارستان العضدى (٥).

وانتقى صلاحُ الدين القاسمَ بن يحيى الشهرزورى ليكون رسوله إلى بغداد وكان قاضى القضاة فيها قبل أن يرسَّل (٦).

---

(١) البلدان لابن الفقيه ص ١٣٧. (٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ص ٢٩٩.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب ص ٣٧٩/٥.

(٤) رسل الملوك الباب الحادى والعشرون وتاريخ ابن عساكر (١٤٦/٧).

(٥) تاريخ ابن الساعى ص ٩٨ (الجامع المختصر فى عنوان التاريخ وعيون السير).

(٦) تاريخ ابن الساعى ١٠٣ — ١٠٤.

وأرسل ابن الأصباغى الوزير من قبل محمد خوارزم شاه رسولا إلى بغداد [١] .

وانتُقى مجد الدين يحيى بن الربيع المدرّس فى المدرسة النظامية رسولا إلى شهاب الدين الغورى [٢] .

وأُرسل عبد الرحمن بن يحيى بن الربيع الفقيه رسولا من بغداد إلى ملك غزنة [٣] .

وجُهِّز برهان الدين إبراهيم الدمياطى نقيب الحكم عند المالكية وناظر المواريث رسولا من القاهرة إلى ملك الحبشة [٤] .

وأرسل سلطان مصر سنة ٧٠٣ فخر الدين عثمان الأستادار إلى ملك برشلونة [٥] ، والأستادار هو الذى يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير وصرفه وينتفذ فيه أوامره [٦] .

وكان عبد الرحمن الناصر يرسل وزيره هشام بن الهذيل إلى ملوك الروم أو يبعث بالغزّال الشاعر المعروف [٧] .

وكان ابن الجوزى المؤرخ والعالم والقاضى يترسل دائما بين بغداد ودمشق والقاهرة [٨] .

وأرسل سلطان مصر سنة ٦٧٩ الأمير ناصر الدين بن المحسن الجزرى ومعه البطريرك اثناسيوس فى الرسالة إلى ملك بزنطية [٩] .

وأرسل الحسين بن على اللّامشى المحدّث رسولا من خاقان ملك ما وراء النهر إلى دار الخلافة [١٠] .

وعلى الجملة فأنت ترى أن هؤلاء الرسل والسفراء أكثر ما كانوا ينتقون من القضاة ثم من الوزراء والأمراء ، وقد يكون أحدهم فقيهاً أو مدرّساً أو متطبباً أو بطريركا أو استاداراً أو محدثاً أو شاعراً .

---

(١) المصدر السابق ١٩٣ . (٢) المصدر السابق ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق

(٤) انباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر ورقة ٤٠ — ب مخطوطة باريس .

(٥) السلوك للمقريزى ج ١ ق ٣ ص ٩٥١ .

(٦) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، وج ٥ ص ٤٥٧ .

(٧) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٨ . (٨) السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٧ .

(٩) السلوك للمقريزى ج ١ ق ٣ ص ٦٨٠ (١٠) المنتظم ج ١٠ — ١٠ .

الفصل الثانى

الباب الأول

صفات السـفراء

على أن العرب قد احتاطوا للأمر حيطة كبرى وجهدوا فى جعل السفير المختار كاملاً بعيداً من النقص منزهاً عن المعايب ، ولعلهم فى هذا الباب فصّلوا و بيّنوا ما لا نجده فى كتب الدبلوماسية الغربية هذه الأيام فما تركوا أمراً ينتفع به السفير إلا اشترطوا عليه عرفانه ولا رأوا خلّة تصلح له إلا أوجبوا عليه أن يتحلّى بها .

ونستطيع أن نقسم هذه الصفات التى وقفوها على الرسل والسفراء إلى أقسام ثلاثة :

(ا) الصفات الجسمانية والمظهر الخارجي .

(ب) الصفات الخلقية .

(ج) الصفات الثقافية .

وسنفصّل هنا هذه الأقسام :

(ا) **الصفات الجسمانية :**

لا شيء يجذب العين كالمظهر الخارجي . وقد أدرك العرب ذلك ، فجعلوا للصفات الجسمية المكان الأول . فقالوا : « يستحب فى الرسول تمام القد وامتداد الطول وعبالة الجسم ، فلا يكون قميئاً أو ضئيلا . جهير الصوت وسيما قسيما لا تقتحمه العيون ولا تزدريه النواظر . ويستدرك ابن الفرّاء فيقول : « وإن كان المرء بأصغريه ومخبوءاً تحت لسانه ، ولكنّ الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان » .

ولا بدّ إلى جانب ذلك من حسن الرواء والمنظر . وينبغى أن « يجمل الرسول بكل ما أمكن ، لأن العامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية » .

وواضح أن الوسامة فى الصورة والجمال فى الهيئة تشوق الأعين ، وتفتن القلوب ، وترفع المكانة . . .

ولعمر بن الخطاب وصاة بهذا الأمر ذات شأن فقد قال : « يؤذن لكم فيقدم أحسنكم اسما ، فإذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجها . فإذا نطقتم ميزتكم ألسنتكم .

وقد كانت أعين الملوك تسبق إلى ذوى الرواء من الرسل ، و إنما توجب ذلك فى رسلها لئلا ينقص اختيارها خطا من خطوط الكمال ولأنها تنفذ واحداً إلى أمة وفذاً إلى جماعة وشخصا إلى شخوص كثيرة . فاجتهدوا فى أن يكون ذلك الواحد وسيما جسيما يملأ العيون المتشوفة إليه فلا تقتحمه . و يشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره[1] » .

و يلاحظ أن هذه العناية بالمظهر الخارجي من الجسامة والوسامة والقسامة والتجمل بأحسن الزى وألطفه ذات أثر كبير فى نفوس الرائين . ولقد فطن العرب إلى هذه اللفتة البسيكولوجية فعنوا بها كما يعنى الغرب بها فى أيامنا لأن من كان ذلك شأنه تلقته القلوب وعظم فى الأعين وسما فى النفوس ، لأن النفس الإنسانية مطبوعة على تعظيم الجميل مجبولة على رفعه وتكريمه ، ففى جمال الزى وجمال الجسم سحر يبهر و يعجب[2] .

(ب) الصفات الخلقية :

و إلى جانب ما ذكرنا شرطوا توفر صفات خلقية ثانية فيه . والحق أنها صفات قل أن تتوفر جميعاً فى رجل واحد . والواقع أن من يؤتاها يكون جديرا بالسفارة والرسالة و بكل أمر جلل عظيم .

قالوا لابدّ أن يكون الرسول قد بلغ من « نفاذ الرأى وحصافة العقل » المبلغ الكبير « فأضحى حُوّلاً قُلّباً قليل الغفلة ذا رأى جزل ونظر نافذ » .

وأن يكون فَطِنا للطائف الأمور « يعمل لما يرجو بالحزامة وأصالة الرأى و يتعقبه بالحذر والتميز » . فيستنبط غوامض الأمور و يستبين دفائن الصواب ، و يستشف سرائر القلوب ، ويأتى ما يأتيه عن بيّنة ثم يدع ما يدع عن خبرة فلا يغيب عنه شىء .

و ينبغى أن يكون حاضرَ الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة « ليعجب السامع بطلاوة حديثه و يسحره بحلاوة لسانه ، و يفتنه بخلابة لفظه . ثم ليكون كلامه ممتعاً أنيقاً ،

---

(١) رسل الملوك .

(٢) انظر معجم الأدباء ص ١٥٨ ج ١٠ (الرفاعى) فى ترجمة الحسين بن محمد التجيبى .

نافعاً لذّاً فى الاستماع ، فإن للبيان من السحر ما لا ينكر ، و إن له فى التوصل إلى البغية ما هو معروف » .

ولا بدّ إلى جانب الفصاحة من « ذكاء القلب والوثوب على الحجج » فتكون حججه تحت لسانه ، وعقله يقظان مع جنانه « يفهم الإيماء » و يدرك حجة خصمه قبل النطق بها « حتى يبرم ما نقض و ينقض ما أبرم » يفعل ذلك كله بطبع لا تكلّف فيه ، لأن المتكلف أسرع الناس إلى الفضيحة ، وعندئذ يسهل عليه أن « يجيل الباطل فى شخص الحق والحق فى شخص الباطل ، و يحتال فى محاوراته ومكايده » وذلك أقوم لإدراك المطلوب و بلوغ المراد.

و ينبغى أن لا يخلو من « جرأة و إقدام » فهو يحتاج إليهما مثل احتياجه « إلى الزكانة والوقار » لأن الجرأة أكبر جُنَّة من المخاوف وأقوى معين على النجاة فى الخطر وأضمن سبيل لبلوغ الهدف . ثم هى زينة ترفع صاحبها ، تسهل ما عَسُرَ عليه وصَعُب لديه . كما أن صاحب الوقار ترمقه العيون بالهيبة وصاحب الزكانة يفرض قوله على النفوس فتتلقاه بالقبول .

و يجب أن يكون « عاقلا ليميز الأمر المستقيم من المعوجّ » وأن يكون ثابت العقل إذا ورد من الأعداء على من يرعد و يبرق عليه ، و يجمع له عدده وعدده ، لأنه إذا ظهرت خفته أهان مرسله وضعّفه ، وأوهم المرسل إليه أنه دون قوته . وهذه إشارة فيها كثير من الحيلة والدهاء .

و يحتاج السفير إلى كثير من الحلم وكظم الغيظ مثل ما يحتاج إلى الصبر على طول المكث وتراخى المقام . فإن الرسول ربما وُجِّه إلى سخيف ودُفع إلى طائش فبدرت منه الكلمة البذيئة فيلحقه من الغضب والغيظ ما يتخوّن عزمه و يُضَعِّف رأيه . والغضب يهتك الحرمة ويدل على سوء المقدرة . و إذا هتكت الهيبة حقر الرسول فى الأعين وذلّت مكانته فى النفوس . وقد قيل : « هيهات أن ينال أحمق لا يحلم ما يرتجى أو يصل طيّاش لا يكظم غيظه إلى ما يريد . والرسول مع الحلم والكظم أخلق بالنجاح وأجدر ببلوغ المراد » .

وللتأنى المحل الأول بين صفات السفير لأنه إذا لم يكن متأنيا مكينا من عقله فمنى بالملك الحازم المخمّر رأيه الذى لا يُمضى إلا الرأى المتعقّب المنقّح لم يخل من أن يهجم به القلق والعجلة على إحدى خلتين « إما أن ينقاد إلى مؤاتاة من أرسل إليه و إما أن يعود بأمر لم ينفصل ورأى لم ينبرم » .

وقد أشاروا إلى ضرورة وجود الحزم عنده ، لأن الحزم ساعة الحزم مفتاح الفوز ، وهو بطبيعته حذر من التوانى ، و بعد عن التهاون ، وهاتان خلتان تفسدان الأمور وتقودان إلى الهلاك .

وقد شرطوا أن يكون الرسول أمينا لئلا يخون مرسله . فكم من رسول برقت له بارقة طمع من جهة من أرسل إليه ، فحفظ جانبه وترك جانب من أرسله (الفخرى ٨٣) كرسول معاوية إلى ملك الروم الذى أطمعه بالمال فخان (ص ٨٤) ورسول طغرلبك الذى أرسل ليخطب له امرأة فخطبها لنفسه (٨٦٠) . ولذلك قالوا : يجب أن يعطى من المال قبل إيفاده ما يريد لئلا يشره أو يحتاج فيطلب .

والرسول بعد ذلك يحتاج إلى ترك الإفراط فى الانقباض والحشمة ، لأن الانقباض يوجب الوحشة والانبساط يوجب المؤانسة ، والمؤانسة تجمع القلوب . وهذه صفات أولى أن تكون بمن رسّل برسالته و إن لم تكن فيه ، فلا بدّ من التظاهر بها لئلا تكون الوحشة سبيلا إلى النفور و يكون النفور سبيلا إلى الفشل .

وله أن « يؤثر الصدق على غيره » لأن الصدق يورث الثقة والثقة تمهد للإجابة . وأن يدمج المعنى الغليظ فى الألفاظ اللينة . وقد سمح له أن يكون فى محاوراته محتالا وأن يحفظ ما يتبلّغ ليؤديه على وجهه .

وقد فطنوا إلى أمرين لهما شأن كبير : الأول أنهم حذّروا السفير أو الرسول إذا بلغ أرض المرسل إليه من شرب الخمر والإفراط فيه ، لأن الخمر تفضح شاربها فى أغلب الأحايين وتطلع على ما فى نفسه من الأسرار ، وألا يميل إلى النساء ، لأن للنساء حيلا بارعات يستخرجن بها الأخبار . وقد كان الفرس والهند يلجئون إلى النساء لاستخراج ذلك[1]

والأمر الثانى أنهم أوصوه أن لا يتدخل فى شؤون المرسل إليه وأمور مملكته . وأن لا يحرّش الملك على الرعية . لأن الرسول على قول الملك الظاهر برقوق ينبغى أن يكون أعمى أخرس غزير العقل ثقيل الرأس . وفى هذا الأمر الثانى نصف واجبات الممثل الدبلوماسى التى رأيناها فى القسم الأول .

---

(١) رسل الملوك الباب الرابع عشر .

(ح) ثقافة السفير :

على أن الصفات الجسمية والخلقية لا تضمن وحدها بلوغ المراد إذا لم يضف إليها ثقافة وخبرة . وقد شرطوا أنه لا بدَّ للسفير أن يكون ذا ثقافة عامة شاملة ليستبصر بها فيما يأتيه ويذره ويأمن الزلل فى قضاياه وأحكامه ويقوى بها فى محاوراته ومحادثاته . وواضح أنه لا يطلب منه التدقيق فى تحصيل كل علم ، إنما الهدف أن يكون له أنس بكل علم بحيث يمكنه أن يتكلم به إذا ما اضطر إليه .

لذلك قالوا : « ينبغى أن يجمع الفرائض والسنن والأحكام والسير ليحتذى مثال من سلف فيما يورده ويصدره ، وأن يعلم أصول الخراج والحسبانات وسائر الأعمال ليناظر كلا بحسب ما يراه من صوابه وخطئه .

وعلى الجملة فقد كان يطلب منه الثقافة العامة المعروفة فى تلك الأيام . فهنالك الأمور الدينية كالفرائض والسنن وأحكام القرآن . وهناك الأدب وما إليه من رواية الأشعار وما يتبعه من جودة البيان . وهناك أصول الخراج والحسبانات . ثم السير والتواريخ ليحتذى مثال من سلف فيما يعمله من الأعمال . . . .

وفى العصور المتأخرة زمن المماليك لجأوا إلى إرسال ثلاثة نفر معاً عند نقصان شرط من الشروط فى رجل من الرجال . فكانوا يرسلون ثلاثة رسل معا أحدهم صاحب سيف والآخر من أهل الشريعة والثالث من الكتَّاب . فصاحب الشريعة يقرّر ما يسوغ فيها ويدفع ما لا يسوغ . وصاحب السيف يرتب ما لا مضرَّة فيه على الملك وجنده . والكاتب يحفظ قوانين السياسة ورسوم المكاتبات وآداب المخاطبات . وهذه طريقة تتبع فى أيامنا هذه فى المفاوضات والمعاهدات .

النسب :

وقد لاحظ العرب كما لاحظ الغربيون بعدهم ما للنسب من أثر ففضّلوا السفير ذا المحتد الكريم والأصل النبيل على غيره . يقول ابن الفرّاء : « وليكن من أهل الشرف والبيوتات » وقد ذهب الغربيون فى تفضيلهم الشريف على غيره إلى أنه ينال من القبول لدى المرسل إليه

ما لا يناله الوضيع . ولـكن العرب كانوا فى تعليلهم أعمق وأدق . فقد قالوا : « فإنه لا بدّ مقتف آثار أوليته محبب لمناقبها مساو لأهله فيها » لأن النبيل لا يصدر عنه إلا العمل النبيل ولا يجرؤ على ما يجرؤ عليه السافل الوضيع . وهذا يقتبس من أهله حسب قانون الوراثة Atavisme كل ما عندهم من النبل والسمو وكرم الخلق . ونظرة العرب فى هذا الشأن أحكم وأدق من نظرة الغرب . فالغرب يفضل السفير النبيل بنزعة أرستوقراطيته التى ترضى الارستوقراطيين . فهنا فـكرة الطبقات تظهر . أما العرب ففضلوا السفير النبيل لأنه ينبل فيما يفعل ، ولأنهم محتاجون إلى من يبرع فى السفارة و يسمو ولا تجد مثل هذا إلا فيمن حسن منبته و كرم عنصره .

فهذه لمح عن الصفات التى ينبغى أن تتوفر فى الرسول والسفير . وأنا أحيل القارئ إلى كتاب ابن الفراء : « رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة » الذى حققته . فإن فيه تفصيلات كثيرة عن هذا الموضوع .

الفصل الثالث

الباب الأول

استقبال السـفراء

كان الخلفاء والملوك والسلاطين فى الإسلام يتلقون الرسل والسفراء الواردين بالتكرمة وأحسن القبول ، فيحتفلون بقدومهم و يبالغون فى حفاوتهم و يتعهدونهم بالرعاية والإكرام . وقد حفظ لنا التاريخ من ألوان العناية باستقبال السفارات الواردة ما يعجب و يطرب ؛ فما شئت من زينة تقام و إجلال و إكرام وعدد وعدد وخدم وحشم وذهب وفضّة و يواقيت وجواهر ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والعظمة .

ونلاحظ أن هذه المبالغة فى الاحتفال كانت ترمى إلى هدفين .

الأول : إكرام الرسل لأن الرسل إنما يتكلّمون باسم من أوفدهم و يحملون كلامه و يبدون رغباته . فإذا أُكرموا فكأنما أُكرِم الملك المرسِل نفسه . وكلما زادت العناية بهم دلّ ذلك على مبلغ مكانة المرسل فى نفس المرسل إليه . وعلو منزلته لديه .

والأمر الثانى وهو فى الحقيقة ما كانت الملوك تتعمده وتقصد إليه وتسعى نحوه . فقد كانت تريد إظهار عظمتها و بذخها وقوتها لتوقع الرهبة فى نفوس الوافدين عليها فيقصّون على ملوكهم ما شاهدوه وما سمعوه . فتعظم مكانتهم لديهم و يحذرون بطشهم وسطوتهم .

ولعل هذه العادة عادة إظهار البذخ والقوة والعظمة من أقدم العادات التى درج عليها الملوك . ذكروا أن رسول سعد بن أبى وقاص لما دخل على كسرى استعدّ له وأظهر زينته وجلس على سرير من الذهب و بسط البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب أيضاً[1] وفى زمن الأمويين عند ما ورد أحد رسل الفرس على هشام بن عبد الملك أعدّ له وحشد[2] أيضاً .

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢) رسل الملوك . الباب السابع .

وازدادت مراسم الإكرام والإجلال فى الاستقبال منذ العصر العباسى . فقد كان العمال إذا رأوا سفيرا أو رسولا لم يتعرّضوا له . لأن الملوك كانت لا تعلم من الوافد عليها بل يسألونه عن اسمِه والمكانِ الذى أتى منه وهدفِ رسالته وعددِ حاشيته من الفرسان والمشاة وما فى أحماله من المتاع ثم يرسلون فارساً يعلم الخليفة بالأمر[١] .

وعندئذ يبدأ السفير وحاشيته بملاقاة الاحترام والإعظام « فيقدّم لهم العمال ما يريدون وينزلونهم فى مساكن تليق بهم ويجرى عليهم من النفقات والأطعمة ما يرغد به مقامهم . ويُصحبون بالخفراء والأدلاء يسيرون معهم ويهدونهم الطرق والمسالك ، ومايزالون يسلمون من عامل إلى عامل حتى يبلغوا دار الخلافة »[٢] .

وكانت الحزمة من الملوك تجهز جماعة من الجيش مع أكبر الأمراء يخرجون لاستقبال السفراء ويحيطون بهم ويرتبون لهم المراكب والإقامات وجميع ما يحتاجون إليه[٣] .

ولما وفد رسول ملك الروم على المقتدر أرسل من يستقبله من تكريت[٤] . وعند ما وصل رسول ملك الفرنج إلى الملك الكامل أرسل من يتلقّاه بالإقامات من الإسكندرية إلى القاهرة ثم خرج فتلقاه بنفسه بالقرب من القاهرة[٥] .

وقد يخرج للقاء الرسول قائد من القوّاد كما فعل الملك المعز عند ما استقبل رسول الخليفة المستعصم بالله الوافد من بغداد[٦] ، أو قاض من القضاة كما فعل الملك نفسه عند ما استقبل الرسول نفسه . فى قدمة قبل هذه[٧] .

وكان الخلفاء العباسيون فى أواخر أيام دولتهم يأمرون فيخرج موكب عظيم من الناس لاستقبال الرسول . فقد قدم مرة رسول الملك العادل على الخليفة فتقدم إلى الناس بالخروج لتلقيه ، فخرج وجوه الناس من الولاة والفقهاء والصوفية ، وخرج الموكب الشريف الديوانى وفى صدره النقيب الطاهر أبو الحسين بن المختار[٨] .

---

(١) سياسة نامه لنظام الملك . الترجمة الفرنسية ص ١٢٨ .
(٢) آثار الأول فى ترتيب الدول ص ١١٠ .
(٣) آثار الأول فى ترتيب الدول ص ١١١ .
(٤) تاريخ بغداد ١/١٠١ .
(٥) السلوك للمقريزى سنة ٦٢٤ .
(٦) السلوك للمقريزى ١/ق٢/٣٩٨ .
(٧) السلوك للمقريزى ١/٢/٣٨٣ .
(٨) الجامع المختصر لابن الساعى ص ٢٥٩ .

وفى بعض الأحايين كان يتصدر الموكب حاجب الحجاب بدلا من نقيب الأشراف(١) وهنا لا بد من ملاحظة أمر . هو أن بعض الملوك كانوا لا يُعلمون أحدا بقدوم الرسول إذا قدم عليهم حتى يصل إلى البلاط . وقد يجهدون لإخفاء أمره تماما فلا يعلم به أحد . يقول نظام الملك : « وعند ما يرد السفراء من البلاد الأجنبية فلا ينبغى أن يعلم أحد بأمرهم حتى يبلغوا دار الخلافة . ويجب أن لا يصاحبهم أحد من العامة أو يقدم لهم الأخبار(٢) » وهذا ما كان يفعله الخلفاء الفاطميّون ، فقد كانوا يسلمون أمر الرسل إلى نائب صاحب الباب فيستقبلهم ويطوف بهم ويمنع اجتماع الناس بهم أو الاطلاع على ما جاءوا فيه أو نقل الأخبار إليهم(٣) .

ونحن نجد هذه الظاهرة نفسها عند النوريين والأيوبيين . فقد ذكر المقريزى «أن رسول أحمد أغا سلطان عند ما قدم حلب مارا بها أخذه أميرها وأدخله دمشق من غير أن يمكن أحدا من الاجتماع به أو رؤيته »(٤) .

وواضح أن السبب فى ذلك هو الحيلولة دون تجسس الرسل واستقصاء الأخبار عن الدولة والخليفة والعوام .

فإذا بلغوا دار الملك أنزلوا فى دار تعيّن لهم . وقد كانوا ينزلون فى بغداد فى دار صاعد(٥) وكانت بمثابة دار للضيافة . وفى أواخر أيام العباسيين كانوا يعطون دارا يسكنون بها(٦) أو ينزلون فى مدرسة من المدارس(٧) . أما فى دمشق فكانوا ينزلون دار الضيافة . وكذلك فى القاهرة(٨) . وفى زمن الأيوبيين أرصدت دار الوزارة وهى الدار التى كان يسكنها الوزراء فى عهد الفاطميين لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة والرسل الواردين من الملوك(٩) أو ينزلون بالميدان(١٠) . ولما وردت رسل الملك طقطاى إلى القاهرة سنة ٧٠٤ أنزلوا بمناظر الكبش(١١)

وتستريح الرسل عند قدومها يوما أو أياما ثم تلتمس مقابلة الخليفة . وقد كان خلفاء بغداد

---

(١) الجامع المختصر لابن الساعى ص ٢٨٨ .
(٢) سياسة نامه ص ١٢٨ .
(٣) خطط المقريزى ١/٤٠٣
(٤) السلوك للمقريزى ١/ق ٣/٧١٧ .
(٥) تجارب الأمم لمسكويه ج ٥/٥٣ .
(٦) تاريخ ابن الساعى ص ٢٨٤ .
(٧) تاريخ ابن الساعى ص ٢٦٢ .
(٨) انباء الغمر فى أبناء العمر للعسقلانى ورقة ٥٣ — ب .
(٩) المقريزى ١/٤٣٨ و ٤٦١ (الخطط) .
(١٠) السلوك ج ٢ ص ٩ .
(١١) السلوك ٢/٧ .

و بعض سلاطين مصر لا يوصلون الرسل إليهم إلا بعد مقابلة الوزير . وهـذا شبيه بمقابلة السفراء وزراء الشؤون الخارجية فى أيامنا . ويذكر لنا ابن مسكويه أن رسل الروم لما وردت على المقتدر أنزلت دار صاعد والتمست الوصول إلى المقتدر بالله لتبليغه الرسالة . فأعلمت أن ذلك متعذر صعب لا يجوز إلاّ بعد لقاء وزيره ومخاطبته فيما قصدا إليه وتقرير الأمر معه والرغبة إليـه فى تسهيل الإذن على الخليفة . فسأل أبو عمر عدى الترجمان الوارد معهما من الثغر الوزير ابن الفرات الإذن لهم فى الوصول إليه . فوعده بذلك فى يوم ذكره له[(١)] .

وعند ما أتت رسل الفرنج إلى الخليفة العاضد الفاطمى قصدت أولا وزيره شاور فضرب لهم موعداً قادهم فيه إلى الخليفة[(٢)] .

وقد وصف لنا ابن مسكويه فى تاريخه كيف قابل رسل الروم الوزير ابن الفرات وصفاً رائعاً ملؤه الروعة يبين ما رافقه من الأبهة والبذخ والجمال . فقـد وعد الوزير أن يستقبل الرسل فى يوم ذكره لهم ، وفى ذلك اليوم تقدم أن يكون الجيش مصطفا من دار صاعد التى أنزل الرسل بها إلى داره . وأن يكون غلمانه وخلفاء الحجاب المرسومين بداره منتظمين من باب الدار إلى موضع مجلسه . و بسط للوزير فى مجلس عظيم مذهب السقوف بالفرش الفاخر العجيب . وعلقت الستور التى تشـبه الفرش ولم يبق شىء تجمل به الدار و يفخم به الأمر إلاّ فعل . وجلس الوزير على مصلى عظيم من ورائه مسند عال وعن يمينه وشماله القوّاد والأولياء . ثم دخل الرسولان فشاهدا من بهاء المجلس والفرش منظراً عجيباً . وكان معهما الترجمان وحضر نزار بن محمد صاحب الشرطة فى جميع رجاله وأقاموا بين يدى الوزير فسلّما وترجم لهما الترجمان ورغبا إليه فى إيقاع الفداء ومسألة المقتدر الإجابة إليه . فأعلمهما أنه يحتاج إلى مخاطبة المقتدر بالله فى ذلك ثم العمل فى ما يرسمه ثم عادا إلى دار صاعد[(٣)] .

و إذا لم يكن الوزير فنائبه . فقد صادف أن رسول الملك العادل قدم بغداد سنة ٦٠٥ ولم يكن هناك وزير ، فضرب نائب الوزارة موعدا لرؤية الرسول فحضر إليه . وعنده أرباب المناصب وأدى الرسالة وسأله قبول ذلك ، فـكتب نائب الوزارة الإنهاء إلى الخليفة فبرز الجواب بقبوله[(٤)] .

---

(١) تجارب الأمم ٥/٥٣ .
(٢) صلاح الدين وعصره ص ٥٣ .
(٣) تجارب الأمم ٥/٥٤ .
(٤) ابن الساعى ٢٦٠ .

وبعد مقابلة الوزير أو نائبه تعيّن يوم لمقابلة الخليفة .

وقد يقابل الرسول الوزير من غير إجراء المراسم ، بل قد يدخل عليه فى داره وهو فى خواصّ أموره ، هذا إذا كان ما معه مهماً . حدّث إبراهيم الصابئ أنه كان فى مجلس الوزير المهلّبى وهو فى مجلس أنســه مع خلفائه وكُتّابه وقد أخذ الشراب من الجماعة وزاد بهم على حدّ النشوة ، إذ حضر رسول الأمير معزّ الدولة يذكر أن معه مهما . فأدخله الوزير وكان هذا المهم أن يكتب المهلبى إلى محمد بن إلياس صاحب كرمان يخطب فيه ابنته لبختيار[١] .

وأنت تلاحظ أن هذه المراسم تشبه الشبه القريب المراسم المتبعة فى أيامنا هذه لدى دول الشرق والغرب .

وسنسوق إليك ثلاثة أوصاف لاستقبالات جرت ومقابلات للخليفة وقعت : الأول فى بغداد زمن المقتدر ، والثانى فى قرطبة زمن عبد الرحمن ، والثالث فى القاهرة زمن العاضد .

١ — فى بغداد :

ويذكر لنا الخطيب البغدادى وصف حفلة الاستقبال ومقابلة رسل الروم الخليفة المقتدر فيقول : إن المقتدر أمر بحبس رسل ملك الروم فى تكريت حتى فرغ من تزيين قصره وترتيب آلته فيه . ثم صف العسكر من دار صاعد التى أنزلوا فيها إلى دار الخلافة . وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل . فسارت الرسل بينهم إلى أن بلغوا الدار . وكانوا يطأون على الفرش والبسط . وكانت أسواق الجانب الشرقى وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة وفى دجلة الشذاآت والطيارات والزبازب والسميريات والزلالات بأفضل زينة إلى الدار . وكانت الدار قد امتلأت بالفرش الجميلة وزينت بالآلات الجليلة ورتّب الحجاب وخلفاؤهم والحواشى على طبقاتهم صفّين بالثياب الحســنة تحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، بين أيديهم النجائب على مثل هذه الصورة ، وقد أظهروا العدد الكثيرة والأسلحة المختلفة ، فكانوا من أعلى باب الشماسية وإلى قريب من دار الخلافة وبعدهم الغلمان بالبزّة والسيوف والمناطق المحلّاة . ودخل الرسول فرأى الحاجب فظنّ أنه الخليفة وتداخله له هيبة وروعة حتى قيل إنه الحاجب ، ودخل بعد ذلك الدار التى كانت برسم الوزير ابن الفرات

---

(١) معجم الأدباء ٢/٦٠ .

فرأى أكثر مارآه لنصر الحاجب ولم يشك أنه الخليفة ، فقيل له إنه الوزير . ثم أجلس بين دجلة والبساتين فى مجلس حسن ، ثم استدعى إلى حضرة المقتدر وهو جالس فى قصر التاج بعد أن لبس الثياب الديبقية المطرَّزة بالذهب على سرير من آبنوس قد فرش بالدبيقى المذهب وعلى رأسه الطويلة ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة . ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غلب ضوؤها على ضوء النهار ، و بين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان يسرة . فقبَّل الرسولُ وترجمانُه الأرض بين يدى المقتدر . فوقفا حيث استوقفهما وأديا إليه رسالة صاحبهما فى الفداء ورغبا إليه فى إيقاعه ، فأجابهما الوزير إنه يفعل ذلك رحمة بالمسلمين . ثم خرجا من حضرته ورسم لهما أن يطاف بهما فى دار الخلافة .

وكانت الدار مملوءة من الخدم والغلمان السودان والحجاب . وكان عدد الخدم سبعة آلاف : أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ، وسبعمائة حاجب وأربعة آلاف غلام أسود . وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل بخزائن العرائس . وقد علقت الستور ونظم جوهر الخلافة على درج غشيت بالديباج الأسود . ثم دخل دار الشجرة فكثر تعجبه منها وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده .

وكان عدد ما علّق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والستور الصنعانية والأرمنية والواسطية . . . والسواذج والمنقوشة والدبيقية ثمانية وثلاثين ألف ستر .

وكان الرسول أدخل من دهليز باب العامة إلى الدار المعروفة بخان الخيل وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع ، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزّة الجميلة .

ثم أدخل حير الوحش . وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتشمهم وتأكل من أيديهم ، ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، ثم إلى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل

سبع منها فى يد سبّاع وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد . ثم أخرجوا إلى الجوسق . وهى دار بين بساتين فى وسطها بركة رصاص طولها ثلاثون ذراعا فى عشرين فيها أربعة طيّارات أغشيتها دبيقى مذهب ، وحوالى البركة بستان بميادين فيه أربعمائة نخلة طول كل نخلة خمسة أذرع قد لبست ساجا منقوشا من أصلها إلى حد الجمارة بحلق من شبه مذهب وفى البستان أترج ودستنبو .

وفى هذا الطواف رأى الرسول دار الشجرة . وهى شجره ذات ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها شاخات عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجر فضة وبعضها ذهب . وهى تتمايل فى أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كلما تحركت الريح ، كما تحرك الريح ورق الشجر والطيور تصفر وتهدر . وفى جانب الدار يمنة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره . وفى أيديهم مطارد الرماح .

ثم أدخل إلى القصر المعروف بالفردوس . وهو قصر مملوء بالسلاح من الخوذ والدروع والقسى والجعب

وكان الخدم يسقون الناس بالماء المبرّد بالثلج والأشربة .

وكان يطوف مع الرسول وأتباعه عدى بن أحمد رئيس الثغور الشامية وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة ، والأسود هو اللباس الرسمى فى الدولة العباسية[١] الذى كان يرتديه الرسل والسفراء إذا رُسِّلوا برسالة أو سفروا بين الملوك[٢] .

٢ — فى قرطبة :

فى صفر سنة ثمان وثلاثين على قول المقرى أو سنة ست وثلاثين على قول ابن خلدون وردت رسل قسطنطين بن ليون ملك الروم إلى عبد الرحمن الناصر . فتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج إلى لقائهم ببجاية يحيى ابن محمد الليث أحد القوّاد وغيره لخدمة أسباب الطريق . فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبئة ، فتلقوهم قائداً بعد قائد ، وكمل

(١) انظر تاريخ بغداد ص ١٠٢ — ١٠٥ . (٣) الطبرى ج ٣/ III / ص ١٤٤٩ .

اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصبيين ياسراً وتماما إبلاغا فى الاحتفال بهم فلقياهم بعد القوّاد . فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه ، لأن الفتيين حينئذ هما عظماء الدولة لأنهما أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه و بيدهم القصر السلطانى ، وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ومن ملابسة الناس طرًّا .

وقعد الناصر لهم فى قصر قرطبة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فى بهو المجلس الزاهر قعوداً حسنا نبيلا . وقعد عن يمينه ولىّ العهد من بنيه الحكم ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان . وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان وتخلَّف عبد الملك لأنه كان عليلا . وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء . وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الطنافس وظلِّلت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور .

فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم وسيمر بك وصفه . وكان الناصر أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته ، فقام الفقيه محمد ابن عبد البر ليتكلَّم فهاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظة ، بل غشى عليه وسقط إلى الأرض . فقيل لأبى على البغدادى صاحب النوادر والأمالى قم فارقع هذا الوهى ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم انقطع به القول فوقف ساكتا مفكراً . عندئذ قام منذر بن سعيد أحد الفقهاء فوصل افتتاح القالى بكلام عجيب وذكر قوة الخلافة وعظمتها وقوتها وعزّتها . فصلّب العلج وغلب على قلبه وقال هذا كبير القوم . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه و بلاغة لسانه ، وبالغ المنصور فى إكرام الرسل ، ثم انصرف هؤلاء و بعث معهم وزيره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليوكد المودة ويحسن الإجابة[1] .

٣ — فى القاهرة :

ذكر المقريزى أن رسول ملك الروم كان إذا وفد على الخليفة فى القاهرة نزل من باب

(١) نفح الطيب للمقرى ١٧٨/٣ — ١٩٠ .

الفتوح وقبل الأرض وهو ماش إلى أن يصل إلى القصر . وما ندرى إن كان رسل الفرنجة يتبعون هذه الطريقة(١) .

ويبدو أن النزول فى باب الفتوح لم يكن بدا للرسل جميعاً . وإنما الذى كان لا بد منه هو استدعاؤهم لتقبيل الأرض ، سواء أكانوا فرنجة أم روماً أم مسلمين . وقد ذكر صاحب الخطط أنه فى سنة ٥١٧ وصلت رسل طغدكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب بكتب إلى الخليفة الآمر بأحكام الله فاستدعوا لتقبيل الأرض كما جرت العادة فى إظهار التجمل(٢) .

ويصف لنا المؤرخون الفرنج استقبالاً جرى فى القاهرة لرسل من الفرنجة بعثهم الملك آمورى إلى الملك العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وهو وصف يعجبك بما فيه من تفنن وروعة وبهاء .

يقول شلومبرجة نقلا عن رئيس أساقفة صور فى الحروب الصليبية الذى وصف الاستقبال: « وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور إلى قصر له رونق وبهجة ، وفيه زخارف أنيقة نضيرة . وكان الرسل قد أثّر فيهم ما يحيط بهم كل التأثير دون أن يدب فى نفوسهم رعب أو خوف . وكان القصر مملوءا بالحرس . وسار نفر منهم فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . يقودون الفرنج فى ممرات طويلة ضيقة وأقبية مظلمة حالكة لا يستطيع الإنسان أن يتبين شيئاً فيها . وربما كان القصد بعث الهيبة فى قلوبهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا يقفون عند اقتراب شاور ويحيّونه باحترام . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات عمد أرضه من الرخام المختلف الألوان . وكانت ألواح السقف مزدانة بزخارف مذهبة جميلة .

وكان ذلك كله مونقا رائعاً بهيا رائقاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالاً وأكثرهم هماً من الوقوف والإعجاب . وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكان فى الفناء طيور جميلة شتى ذات ألوان نادرة جلبت من أطراف الشرق . وكان كل من رآها يحار ويدهش ويعجب بها .

---

(١) خطط المقريزى ١٠٧/٢ (٢) المصدر السابق ٤٨٢/١

واستأذن الحراس فى الرجوع وحـل محلهم بعض العظماء من الأمراء والمقربين إلى الخليفة نفسه .

سار الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية جديدة أشد جمالا و إبداعا ثم نفذوا إلى حديقة لطيفة غناء رأوا فيها أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع ، هى من الغرابة بحيث لو وصفها واصف اتهم بالـكذب . وبحيث لا يستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هـذه المخلوقات العجيبة . فإن الغرب لم ير قط هذه الحيوانات . و بعد أن عبروا أبوابا عديدة وساروا فى تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة و إعجابا وصل الفرنج إلى القصر الـكبير حيث يقطن الخليفة وكانت أفنية القصر تفيض بالمحاربين الميامين متقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضـة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من كنوز . وأدخل الرسولان فى قاعة واسعة تقسمها قسمين ستارة كبيرة صنعت من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان ، وعليها رسوم الحيوان والطيور و بعض صور آدمية ، وكانت تلمع بما عليها من الزمرد والياقوت والأحجار النفيسة . ولم يكن فى القاعة أحد . لـكن شاور خرّ راكعاً فور دخوله ثم نهض واقفاً ثم قبّل الأرض ثانية وخلع السيف الذى كان فى عنقه ثم خرّ ساجداً مرة ثالثة فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية المذهبة بسرعة البرق عن الخليفة فبدا جالساً على عرشه المصنوع من الذهب المرصّع بالجواهر والأحجار الـكريمة[(١)] .

ويتم لين بول وصف المقابلة فيقول :

«فتقدّم الوزير شاور إليه بخشوع وقدم إليه الرسولين الفارسين حاكم قيصرية وجوفروا فارس المعبد . و بيّن بصوت منخفض ما كانت فيه البلاد من الخطر وما كان من شأن صداقة بيت المقدس له . وكان الخليفة شابا أسمر اللون قد خطا خطوات خارجا من عهد الصبا فقال إنه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولـكنه تردّد أن يمد يده

---

(١) G. Schlumberger, Campagne du Roi Amoury Ier : de Jerusalem en Egypte au XIIe. pp. 118—126.

وانظر أيضاً كتاب كنوز الفاطميين ص ٧١ — ٧٦ .

ونذكر هنا أن الأيوبيين والمماليك كانوا يجلسون على سرير الملك يوم قدوم الرسل عليهم . وهو منبر من رخام يكون بصدر الإيوان وعلى هيئة المنابر فى الجوامع (القلقشندى ٦/٤)

عندما طلب الرسول منه أن يمدّ يده دليلا على صدق عهده . وقد غضبت حاشيته من ذلك الرسول ، غير أن الخليفة مدّ يده بعد قليل إلى السر هيوم فوجد هذا عليها قفازاً . فقال : يا مولاى إن الحق لا غطاء له . وكل شيء ظاهر فى عهود الأمراء . فتبسم الملك برغمه وخلع قفازه كارها . ثم مد يده إلى هيوم وحلف اليمين على إنفاذ المعاهدة بصدق و إخلاص .

وهذه المعاهدة أبرمت برأى من شاور وحلف الخليفة على إعطاء الفرنجة مائتى ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة لمساعدتهم إياه على شيركوه (١) .

***

فهذى صور ثلاث لاستقبالات رائعة جرت للرسل الفرنج عند ورودهم إلى ملوك المسلمين وخلفائهم . وقد افتن الغربيون فى تصوير هذه المقابلات فى ألواح فنية رائعة ، منها لوح محفوظ فى اللوفر بباريس يرى فيه السلطان الغورى يستقبل سفير البندقية . وقد كان هذا اللوح الفنى ضمن ألواح لويس الرابع عشر ، طوله ١١٨ سم وعرضه ٢٠٣ سم . وينسب إلى مدرسة المصور الإيطالى بلينى (١٤٢٩ — ١٥٠٧) ويمثل الغورى يستقبل فى قلعة القاهرة سنة ١٥١٢ دومينيكو ترفيزيانو Dominico Trevisano سفير البندقية ، ويظهر السلطان على دكة وقد جلس بجانبه اثنان من كبار الدولة ووقف كثيرون من قواد الجيش والسفير وأتباعه أمامه (٢) .

وقد أخبرنى المستشرق سوفاجه ذو الاختصاص بالآثار السورية الإسلامية أن هذا الاستقبال لم يكن فى مصر و إنما كان فى دمشق بدليل أن المآذن التى تبدو فى الصورة وقبة النسر هى مآذن وقبة المسجد الأموى .

ولعلك تلاحظ بعد ذلك مبلغ عناية الملوك بالرسل واحتفالهم باستقبالهم . وقد كان الغربيون يفعلون شبه ذلك فى القرون الخالية . على أن هذه الاحتفالات ما زالت إلى أيامنا . ولا يمكننا أن ننتقل إلى فصل آخر دون أن نذكر أن الخلفاء العباسيين كانوا يضعون كل عام مبلغاً كبيرا من المال يوقف على الحوادث والملمات والرسل الواردين والفداء (٣) . وكذلك كان ملوك

(١) صلاح الدين وعصره ص ٥٣ — ٥٤

(٢) La Peinture au Musée du Louvre (Ecoles Etrangères) p. 86, 89 pl no 87
وانظر مجلة الثقافة العدد ١٤ من السنة الأولى أبريل سنة ١٩٣٩ .

(٣) تاريخ الأمراء والوزراء للصابى ص ٢٢

الفاطميين يرصدون مبالغ باسم الرسل والضيوف ومن يصل مستأمنا[١] . وفى أيامهم كان نائب صاحب الباب يتلقى الرسل الواصلة من الدول يحفظهم وينزلهم بالأماكن المعدّة لهم ويقدمهم للسلام على الوزير والخليفة . ويتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم[٢] . وفى زمن الأيوبيين والمماليك فكانوا يجعلون رجلا يقوم باستقبال الرسل الواردين وتفقد شؤونهم والعناية بهم[٣] اسمه المهمندار وهذا لفظ فارسى يطلق على من يتصدّى لتلقى الرسل الواردين على السلطان فينزلهم دار الضيافة ويقوم بأمورهم[٤] .

وقد ذكروا أن عليه أن يعتمد مصلحة الإسلام ويرهب القصاد ويوهمهم قوّة المسلمين وشدّة بأسهم وعظيم سطوتهم واتفاق كلمتهم وقيامهم فى حوازة الدين وذبهم عن حريم الملة وحفظ النظام ، وأن ينهى أمور القصاد إلى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة ، وأن يبادر إلى إكرام الرسل أو الكف عن إعظامهم بحسب ما تقتضيه الحال ، لأن من الحق على الملك ونوّابه الاحتفال عند حضور قصّاد الملوك وإظهار القوّة وحسن الملبس وكثرة الجيش واستعدادهم على الوجه الشرعى[٥] .

التوديع :

ويجدر بنا أن نذكر قبل أن ننتقل إلى باب آخر أن الرسل كانوا يودّعون بكثير من الحفاوة ، وقد يعقد لهم احتفال يشبه احتفال استقبالهم ، وقد يقابلون الخليفة أو الوزير قبل ذهابهم . فقد ذكر الوزير أبو شجاع صفة لقاء ورد رسول الروم لصمصام الدولة بعد ما أفرج عنه وقبل سفره لوداعه قال : كان الوقت شتاء والدار ومجالسها مملوءة بالفرش الجليلة وستور الديباج معلقة على أبوابها وغلمان الخيل بالبزة الحسنة والأقبية الملوّنة فوق سماطين بين يدى سدته وكانت قد نصبت فى السدلى الذهب الذى لقح إلى البستان . وعبر ورد وأخوه وابنه فى زبزب أنفذ إليهم وأخذوا يمشون بين السماطين إلى حضرة صمصام الدولة . وبحضرته

---

(١) خطط المقريزى ١/٣٩٩ (٢) خطط المقريزى ١/٤٠٣

(٣) السلوك للمقريزى ج ١ — ق ٢ — ص ٦٣٧ .

(٤) صبح الأعشى ٥/٤٥٩ ، وانظر خطط المقريزى ١/٤٦١ .

(٥) معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى ص ٤٦ .

وانظر نقد الطالب لزغل المناصب لابن طولون (مخطوط فوطوغرافى فى خزانة المجمع العلمى بدمشق رقم ١٢ ورقة ٣١ آ) .

كوانين من ذهب موضوعة فيها قطع العود توقد . فلما قرب منه ورد طأطأ رأسه وقبل يده ، ووضع له كرسى ومخدة فجلس عليها ، وسأله صمصام الدولة عن خبره فدعا له وشكره بالرومية والترجمان يفسر عنه وله . وقال قولاً معناه قد تفضلت أيها الملك ما لا أستحقه وأودعت جميلا عند من لا يجهله . وأرجو أن يعين الله على طاعتك وتأدية حقوق فعلك . وقام ومشى الحجاب والأصحاب بين يديه عند مدخله وعبر من الزبزب إلى داره ورجع (١) .

وقد يشيع الخليفة الرسول بنفسه . كما فعل الملك الصالح مع ابن العديم رسول حلب سنة ٦٣٧ (٢) . فقد شيعه وأكرمه وزوّده برسالة .

الباب الثانى

الكتب وأوراق الاعتماد

الجواز

اتبع الملوك العرب سنة تحميل الرسول كتابا يعرّف به ويذكرون الغرض من رسالته ويطلبون اعتماده فى أقواله وأفعاله وأنه ثقة أمين .

وكانت هذه الكتب تقدّم إلى الخليفة أو السلطان يوم استقباله أمام الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة ، وهى تشبه الشبه الكبير أوراق الاعتماد التى يقدّمها فى أيامنا السفراء الغربيون إلى الملوك الذين أوفدوا إليهم . وكان يكتب هذه الكتب كاتب خاص .

وقد عثرنا على بضع وثائق تدل على ذلك نعرض عليك أنموذجات منها .

١ — فمن كتاب إيلخان غازان وهو فى دمشق إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القاهرة وفيه : « وقد سيّرنا حاملى هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين على خواجا والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونس وقد حملناهما كلاما يشافهانكم به فلتثقوا بما تقدّمنا به إليهما فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما ... » ثم ذكر بعض ما حملا من الرسالة (٣) .

٢ — ومن كتاب حمّله الحافظ لدين الله الفاطمى رسولا أرسله إلى صاحب صقلية جاء

---

(١) ابن الأثير ١٢٧/٧ . (٢) السلوك ج ١ — ق ٢ — ص ٢٩٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ١٠١٧ . وانظر النويرى فى نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٣٠ آ (مخطوط) والقلقشندى ٢٤٣/٧ وما بعدها .

فيه : «... وقد سيّر أمير المؤمنـين من أمراء دولته ووجوه المتقدمين بحضرته الأمير المؤتمن المنصور . خالصة أمير المؤمنين أبا منصور جعفراً الحافظى رسولا بهذه الإجابة لما هو معروف من سداده وموصوف من مستوفق قصده ومستصوب اعتماده وألقى إليه ما يذكره ويشرحه وعوّل عليه فيما يشافه به ويوضحه[١] ... » .

٣ — وأرسل الملك الناصر برقوق رسولا إلى أحد ملوك جنكيز خان ضمنه ما يلى :

« ... وقد اخترنا لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة المجلس العالى المقرّب الأمين . فلانا أعزه الله . وحملناه من السلام ... ليحكم بحسن السفارة[٢] ... »

ويلاحظ فى هذه الكتب أنها تتضمن اسم المرسل وصفته وفيها لفظ الاعتماد أو الثقة اللذين يطلبان من المرسل إليه .

وقد كان ملوك الفرنج يرسلون كتباً كهذه مع رسلهم وقد يعتمدون على تاجر من تجارهم فى أداء الرسالة . فقد ورد كتاب من ملك الروم صاحب قسطنطينية سنة ٨١٤ إلى الملك الناصر جاء فيه :

« ... وإن حامل هذا الكتاب المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمى سورمش التاجر فى اسطنبول هو من جهتنا وله عادة بالتردد إلى مملكتهم المعظمة ...[٣] » .

وكانت هذه الكتب تجمّل وتزيّن ويعنى بكتابتها شرقية كانت أم فرنجية . فقد أرسل ملك الروم كتابا إلى الراضى بالله فى بغداد مع رسله سنة ٣٢٦ هـ فكانت كتابته بالذهب بالرومية ، وترجمته بالفضة بالعربية. وكان مطلعه : «من رومانس وقسطنطين واسطانوس عظماء ملوك الروم إلى الشريف الجليل سلطان المسلمين . باسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد . الحمد له ذى الفضل العظيم الرؤوف بعباده الذى جعل الصلح أفضل الفضائل إذ هو محمود العاقبة فى السماء والأرض . لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء حمدنا الله ... و . . ثم طلبوا الهدنة والفداء ...[٤] » .

---

(١) صبح الأعشى ٤٦٣/٦ .

(٢) صبح الأعشى ٣٠١/٧ وانظر ما يشبه هذا فى المصدر نفسه ٣٣٠/٧ .

(٣) صبح الأعشى ١٢٢/٨ .

(٤) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٥ ص ٤٠٤

ويذكر صاحب الفهرست عرضاً فى باب حروف الهجاء عنـد اللاتين واليونان خبر كتاب أرسلته ملـكة الفرنك إلى المـكتفى فيقول ما نصّه : «وحروفهم تشبه حروف اليونان إلا أنها أحسن منها لأنها أكثر استواء ، فقد رأيناها أحيانا على سيوف الفرنك . وكتبت ملكة الفرنك كتابا إلى المـكتفى على حرير أبيض وأرسلته مع خادم قدم إلى أملا كها من العرب ...»[١] ويقول بارتولد إن هذه الملكة هى تيودورا امرأة تيوفلـكت قنصل الرومانيين التى كانت ترأس حكومة رومية فعلا[٢] . وعلى هذا يكون هذا الـكتاب الدبلوماسى نسيج وحده لأنه لم يعرف كتب[٣] دبلوماسية فى ذلك الوقت جعلت على الحرير[٤] .

ويذكر المقريزى أن رسـل ملك الروم الملك بركة قدمت سنة ٦٦١ إلى القاهرة على السلطان ، فأرسل السلطان رسله إليه وكتب جوابه فى سبعين ورقة بغدادية[٥] ، والورق البغدادى أجود أنواع الورق وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية ، وكان مخصوصاً بكتابة المصاحف ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الـكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك[٦] .

وفى نفح الطيب صفة كتاب قسطنطين ملك الروم إلى عبد الرحمن الناصر يقول المقرى إنه كان فى رق مصبوغا لونا سماويا مكتوبا بالذهب بالخط الإغريقى . وكان داخل الـكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضاً ، وفيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها ، وعلى الـكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل . على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الـكتاب داخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج . وكان فى ترجمة عنوان الـكتاب فى سطر منه : قسطنطين ورومانوس المؤمنان بالمسيح الملـكان العظيمان ملـكا الروم . وفى سطر آخر : إلى العظيم

(١) الفهرست ١/٢٠ ط أوربة .

(٢) رسالة من رومية إلى بغداد فى أوائل العصر العاشر للأستاذ بارتولد . المقتطف يونيو ١٩٣٢ (ج ١ م ٨١) ص ٤١ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٤) انظر أيضا C. Inostrancey, Note sur les rapports de Rome et du Califa Abasside au commencement du X siècle. —Devista degli studi orientale IV, 1911—1912,81—86

(٥) السلوك للمقريزى ج ١ — ق ٢ — ٤٩٨ . (٦) صبح الأعشى ٢/٤٧٦ .

الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس [١] .

وكان الرسل العرب بعيد أواخر القرن الرابع يحملون مع الكتب أوراق الجواز . وهى أوراق يكتب فيها اسم الرسول ولقبه وصفته والجهة التى يقصد إليها . وإن كان سيذهب ويعود أم سيذهب ولا يعود ، وتعرض هذه الأوراق على أشخاص معروفين فيرونها ويقابلون الرسول بالاحترام والإكرام .

وهاك صورة عنها :

« ورقة طريق على يد فلان بن فلان .

« رسم بالأمر الشريف العالى ... أن يمكن فلان الفلانى (يذكر إن كان أميرا أو متعمما كبيراً أو ممن له قدر أو له ألقاب معهودة) من التوجه إلى جهة قصده والعود . ويحمل على فرس واحد أو أكثر من خيل البريد من مركز إلى مركز على العادة . ويعامل بالإكرام والاحترام والرعاية الوافرة فليتعمد ذلك وليعمل بحسبه » .

وإن كان سيذهب ولا يعود كتب : « يمكن من العود إلى جهة قصده ... » .

وإن كان من مماليك النواب أو رسل أحد من أكابر البلاد ذكر به ما يليق به من الألقاب : فلان مملوك فلان أو رسول فلان [٢] .

ويلاحظ أن هذه الأوراق تحاكى جواز السفر الذى يحمله الدبلوماسى فى هذه الأيام ؛ فهى تتضمن اسم السفير وصفته والجهة التى يقصد إليها وإن كان سيعود منها أو سيبقى فيها . وهناك فرق واحد هو تضمن هذه الجوازات طلب الإكرام أو حمله على خيول البريد مما استغنى عنه فى المدنية الحديثة .

الباب الثالث

إكرام الرسل

رأيت أن استقبال الرسل كان يجرى بحفاوة يرافقها كثير من الجلال والعظمة ، ولعلك لاحظت ما فى تلك الاستقبالات من عناية بإظهار القوة تارة والغنى تارة أو البذخ مرة

---

(١) نفح الطيب ١٨٨/٣ .   (٢) صبح الأعشى ٢٣٢/٧ .

أخرى . على أن هذا الشق الأول من الإكرام كان فى الحقيقة ذا هدف يرجع إلى المكرم نفسه ، فهم يتخذون هذه الاستقبالات و يعمدون إلى ما يرافقها من إظهار العدد والعدد ونثر الأموال والجنوح إلى البذخ ليعلم هؤلاء الرسل الواردون أنهم بحضرة ملك قوى شديد غنى تهاب صولته وتخشى غضبته . أما الشق الثانى من الإكرام فكان يرجع على الرسل أنفسهم ، وأنت واجد ألوانا من ذلك . فتارة تراه فى الدعوات التى كان يقيمها الخلفاء أو الملوك للسفراء على نحو مما يجرى فى عصرنا ، وتارة بالكسى أو الحملان . وقد كان الرسل يكرمون منذ أبعد الأزمان . ولما ورد رسول قيصر على رسول الله قال له : إنك رسول قوم و إن لك حقا، ولكن جئتنا ونحن مرملون . فقال عثمان بن عفان : أنا أكسوه حلة صفورية . وقال رجل من الأنصار : على ضيافته[1] .

وقد كان إكرام الرسل يظهر فى الاستقبال والدعوات التى تقام لهم ؛ من ذلك أنه فى سنة ٦٦١ قدم رسول ملك الروم إلى القاهرة ، وكان فيها رسول أهل جنوة ورسل صاحب الروم السلاجقة ، فأحسن السلطان إليهم وعمل لهم دعوة بأراضى اللوق[2] ، واللوق كانت بساتين نزهة يجرى بجانبها النيل . وكذلك فعل الملك الظاهر سنة ٧٦١ لما قدمت رسل الملك بركة ورسل الأشكرى ، فقد أكرمهم وعمل لهم دعوة عظيمة باللوق[3] .

و يلحق بالدعوات أن الخلفاء كانوا يُركبون الرسل معهم ليشهدوا على لعب الأكرة فى الميدان[4] .

و أنت تجد الإكرام فى الرواتب الضخمة التى تجرى عليهم . ففى سنة ٧٨٢ حضرت إلى السلطان برقوق رسل صاحب بغداد وهم قاضى البلد والوزير ... فأكرموا غاية الإكرام ورتب لهم برقوق رواتب كبيرة ، وطلبهم عنده مرّة فمد لهم سماطاً حافلا[5] .

وقد يظهر الإكرام بعد ذلك بالخلع التى تخلع على الرسل . ففى المحرم من سنة ٥١٧ هـ وصلت إلى القاهرة رسل ظهير الدين طغدكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب تحمل كتبا إلى الخليفة الآمر بأحكام الله . فوقع الخليفة بنجاز أمر الرسل الواصلين وخلع على

---

(١) مسند أحمد ٧٥/٤ . (٢) السلوك ١ — ق ٣ — ص ١٠٢٢ .
(٣) خطط المقريزى ١١٨/٢ . (٤) خطط المقريزى ١١٧/٢ — ١١٨ .
(٥) إنباء الغمر فى أبناء العمر ورقة ٤٢ — آ (مخطوط) .

الرسل خلعات كثيرة[١] .

وفى جميع الأحوال كان يلقى الرسل الإكرام دائماً و إن اختلفت مظاهر هذا الإكرام وتعددت وجوهه ، حتى إنهم كانوا يكرمون ولو كانوا منحطى القدر ضعاف الأمر . كتب إيلخان غازان كتابا إلى الناصر محمد بن قلاوون فأجابه الناصر بما يلى :

« وأما رسلهم فقد وصلوا إلينـا ووفدوا علينا وأكرمنا وفادتهم وعززنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم وسمعنا خطابهم وأعدنا جوابهم ، هذا مع كوننا لم يخف عنا انحطاط قدرهم ولا ضعف أمرهم[٢] » .

الباب الرابع

ردّ الرسل أو العناية بهم

يلاحظ الباحث أن العرب عرفوا ردّ الرسل لرغبتهم عنهم من جراء أعمال صدرت عنهم أو لنفور كائن بين المرسل والمرسل إليه ، وأنهم عرفوا العناية بالرسول إذا كانوا راغبين فيه أو كان هواه معهم . يتجلّى لنا ذلك من حوادث كثيرة وقعت فى القاهرة و بغداد . فقد ذكر المقريزى أنه حدثت أثناء سنة ٥٩٧ وحشة بين الظاهر صاحب حلب و بين عمه العادل . فسيّر الظاهر وزيره علم الدين قيصر إليه . فمنعه العادل أن يعبر إلى القاهرة وأمره أن يقيم ببلبيس وأن يحمل قاضى بلبيس ما معه . فعاد مغضبا[٣] .

ووصل إلى بغداد سنة ٥٥٤ فى رسالة محمد شاه ومعه عدة رسـل من أمراء الأطراف طلبا للمقاربة . فلما نزلوا بشهر آبان أنفذ من دار الخلافة من استوقفهم هناك . ولم يمكنوا من الوصول . فأقاموا ثمانية عشر يوما ثم عادوا ولم تسمع رسالتهم[٤] .

وفى سنة ٦٦٠ قدم القاهرة رسول ملك الفرنج بهدية ومعه نفران من البحرية كانا ممن ذهب مع الهـدية التى أرسلها بيبرس إلى الإمبراطور . وأنهما أساءا الأدب هناك فأعادهما الإمبراطور مع رسول من عنده إلى مصر وليخبر السلطان بما فعلاه . فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما لأنه بلغه سوء اعتمادهما ، فسيّرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيّدين . وقد علق

---

(١) الخطط والآثار للمقريزى ١/٤٨٢ . (٢) السلوك للمقريزى ج ١ — ق ٣ — ص ١٠٢٢ .
(٣) السلوك ج ١ — ق ١ — ١٥٥ . (٤) المنتظم ١٠/١٨٩ .

ابن واصل فقال : « وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدين وحفظ لناموس السلطنة وإقامة لحرمة المملكة »[(١)] .

* * *

أما نوال الرسول الحظوة لرغبته أو ميل إليهم منه ، فهو يظهر فيما ذكره ابن الساعى من أن ابن الأصباغى وزير محمد خوارزم شاه كان يرد بغداد رسولا من مخدومه وأنه كان يحترم ويبالغ فى الإنعام إليه لما كان يعلم من فضله وموالاته لهذه الدولة القاهرة[(٢)] .

وقد يجازى الرسول إذا استماله من أوفد إليـه ويكون ذلك سبيلا لإهماله وعدم إرساله مرة ثانية . وقد جاء فى النجوم الزاهرة أن الـكامل بعث إلى أخيه المعظم الصلاح الاربلى فنقل إليه أن المعظم استماله فحبسه الـكامل فى الجب مدة سنتين ... ثم أخرجه[(٣)] .

---

(١) حاشية ذات الرقم ٤ من ص ٤٦٩ ق ٢ ج ١ من السلوك للمقريزى .
(٢) ابن الساعى ص ١٩٣ (٣) النجوم الزاهرة ٦/٢٨٦ سنة ٦٣١ .

الفصل الرابع

الباب الأول

أمان الرسل والسفراء

قضت الدبلوماسية الحديثة أن يكون الممثل الدبلوماسى أى الرسلول أو السفير آمنا هو وزوجه وأولاده وأعوانه وأتباعه لا يعتدى عليهم و يبقون مصونين من كل ضرر أو أذى .

وأمان الرسل عند العرب يقابل ما يسميه الغر بيون « الحصانة» فقد شملوا الرسول ومن يكون معه بالأمان والسلام طول مكثه فى بلاد المرسل إليه حتى يعود سالما مطمئنا إلى بلاده وأهليه .

ونحن نجد تقرير هذا الأمان منذ عهد النبى صلوات الله عليه فى فجر الإسلام . فقد أتته رسل مسيلمة وقالوا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبى عليه السلام : لولا أن الرسل لا يقتلون لكنت قتلتكم[1] .

ونلاحظ أن هذا الأمان قد وجد فى النصوص الفقهية من جهة وبالعرف من جهة ثانية. فقد قرر الفقهاء هذا الأمان ودرجت عليه الملوك فكان عرفا يسألون عنه إذا لم يقوموا به .

جاء فى كتاب السير الكبير للشيبانى وكتاب الخراج لأبى يوسف «أن الولاة إذا ما لقوا رسولا يسألونه عن اسمه . فإن قال أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب وهذا كتابه معى وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهدية له ، فإنه يصدَّق ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال[2] .

وكذلك لو أن المسلمين أخذوا مركبا فى البحر ومن فيه فقالوا : نحن رسل بعثنا الملك . فلا يتعرّض لهم[3] .

---

(١) مجمع الزوائد ٣١٥/٥ . (٢) الخراج ص ٢٢٣ .
(٣) الخراج ص ٢٢٥ .

وظاهر من النصين السابقين اللذين قررهما الفقهاء أن الرسل سواء أجاءوا من البر أو البحر فهم آمنون مطمئنون لا يمسّون بسوء ولا يتعرض لهم بأذى .

وقد حافظ العرب فى الإسلام على هذه القاعدة فى دولهم المختلفة . فكانوا يؤمنون رسل الروم والعرب دائماً فى حين أن الروم يغدرون برسل العرب فيعذبونهم أو يقتلونهم . ولذلك كان العرب دائماً يطالبون الروم والفرنجة الذين كانوا يتعرّضون للرسل بالضرّ والأذى بالأمان .

وأمام هذه البادرة من الروم والفرنجة كان العرب يضطرون فى أحايين كثيرة إلى تثبيت ذلك فى معاهداتهم معهم . ففى فقرة من هدنة عقدت بين الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب مصر والشام و بين دون حاكم الريد آرغون صاحب برشلونة سنة ٦٩٢ نجد مايلى :

« وعلى أنه متى عبر على بلاد دون حاكم أو معاهدية رسل من بلاد الملك الأشراف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة صادرين أو واردين أو رماهم الريح فى بلادهم تكون الرسل وغلمانهم وأتباعهم ومن يصل معهم من رسل الملوك وغيرهم آمنين محفوظين فى الأنفس والأموال[١] ... »

وفى فقرة ثانية من اتفاق عقد بين قلاوون و بين صاحب القسطنطينية سنة ٦٨٠ نجد ما يلى : « وعلى الرسل المترددين من الجهتين أن يكونوا آمنين مطمئنين فى سفرهم ومقامهم برا و بحرا محترمين مرعيين هم وكل من معهم من مماليك وجوار وغير ذلك[٢] ... » .

وعلى الرغم من رعاية العرب لرسل الفرنجة وتأمينهم فقد كان الفرنج كما ذكرنا يتعرضون بالأذى لرسل العرب المسلمين منذ عهد بعيد ؛ فمن أول ما أثر فى هذا أن الدمستق نقفور ملك الروم كان قد بعث إليه أهل طرطوس والمصيصة يعرضون عليه أن يخضعوا له ويسألونه أن يقبل منهم القطيعة كل سنة وينفذ إليهم نائبا له عليهم . فأجابهم إلى ما طلبوا . ثم رجع عن الإجابة وأحرق الكتاب على رأس الرسول فاحترقت لحيته وقال : « امض . ما عندى إلا السيف[٣] » .

ونلاحظ أن هذا الأذى كان يستدعى أمرين :

---

(١) صبح الأعشى ج ١٤/٦٨ . وانظر نصاً آخر للأمان فى المعاهدة التى عقدت بين المنصور قلاوون وصاحب القسطنطينية فى ج ١٤ ص ٧٧ .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤/٧٨ . (٣) شذرات الذهب ١٣/٣ .

١ — الاحتجاج .

٢ — العقوبة .

أما الاحتجاج فقد كان الملك الظاهر أرسل رسله إلى بلاد السلاجقة الروم ، فضيق عليهم ملوك الفرنجة من الصليبيين وقيدوهم . فأحضر الملك الظاهر ممثلى بيوتهم وقال لهم : « ولقد سيّرنا رسلا إلى بلاد السلاجقة الروم وكتبنا إليكم بتسفيرهم فى البحر فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرس فساروا بكتابكم وأمانكم فأخذوا وقيدوا وضيق عليهم . هذا مع إحساننا إلى رسلكم وتجاركم ، والوفاء أحد أركان الملك . وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . »[1]

أما المعاقبة فقد ذكر المقريزى أن ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن عوّق رسل سلطان مصر الموفدين إلى الملك بركة بالهدية عن المسير إليه بعد أن أمنهم حتى هلك أكثر ما معهم من الحيوان . فأحضر السلطان البطاركة والأساقفة وسألهم عمن خالف الأمان وما كان تعهد به . فأجابوا : يستحق أن يحرم من دينه . فأخذ السلطان خطوطهم بذلك . وقال لهم : إنه قد نكث بإمساك رسلى ومال إلى جهة هولاكو . ثم كتب له كتاباً أغلظ فيه ، وجهز إليه أحد الرهبان ومعه قسيس وأسقف يخبرونه بحرمانه من دينه عقاباً له . فلما وصلوا إلى ملك القسطنطينية أطلق الرسل لوقته .[2]

وهناك حادثة من الحوادث التى يقدمها تاريخ مصر نجد الرسل فيها قد قتلوا . فقد ذكر المقريزى أن هولاكو أرسل رسله التتر إلى مصر سنة ٦٥٨ بكتاب شديد كله تهديد ووعيد . فثار الملك المظفر قطز . وكان هو وهولاكو عدوين لدودين . فجمع الأمراء واتفقوا على قتل الرسل فقبض عليهم واعتقلوا .

ثم أحضرهم وكانوا أربعة فضربت أعناقهم وأمر فعلقت على أبواب المدينة[3] .

ولعل العداء الشديد بين هولاكو وقطز هو الذى دفع قطز إلى قتل الرسل . ومن هنا نستنتج أن الملكين إذا كانا فى حالة حرب وعداوة لم يطبق الأمان .

على أن هذه حادثة واحدة بين حادثات كثار كان يلقاها رسل العرب من الفرنجة ؛ ومن المستحسن ذكر واحدة أخرى منها . فقد ذكر المقريزى أيضاً أن رسل ملك الفرنج الريد

---

(١) السلوك للمقريزى ج ١ ق ٢ ص ٤٨٥ (٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١٤ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٩

آرغون البرشلونى قدموا إلى السلطان سنة ٧٠٣ بهدية جليلة وسألوه أن يفتح كنائس النصارى ، فأجابهم إلى ذلك وجهّز جوابه مع فخر الدين عثمان استادار الأمير عز الدين الأفرم . فبالغ الرسول فى التجمل وركب هو ورسل الفرنجة فى البحر وعادوا . حتى إذا بعدوا عن الإسكندرية أنزل رسل الفرنجة الأمير فخر الدين عثمان رسول السلطان فى قارب وأمروه بالعودة وأخذوا كل ما معه . فلما علم السلطان غضب وكتب إلى الإسكندرية بالقبض على من يرد من فرنج برشلونة[1] .

الباب الثانى

حول ميزات الرسل

أعظم ميزات الرسل الدبلوماسيين فى الغرب شأنا هى الحصانة التامة والإعفاء من الضرائب والمكوس وحرية العبادة وعدم التحاكم أمام القضاء الوطنى . وكون دار السفارة أرضاً من أرض الدولة المرسلة . فإذا استثنينا الميزتين الأخيرتين اللتين نتجتا عن السفارة الدائمة التى عرفها الغرب بعد فتح القسطنطنية فإننا نجد أن العرب كان لديهم ما يشبه الميزات الثلاث الأولى .

أما الحصانة فقد أبنا فى فصل أمان الرسل أن الرسل الواردين وحاشيتهم وأتباعهم وما معهم يكونون آمنين لا يتعرّض لهم إنسان بل يحميهم السلطان من كل أذى ، لأن أذاهم يقصد به أذى مرسلهم من جهة ولأن الرسول لا يستطيع أداء رسالته إذا لم يكن آمنا من جهة أخرى .

أما الإعفاء من الضرائب والمكوس فقد أعفى العرب الرسل من العشر والمكوس أيضاً . ولقد كانت مراصد الثغور منتشرة فى كل مكان فما كان يمر إنسان إلا و يتناول منه المكس[2] . ومع ذلك فكانوا يدعون الرسل وشأنهم . وهذا الأمر أيده الفقهاء . فقد نصوا : « على أنه لا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى أعطى أمانا عشر[3] » وظاهر أن معنى ذلك نجوّ كل ما معهم من كل عشر .

---

(١) المقريزى ج ١ ق ٣ ص ٩٥١ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١/١٩٧ .

(٣) كتاب الخراج ص ٢٢٣ — ٢٢٥ .

وقد استثنوا من هذه القاعدة الرسل المتاجرين فقالوا : « وإذا كان الرسل قد حملوا ما معهم للتجارة فيؤخذ العشر منهم . فأما غير ذلك من متاع فلا عشر لهم فيه[١] ». وواضح من هذا أن جميع أمتعة الرسول وحاشيته وحاجات حاشيته تعفى من العشر لا يؤخذ منه عنها شيء .

ونص الفقهاء كذلك على قاعدة المقابلة . فقالوا : « فإذا كانوا لم يأخذوا من تجار المسلمين ولا من رسلهم شيئاً لم يأخذ المسلمون شيئاً منهم . »[٢] . وقاعدة المقابلة هذه تتبع اليوم فى بعض الدول الكبرى كأمريكا وسويسرا . .

وعند سفر الرسول تعفى أمتعته من كل عشر ولا يتعرض له ويسمح له أن يخرج ما يشاء إلاّ أنهم استثنوا أمراً . فقالوا : « فإذا أراد الرسول أو الذى أعطى الأمان أن يرجع إلى دار الحرب . فإنهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع[٣] ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب ، فإن اشتروا من ذلك شيئاً يرد على الذى باعه منهم وردّ أولئك الثمن إليهم[٤] »

وظاهر أن هذا الشرط غايته أن لا يقوى الرسول بما يأخذ معه لقومه من السلاح الذى يتسدد يوماً إلى المسلمين أنفسهم . وتلك قاعدة جيدة تحول دون قوة الخصم . فقد كان العرب من جهة والروم والفرنج من جهة أخرى فى خصام دائم ونفور مستمر . وكانت العداوات بينهما قائمة قاعدة لا تهدأ ولا تستقر . وطبيعى أن ازدياد عدة أحدهما يؤثر فى ضعف الآخر . أما الكراع وهو اسم يجمع الخيل فمن مسببات القوة للعدو لأن القتال لا يكون إلا بها . وأما الأسرى فلأنهم سيكونون جنداً يقاتلون المسلمين ويحاربونهم .

وعلى الجملة فإن كل ما يعين على شد ساعد العدو وتقويته فإن الرسول يمنع من إخراجه . فإذا كان هذا الشىء مما لا يفيد العدو بل يفيد المسلمين فلا بأس باصطحاب الرسول إياه . قالوا : « فإن كان مع الرسول أو الذى أعطى الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح شرّ منه أو دابة فأبد لها بشر منها فذلك جائز ولا بأس أن يترك يخرج بذلك . وإن كان أبدله بخير منه ردّ عليه سلاحه ودابته وأعيد ذلك على صاحبه الأول[٥] .

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق .

(٣) اسم يجمع الخيل .

(٤) الخراج ص ٢٢٣ — ٢٢٥ .

(٥) الخراج ص ٢٢٤ .

والخلاصة « لا ينبغى للإمام أن يترك أحداً من أهل الحرب يدخل بأمان أو رسولا من ملكهم يخرج بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فأما الثياب والمتاع وما أشبهه فلا يمنعون منه[١] » .

تلك هى القواعد التى سار عليها العرب فى العشر والمكوس وإخراج الأمتعة . وهى تقارب القواعد المتبعة اليوم فى أوربة وأمريكا وتشابهها . ولم نعثر على ما يؤيد أخذ المسلمين المكوس على أمتعة الرسل وهداياهم بصورة مطلقة أبداً . غير أننا وجدنا أنه فى سنة ٦٦٤ وردت رسل ملك اليمن إلى القاهرة ومعهم هدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية فى الشام . ولما كانت حكومة مصر ترى فى الإسماعيلية شذوذاً عن الدين وكفرا « فقد أخذت منهم الحقوق الديوانية عن الهدية إفساداً لنواميس الاسماعيلية وتعجيزاً لمن اكتفى شرّهم بالهدية[٢] » .

أما الميزة الأخيرة وهى حرية العبادة ، فقد كان الرسل أحراراً فى عبادتهم لا يتعرض لشعائرهم بسوء . ولم نجد قط نصا يدل على أن الرسل منعوا من أداء شعائرهم . ونرجح أنهم كانوا يزورون ديارات الشام وبغداد والقاهرة ويقومون فيها بما يشاءون من عبادة . ولما كانوا رسلا مؤقتين فلم يكن هناك سبب لبناء كنيسة خاصة بهم . وقد نصّ الفقهاء على أن الذمى إذا أراد أن يتخذ لنفسه خاصة موضع عبادة فلا يمنع من ذلك[٣] . وعلى هذا فلو أن الرسول كان دائماً واتخذ لنفسه موضع عبادة يقوم فيه بعبادة ربه لم يمنع من ذلك . هذا على أنه متى كان موضع العبادة الذى بنى عظيما عاماً للناس كافة مُنع الذمىّ من إقامته .

---

(١) الخراج ص ٢٢٤ .	(٤) السلوك للمقريزى ج ١ ق ٢ ص ٥٤٣ .

(١) نصاب الاحتساب فى الفتاوى ص ٦٧ — لعمر بن محمد الشامى ط قازان روسية .

الفصل الخامس

الباب الأول

أغراض الدبلوماسية القديمة فى الإسلام

رأيت فى الفصول السابقة كل ما يتعلق بالرسل والسفراء والدبلوماسيين فى الإسلام . والآن ننتقل إلى تبيان الأغراض التى كانت تؤلف الدبلوماسية والتى كان الرسل والسفراء يضطربون إليها ويذهبون ويعودون فى سبيلها فنعرضها عليك بإيجاز :

١ — الفـــداء

كان أكثر مايتردد الرسل من أجل الفداء فقد كانت الحرب بين العرب والروم سجالا وينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً . وأكثر ما كان يقع الفداء زمن العباسيين فى البر وزمن الفاطميين فى البحر . فقد كانت غزوات العباسيين على بلاد الروم لا تنقطع ، غزوة فى الصيف وغزوة فى الشتاء . وكانت أساطيل المسلمين تسير من مصر ومن الشام ومن أفريقية فتهاجم بلاد العدو . وكان العرب يندفعون إلى هذه الغزوات للجهاد وللمغانم ، فيغيرون على بلاد الروم ليقتلوا ويأسروا ويسلبوا . وكانت الروم فى أحايين أخرى هى التى تغير على بلاد المسلمين ، فتدخلها وتأسر وتصطلم وتسبى ، تبعاً لقوة العرب وضعفهم . فإذا كثرت الأسرى بعثوا رسولا للفداء .

والفداء هو أن يفدى الأسارى المسلمون بمال أونحوه ليفك أسرهم ، أو أن يطلق سراحهم مقابل إطلاق عدد من أسرى الروم لدى العرب .

وكان أول فداء وقع بمال فى الإسلام أيام بنى العباس ، ولم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور ، وإنما كان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشام ومصر والإسكندرية وبلاد ملطية وبقية الثغور ، إلى أن كانت خلافة الرشيد (١) .

---

(١) خطط المقريزى ٢/١٩٢ .

وقد شرح المسعودى فى كتابه (فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف) وفى كتابه (الاستذكار لما جرى فى سالف الأعصار) الأفدية بين المسلمين والروم، وذكر من حضرها، وكيفية وقوعها، ومن ترسل فيها وتوسطها بين المسلمين والروم، وشروطها ومقادير النفقات فيها وهدنها ...[١] على أن هذين الكتابين مفقودان.

وقد ذكر المسعودى أنه جرى فى زمن بنى العباس حتى أيامه اثنا عشر فداء[٢]. منها ما كان زمن الرشيد سنة ١٨٩ على يد فرج الخادم، وآخر مع نقفور على يد ثابت بن نصر، وفداء خاقان زمن الواثق سنة ٢٣١ مع ميخائيل بن توفيل وفداء شفيع سنة ٢٥٣ مع الملك باسيل زمن المعتز، وفداء نصر بن الأزهر مع ميخائيل السابق الذكر سنة ٢٤٦. وفداء زمن المعتضد سنة ٢٨٣ على يد أحمد بن طغان مع الملك اليون بن باسيل. وفداء زمن المكتفى سنة ٢٩٢ على يد الفرغانى مع اليون بن باسيل أيضاً. وفداء زمن المقتدر على يد مؤنس الخادم سنة ٣٠٥ مع الملك قسطنطين بن اليون، وسنة ٣١٣ مع قسطنطين وأرمونس. وفى خلافة الراضى سنة ٣٢٦ على يد ابن ورقاء مع الملكين المذكورين. وفى زمن المطيع سنة ٣٣٥ على يد ابن حمدان والملك على الروم قسطنطين. والذى بدأ بهذا الفداء الأخشيد محمد بن طغج وكان يونس الأنسيبطوس البطريقوس المترهب رسول ملك الروم فى إتمام الفداء فى دمشق. وكان المسعودى فى دمشق يومئذ ورآه[٣].

وكانت مراسم الفداء تجرى بعد مفاوضات وشروط. وقد كان يسبق الفداء إرسال رسول من المسلمين إلى بلاد الروم لمعرفة ما بأيديهم من الأسرى[٤]. فإذا أجيبوا إليه عينوا مكانا ليجرى فيه. وكانت الأفدية تجرى باحتفال عظيم فيأتى الناس بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة يأخذون بكثرتهم السهل والجبل حتى ليضيق بهم الفضاء، وكذلك كانت الروم أو مراكبهم تفعل ذلك. فتأتى بأحسن ما يكون من الزى، ومعهم الأسرى[٥].

وقد يقفون على حافتى نهر، المسلمون فى جانب والروم فى جانب، فيرسل هؤلاء رجلا وأولئك رجلا فيلتقيان فى وسط النهر. فإذا صار المسلم إلى المسلمين كبّر وكبّروا. وإذا صار

---

(١) التنبيه والاشراف ص (١٦٦)
(٢) التنبيه والاشراف ص ١٦٥
(٣) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٦١ — ١٦٥
(٤) الطبرى ج ٣ / III/ ١٤٢٦
(٥) التنبيه والإشراف ص ١٦١

الرومى إلى الروم تـكلم بكلامهم وتـكلموا شبيها بالتكبير[١] .

ويذكر المسعودى أن رسل العرب كانت إذا ذهبت للفداء إلى بلاد الروم أنزلت مكانا خاصاً اسمه البلاط (القصر) حتى يتم أمر الفداء[٢] .

والوثائق الدبلوماسية المتعلقة بالفداء كثيرة ننقل إليك واحدة منها .

فقد كتب الأخشيد محمد بن طغج إلى أرمانوس ملك الروم يجيبه إلى الفداء :

« وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسرى فإنا والله و إن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحسنين وعلى بيِّنة لهم من أمرهم وثبات من حسن العاقبة وعظيم المثوبة عالمين بحالهم ، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدّة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها سكوناً إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب ... وقد تبينّا مع ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته وغير خارج عما أحببته. فسررنا بما تيسر منه وبعثنا الـكتب والرسل إلى عمّالنا فى سائر أعمالنا عليهم فى جمع كل ممكن[٣] ... »

٢ — التجسّس

والتجسس من أهم أغراض الرسول أو السفير . وهذا الغرض يلازم الرسالة دائماً ، فيود المرسل أن يطلع على كل ما عند المرسل إليه من خير وشر ليحمله إلى مرسله . وقد كانت هذه العادة قديمة ورافقت الدبلوماسية المتقطعة فى أوربة وكان لها شأن هام ، بل كانت فى ذلك العهد الهدف الأول للدبلوماسية . ويحدثنا ابن الأثير أن عمرو بن العاص لما عجز على ارطبون الروم فى أجنادين سار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد[٤] .

وقد بيّن نظام الملك هذا الأثر بياناً دقيقاً فى كتابه « سياست نامه » فقال :

« ويجب أن يعلم أن الملوك بإرسالهم السفراء لا يقصدون تسليم رسالة أو نقل سفارة

---

(١) الطبرى ج ٢ / III / ١٣٥٥ (٢) التنبيه والإشراف ص ١٤٢

(٣) صبح الأعشى ٧/ ١٧ وانظر فيه وثائق أخرى تتعلق بالفداء مثلا فى ج ٦/ ٤٦٠ وانظر ما كتبه المقريزى عن الفداء فى الخطط ٢ / ١٩٢ . (٤) ابن الأثير (منيرية) ٢/ ٣٤٧ .

فقط ، بل إن هناك مئات الأغراض يبغونها ؛ فهم فى الحقيقة يريدون أن يعلموا حالة الطرق والآباء ، ويعلموا إذا كانت الطرق معبدة تستطيع الجيوش أن تمر بها والأمكنة التى توجد فيها المروج والأعشاب والحشائش للعلف والأمكنة التى لا يوجد فيها ذلك ، وأن يعلموا أيضاً قوة الجيش ومؤونته فى العدد والعدد وفى الدفاع وفى الهجوم . وأن يعرفوا كيف يعيش الأمير وماذا يأكل وبمن يجتمع ، وأن يدركوا تنظيمات بلاطه وعاداته فيه وملاهيه وهل يلعب بالصوالجة أو يذهب للصيد . وهم يجهدون لمعرفة عاداته وأخلاقه فى عدله وظلمه ولهوه وتبذله وكرمه ورقته ، وهل هو متعلم أم جاهل ، وهل ازدهرت مملكته بالعمران أم ملأتها الخرائب والأطلال ، وهل رضى عنه جنده أم هم مغضبون مغيظون . وهل أتباعه من الفقراء أم الأغنياء ، وهل يجدّ فى شؤون مملكته أم يهملها . وهل هو بخيل أم جواد ، ووزيره قدير أم عاجز . وحاشيته من العلماء الأذكياء أم لا ؟ ثم هم يريدون أن يعلموا ماذا يحب وماذا يبغض ، وأن يعلموا ما شأنه إذا شرب الخمر وهل يميل إلى الحب وإلى النساء . حتى إذا رغبوا فى مهاجمة مملكته يوماً أو أرادوا نقض خططه أو نقد عيوبه كانوا مطلعين مدركين يضعون المحاسن والمساوئ نصب أعينهم وينهجون بحسبها [1] .

فمن هذا يتضح لنا ما كان للتجسّس من شأن هام لدى السفراء ، ولعلهم كانوا يقطعون به طول أيام إقامتهم . ولهذا كان المسلمون يخشون من الرسل كما رأيت ويمنعون الناس من الاتصال بهم أو مخالطتهم لئلا تتصل بهم الأخبار .

وواضح أن هذه الأعمال يقوم بها الرسل والسفراء ، إذا قاموا بها بلباقة ودقة ، دون أن يطّلع أحد على ما يفعلون .

ومن الوثائق المتعلقة بالتجسُّس ما ذكره القلقشندى أن الملك الظاهر برقوق علم أن رسول تيمورلنك يتجسس ويتدخل فى شؤون مملكته ، فساءه . فاحتج تيمورلنك فكتب إليه الظاهر سنة ٧٩٦ .

« ... وأما ما ذكرته من أمر الرسول فقد علمناه . والذى نعرفك به هو أن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بلادنا المحروسة . واطلع عليه فى ذلك جماعة من

---

(١) سياست نامه (الترجمة الفرنسية) ص ١٣٨ — ١٣١ .

جهتنا . ولما وصل إلى الرحبة المحروسة قال للنائب بها : بس الأرض للأمير تيمور واقرأ الخطبة باسمه . فلو كان الرسول مصلحاً ما كان كتب المنازل ولا أكثر فضوله بما لا ينبغى وتكلم فيما لا يعنيه . لأنه لا ينبغى للرسول أن يكون إلا أعمى أخرس غزير العقل ثقيل الرأس[1] » .

التجارة

قد يخطىء من يزعم أن الدبلوماسية الإسلامية لم تهتم بأمور التجارة . فزعم كهذا تنقضه البراهين الثابتة ولا تؤيده .

فالتجارة فى الأصل لم يكن لها شأن فى أعين الناس فى صدر الإسلام . وكان الأمويون لا ينظرون للتاجر بعين التقدير . ويعلل آدم متز ذلك بأن هؤلاء كانوا جيلا من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع وأن التجار لا شأن لهم عندهم . على أنه ما كادت الدبلوماسية الإسلامية تقوى فى القرن الثالث والرابع الهجريين حتى كان للتجارة شأن كبير . فقد أصبحت تمثل الحضارة الإسلامية التى صارت من الناحية المادية مظهراً من مظاهر البذخ والشرف وأبهة الإسلام . وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول فى التجارة العالمية . وكانت الإسكندرية و بغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر[2] .

وقد كان من نتيجة هذا التوسع فى التجارة أن انتشر المسلمون فى القسم الأعظم من العالم المعروف فى ذلك العهد ؛ فخاضت سفنهم عباب البحر والمحيطات، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطىء المحيط الأطلسى والبحر الأبيض وساحل أفريقية الشرقى وجزر المحيط الهندى[3] .

كل ذلك اضطر الخلفاء إلى إدخال أمور التجارة فى شؤونهم الدبلوماسية ، كما اضطر ازدهار التجارة فى الشرق الإسلامى ملوك الروم والفرنجة والصين والهند وجزر المحيط الهندى إلى أن يعنوا بتجارة هذا الشرق و إرسالهم الرسل للتبادل التجارى .

---

(١) صبح الأعشى ٧ / ٣١٦ . وانظر خبراً آخر يتعلق بالتجسس فى السلوك للمقريزى ج ١ ق ١ ص ٥١ . وانظر ما ذهب إليه عبد الله عنان فى بحثه عن الدبلوماسية الإسلامية فى مواقف حاسمة .

(٢) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ٢ ص ٣١١ وما بعدها .

(٣) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ .

ولقد كان لمصر شأن عظيم فى هـذا المضمار . فقد كانت الرسل ترد عليها لتنظيم أمور التجارة ، كما كان خلفاء مصر يرسلون الرسل فى سبيل ذلك أيضاً .

ففى زمن هارون الرشيد ، كما يذكر هايد فى كتابه عن تاريخ التجارة فى الشرق ، تضاعفت الصلات بين فرنسة والشرق . ويذكر أن شارلمان كان يتحدث يوما مع سفير هارون فأبدى له أسفه لأن البحر يفصله عن الرشيد الأمر الذى يحول بينه و بين أن يكون له نصيب من ثروات الشرق(١) . ويظهر أنه كان من أغراض سفراء شارلمان إلى الرشيد تنظيم الأمور التجارية .

وفى زمن محمد بن طغج الأخشيد ورد على مصر رسولا ملك الروم رومانس الأول نقولا و إسحاق ومعهما كتاب من الإمبراطور يطلب فيه تنظيم مسألة الفداء وتسهيل المعاملات التجارية لرسـله فى البيع والشراء . فأجابه الأخشيد إلى ما طلب وأرسل إليه كتابا جاء فيه : « وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه وأذنا لهم فى البيع وفى ابتياع ما أرادوه واختاروه ، لأنا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة ... »(٢) .

وقد اضطرت مصر إلى الاستعانة بالروم أيام الخليفة المستنصر بالله عند ما نـكبت بوباء دام أعواما ورافقه غلاء وقحط شديدان . وذاقت مصر فى هذه الشدة العظمى ألوانا من الآلام . فأرسل المستنصر سنة ٤٤٦ إلى قسطنطين رسلا يطلب منه معهم العون وأن يمده بالغلال والأقوات . ورأت بزنطية أن هذه فرصة سانحة لتحسين علاقاتها بمصر فلبى الإمبراطور طلب الخليفة وتم الاتفاق على بذل العون . ولـكن هذه الأقوات لم تصل إلى مصر بسبب موت قسطنطين(٣) .

وفى سنة ٦٨٢ وصلت إلى القاهرة رسل صاحب بلاد سيلان ومعهم هدية وذكر الرسول أن لدى سلطانه كثيرا من الجواهر والفيلة والتحف(٤) . وكان هؤلاء الرسل قد سافروا إلى مصر عن طريق الخليج الفارسى فالعراق فالشام ، واتخذوا هذا الطريق لـكيلا يضطروا إلى

---

(١) انظر الجزء الأول من Heyd : Histoire du Commerce du Levant V. 1 .

(٢) صبح الأعشى ج ٧ ص ١١ — ١٨

(٣) عبد الله عنان — الرسالة ص ٤٠٨ مارس ١٩٣٥ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧١٣ .

المرور ببلاد اليمن . وكان سبب هذه السفارة إنشاء علائق تجارية بين الملك الظاهر و بين سيلان [١] .

وقد طلبوا من الظاهر أن يرسل رسله إلى ملكهم . وذكروا أن لديهم الجواهر والياقوت والفيلة والقماش الكثير من البز وغيره ، وكذلك البقم والقرفة ، وأن عند ملكهم فى كل سنة عشرين مركبا يسيرها إليه [٢] .

ويحدثنا القلقشندى أنه فى سنة ٨١٤ وصلت القاهرة سفارة من دوج البندقية . وقدم السفير نقولا البندقى إلى السلطان ناصر فرج كتابا من الدوج يرجوه فيه أن يلقى التجار الطمأنينة لديه [٣] .

والباحث يرى أن الدول الأوربية كانت تعمل على كسب صداقة مصر وعقد المعاهدات التجارية معها . وأن تقارير قناصل أوربة بالاسكندرية لتدل دلالة واضحة على كثرة التجار الأجانب فيها . ويذكر فييت أن سفارات البلاد الأوربية فى مصر زادت كثيراً فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كبعثات أراجون وملك فرنسة وجمهوريات جنوة والبندقية والروم وملك البلغار ووادى الفولجا وأمير سيلان ... [٤]

التهنئة والتعزية

ويدخل فى أغراض الدبلوماسية التهنئة تارة والتعزية تارة . فقد كانت الرسل تتردد لتهنئة ملك ولى الحكم أو تزوج أو لغير ذلك . وقد كانت رسل الروم تقدم إلى بغداد لتهنئ خلفاءها . ويذكر الخطيب أن الخلافة لما أفضت إلى المهدى قدم عليه وافد من بلاد الروم يهنئه فاستدناه المهدى ، فقال له : إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولا غرض و إنما قدمت شوقا إليه و إلى النظر إلى وجهه . فأمر المهدى الربيع بإنزاله و إكرامه [٥] .

ولما تولى الملك العادل الملك أرسل الخليفة فى بغداد ابن الجوزى ليهنئه بالملك و يعزيه

---

(١) هايد — ج ٤٢٥/١ .
(٢) صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٧ — ٧٨ .
(٣) صبح الأعشى ١٢٣/٨ — ١٢٤.
(٤) فييت . المواصلات فى مصر (فى مصر الإسلامية) ص ٣٨ .
(٥) تاريخ بغداد ٩٢/١ .

بأخيه[١] . وكذلك قدم رسول من الروم إلى القاهرة بالعزاء للملك العادل[٢] .

وعند ما استقل ركاب الملك الظاهر وسار إلى وسط بلاد الفرنج ورد رسول منهم يذكر أن البيوت (الدويلات الصليبية فى الشام) يقبلون الأرض ويهنئونه بالسلامة[٣] .

وقد كانت هذه التهانى تقرن بالتعازى و بتوكيد المودة . فعند ما مات أبو الملك بردويل ملك الفرنج كتب إليه صلاح الدين يعزيه و يهنيه و يغتنم الفرصة لتوكيد المودة . وهو كتاب عجيب وهذا بعض ما فيه :

« و إن كتابنا صادر عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق ، والذى وددنا أن قائله غير صادق ، بالملك العادل الأعز الذى لقّاه الله خير ما لقى مثله ، وبلغ الأرض سعادته كما بلغّه محلّه ، معز بما يجب فيه العزاء ومتأسف لفقده الذى عظمت به الأرزاء . إلاّ أنّ الله سبحانه قد هوّن الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب . فهنيئاً له ما حاز ، وسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لو جاز . ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين آدام الله سلامته قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، وودنا الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا . فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنّا له كما كنا لأبيه : مودة صافية وعقيدة وافية ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة ... فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل . والله يديم تعميره، ويحرس تأميره ، و يقضى له بموافقة التوفيق ، و يلهمه تصديق ظنّ الصديق[٤] .

المصـــــالحة

وكانت الرسل تتردد بين الملوك لتصلح بينهم فى خلاف وقع أو نزاع نشب ، وأكثر ما نجد ذلك فى عهد الأيوبيين . فقد كانوا فى اختلاف دائم لوفرة الأبناء والأقارب . وكان الخليفة فى بغداد يرسل رسله ليصلح بينهم بعض الأحايين .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٦٨ . (٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٧٥ .

(٣) الحاشية ذات الرقم ٢ من ص ٤٨٤ من ج ١ من السلوك .

(٤) انظر صبح الأعشى ٧/١١٥ — ١١٦ .

من ذلك أنه فى سنة ٦٢٩ ورد ابن الجوزى الشهير سفير الخليفة ليوقع الصلح بين ملوك بنى أيوب[١].

وفى سنة ٦٣٦ قدم ابن الجوزى أيضاً برسالة الخليفة إلى الملك الصالح ليصالح أخاه الملك العادل فأجلّ الملك الصالح قدومه إجلالا كبيرا[٢].

وورد سنة ٦٥١ الشيخ نجم الدين البادرأئى من قبل الخليفة المستعصم ليصلح بين الملك الناصر صاحب دمشق والملك المعز أيبك[٣]. وكان فى صحبته عز الدين ازمرد وكاتب الإنشاء فى بغداد لتمهيد القواعد، فلم يبرحا إلى أن انفصلت القصة. ثم عاد البادرأئى سنة ٦٥٤ ليجدد الصلح الأول[٤].

الهدنة والصلح

كان الروم يلجأون كثيرا إلى طلب الهدنة من العرب إذا اشتد عليهم القتال. وكان العرب فى أيام ضعفهم يطلبون وقف القتال لعقد هدنة أو صلح.

ففى سنة ٥٨ ورد إلى دمشق سفراء الإمبراطور قسطنطين الرابع ليعقدوا مع معاوية معاهدة صلح ارتضى معاوية بها اضطرته أن يؤدى إلى الروم جزية سنوية متنوعة[٥].

وفى سنة ٣١٥ ورد رسـول ملك الروم ومعه كتاب من وزير الملك إلى الوزير على بن عيسى يلتمس فيه الهدنة[٦].

ومن الوثائق الدبلوماسية المكتوبة أن توفيل صاحب الروم كتب إلى المأمون يسأله الصلح وعقد هدنة بينهما فأجابه المأمون بما يلى:

« أما بعد فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال. فلولا ما راجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالخطر فى تقليب الفكرة...

---

(١) السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٧. (٢) السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٨٣.
(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٨٥. (٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٨.
(٥) الطبرى ج III/١١ ص ١١١١ وانظر كتاب توفيل إليه.
(٦) انظر مثلا السلوك ج ١ ق ٣ ص ١٠١٧.

لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم و يتقربون إلى الله بدمائكم و يستقلّون فى ذات الله مانالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الأمداد وأبلغ لهم كافيا من العدّة والعتاد ... غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنفية . فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، و إن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى[1] » .

وفى زمن الصليبيين كان كثيراً ما تعقد هدن بين ملوك المسلمين وملوكهم . وقد نقل القلقشندى والمقريزى نصوص هذه الهدن . وكانت تحتوى أكثر الأحايين على وقف القتال وتأمين الرعايا المسافرين وغير ذلك .

ومن هدنة وقعت بين السلطان قلاوون وفرنج عكا سنة ٦٨٢ ما يلى :

« وعلى جميع السفار والمترددين فى البر والبحر والسهل والجبل فى الليل والنهار أن يكونوا مطمئنين آمنين فى حالتى صدورهم وورودهم على أنفسهم وأموالهم وغلمانهم و بضائعهم وأتباعهم وعلى جميع ما يتعلق بهم[2] » .

الزواج

ومن الأغراض التى كان الرسل يسعون فى سبيلها الزواج. فقد كان الملوك يخطبون بنات ملوك آخرين فيرسلون الرسل للمفاوضة فى ذلك . فإذا قبلوا حملوا الفتاة المخطوبة إليه .

من ذلك أنه وصل إلى بغداد سنة ٣٣٥ رسول من ملك كرمان إلى السلطان مسعود يخطب خاتون زوجة المستظهر . .كان معه تحف كثيرة . فجاء وزير مسعود إلى دارها فاستأذنها فأذنت فحضر القضاة دار السلطان ووقع الملاك على مائة ألف دينار ونثرت الدراهم والدنانير وسيّرت إليه[3] .

وفى سنة ٦٣٥ قدم القاهرة رسول غياث الدين كيخسرو فزوّج غازية ابنة السلطان

---

(١) السلوك ١/٣/٩٨٨ الملحق رقم ٨ .
(٢) الوثائق الدبلوماسية زمن الأيوبيين والمماليك (مخطوط للمؤلف) .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ج ١٠ — ٧٨ .

العزيز للسلطان غياث الدين . وأنكح الملك الناصر صاحب حلب خاتون أخت السلطان غياث الدين . وتولى العقد ابن العديم الكاتب المشهور[١] .

ويذكر المقريزى أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كان جهز الأمير إيدغدى الخوارزمى فى سنة ٧١٦ يخطب إلى أزبك ملك التتار بنتا من الذرية الجنكزية . فجمع أزبك أمراء التومانات وهم سبعون أميراً وكلمهم الرسول فى ذلك . فنفروا منه ثم اجتمعوا . . . وقبلوا . فجهزت خاتون طلنباى ومعها جماعة من الرسل . . . فلما وصلوا إلى الإسكندرية سنة ٧٣٠ وطلعت الخاتون من المراكب حملت فى خركاة من الذهب على العجل وجرّها المماليك إلى دار السلطنة بالاسكندرية ، وبعث السلطان إلى خدمتها عدة من الحجاب وثمانى عشرة من الحرم . . . ثم عقد العقد وبنى عليها وأعاد الرسل بعد أن شملهم من الإنعام ما أربى على أملهم ، وحملوا معهم هدية جليلة[٢] .

حمل الهدايا

درجت الرسل على أن تحمل معها إلى المرسل إليه أطرف الهدايا وألطف المتع وأعجب ما عند المرسل وأندره . وكانت هذه الهدايا معرضاً فيه ألوان وضروب ، إذ كانوا يتفننون فى انتقائها واختيارها ويغالون فى جعلها مما يرضى ويعجب . فإذا اختاروا ما هو مألوف أخذوا منه أجوده وأحسنه وأغلاه .

وقد يرسل الرسل أحياناً لحمل هدية فقط للملك المرسل إليه . وقد يكون ذلك مع غرض آخر .

ولقد كانت عادة تقديم الهدايا معروفة لدى الأوربيين ، لكنها كانت معكوسة . فبدلاً من أن يقدّم الرسول إلى الملك كان الملك عند عودة الرسول يحمله هدية ثمينة . وهذا ضرب من إكرام الرسل .

وظلت هذه العادة متبعة طويلا لما فى ذلك من إكرام . على أنه قامت فى القرن السابع عشر منازعات منشؤها أن الهدية التى قدمت لسفير دولة كانت أكثر مما قدّم لسفير آخر .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢/٢٧٢ . (٢) خطط المقريزى ٢/ ٦٧ .

فعد ذلك إهانة له ولملكه واحتج على ذلك . ولما كثرت المنازعات منعت بعض الدول سفراءها من قبول أية هدية عند عودتهم وتبعتها سائر الدول فسقطت تلك العادة .

على أن الأمر فى الإسلام لم يكن كذلك . ولقد كانت الهدايا ذات شأن كبير كما ذكرنا حتى بلغ من شأنها أنه كان لها سجلات خاصة فى ديوان الخليفة زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك يقيّد فيها ما يرد من ملوك الدنيا من التحف والهدايا وما يرسل إليهم من الملاطفات (١) .

وكان يقصد بهذه الهدايا إظهار التعلق بالمرسل إليه واحترامه ، وكلما كانت الهدية عظيمة كان ذلك أدل على عظم شأن المرسل إليه .

وكانت فى أحايين أخرى تعد ضربا من الاعتراف بالسيادة ، كما كان يجرى بين صلاح الدين ونور الدين، أو تعد جزية يدفعها ملك ضعيف إلى ملك قوى كما كان يفعل ملوك اليمن . فقد كانوا يرسلون الهدايا لسلطان مصر إظهاراً لخضوعهم (٢) .

وكانت هـذه الهدايا تكتب فى ثبت وتقدم إلى الوزير ليلتمس من الخليفة أو السلطان قبولها ، فيشير الملك بحضورها فتعرض عليه مع ثبت يتضمن ما فيها فيقبلها (٣) .

ولعل من الطرافة أن نعرض عليك ألوانا من هذه الهدايا . فمنها هدية الرشيد لشارلمان وخبرها معروف . وذكر الصولى أن ملك الروم وافى الراضى بالله بهدايا كثيرة منها صياغات وثياب ديباج وآنية طريفة الصياغة (٤) . وكان الروم يهدون الخلفاء كثيراً .

وأهدى أحد ملوك المغرب مع رسوله للسلطان فى مصر مصحفاً جليلا غشّاه بالذهب المرصّع بالجوهر الرائع (٥) .

وأهدى أحد سلاطين مصر إلى الملك بركة التترى هدية اشتملت على فيل وزرافة وقرود وحمير وجملة كبيرة من ملبوس ومصاغ وشمعدانات فضّة وحصر عبدانية وأمتعة وأوانى صينى وثياب اسكندرانية (٦) .

ومن هدايا صلاح الدين إلى نور الدين هدية أرسلها سنة ٥٦٨ كان فيها أمتعة وآلات فضية

---

(١) خطط المقريزى ١/ ٣٩٧ . (٢) تاريخ المماليك البحرية ص ١٧١ .

(٣) آثار الأول ص ١١٢ . وانظر رسل الملوك لابن الفراء (الباب الثامن عشر) .

(٤) الأوراق ص ٩٨ . وانظر الروضتين فى أخبار الدولتين ١/ ١٢٣ ، وتجارب الأمم ٦/ ٢٠٨ .

(٥) السلوك ج ٢ ص ٩ .

(٦) عن النهج السديد ص ١١٢ . الحاشية ذات الرقم ٣ من السلوك ص ٤٩٧ ج ١ ق ١ .

وذهبية و بللورو بشم (حجر قريب من الزبرجد) وأشياء يعزّ وجودها، ومن الجواهر واللآلئ شيء عظيم [(١)] . وفى مرة ثانية أرسل إليه زبادى وسكارج و إبريق بشم وطشت بشم [(٢)] .
وأهدى ملك الروم الملك العادل هدية أكثرها من الديباج فقوبل بمثل ذلك [(٣)] .

ومن الوثائق المكتوبة عن الهدايا ما أورده القلقشندى عند ذكر هدية تونس إلى السلطان فرج برقوق . وكانت من خيل وكان فيها من كل جنس ومن كل لون . فكتب إليه السلطان :

« ... ولما عرضت علينا من جودكم عند العشىّ الصافنات الجياد وحلينا بقلائد منها الأجياد ، نقسم لقد حيرتنا ألوانها إذ خيَّرتنا .

فمن أشهب كأن الشهب له قنيصة ، أو الصباح ألبسه قميصه ، أو كأنما قلب من اللجين فى قالب البياض .

ومن أدهم كأن النقس لمسه فى مداده ، أو الطرف أمده بسواده ، أو كأنما تقمص إهاب الليل ...

ومن أحمر كأنما صيغ من الذهب ، أو لوّن من النار واللهب ، أو كأنما الشفق ألقى عليه قميصه ثم أشفق ، أو الشقيق أجرى عليه دما وجيبه شقَّق .

ومن أشقر ... ومن أخضر ... [(٤)] » .

الاستنفار والنجدة

وكثيرا ما كانت الرسل تسيَّر لطلب نجدة من ملك على ملك . وكانت هذه النجدات على نوعين : ضرب من الروم أو الهند يرسل إلى المسلمين ، وضرب من المسلمين يرسل إلى المسلمين .

ففى سنة ٦٦١ مثلا قدمت رسل الملك بركة (ملك الروم) تطلب النجدة على هولاكو ويخبرون بإسلامه وإسلام قومه [(٥)] .

---

(١) السلوك ج ١ ق ١ ص ٥٠ . (٢) السلوك ج ١ ق ١ ص ٥٥ .
(٣) الروضتين ١ / ١٢٣ (٤) صبح الأعشى ٧ / ٣٨٤ .
(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٩٥ .

وتذكر كتب التاريخ أن ابن طغلون امبراطور الهند أرسل إلى مصر وفدا يطلب إليه المساعدة على المغول[(١)] .

ولما مات الكامل قوى المجاهد أسد الدين صاحب حمص وأغار على حماة وحصرها واستعد أهل حلب واستنجدوا عسكرا من التركمان وعسكراً من الخوارزمية ، وكان قد صار إليهم عدة من أصحاب الملك الكامل فأكرموهم و بعثوا إلى السلطان غياث الدين كيخسرو ابن كيقباذ ملك الروم يسألونه إرسال نجدة[(٢)] .

وأكثر ما كانت النجدات تطلب زمن الصليبيين أيام اشتداد الحروب وكثرة عدد العدو وضعف المسلمين . فقد كان السلطان يومئذ يبعث إلى الآفاق رسلا يستنجدون أهل الإسلام على الفرنج[(٣)] .

ولقد استنجد مرة صلاح الدين أخاه سيف الإسلام صاحب اليمن واستقدمه ليعاونه على قتل الفرنج[(٤)] .

وكانت هذه الكتب ترسل من مصر إلى الآفاق ، وكانت الأندلس تستنجد مصر فى بعض الأحايين .

ومن أروع كتب الاستنفار والنجدة ما كتب صلاح الدين بن يوسف إلى المنصور يعقوب بن يوسف أحد الخلفاء الموحدين فى المغرب يستحثه على الروم الفرنج القاصدين بلاد الروم والديار المصرية .

ومما جاء فيه :

« ... وتظاهروا علينا وطاروا إلينا زرافات ووحدانا فلم يبق طاغية من طواغيهم ولا أثفية من أثافيهم إلا ألجم وأسرج وأجلب وأرهج وخرج وأخرج وجاد بنفسه أو بولده و بعَدَده و بعُدَدِه و بذات صدره وذات يده و بكتائبه برًّا و بمراكبه بحراً و بالأقوات للخيل والرجال . وأنهض أبطال الباطل من فارس وراجل ورامح ونابل وحاف وناعل . كلٌ خرج متطوعا وأهطع مسرعا حتى ظننا أن فى البحر طريقاً يبساً ... وزادت هذه الحشود المتوافية وتجافت

---

(١) دولة المماليك ص ٨٤ . (٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٥ . (٤) صبح الأعشى ٣٤٢/٧ .

عنها الهم المتجافية وكثرت إلى أن خرجت من سجن حصرها و بقية ثغرها — وهو صور — فنازلت ثغر عكا فى أسطول ملك بحره وجمع سلك بره ، فنهضنا إليه ونزلنا عليهم وعليه ، فضرب معنا مصافّ قتلت فيه فرسانه وجدّلت شجعانه وخذلت صلبانه وساوى الضرب بين حاسر القوم ودارعهم . فهنالك لاذوا بالخنادق يحفرونها و إلى الستائر ينصبونها وأخلدوا إلى الأرض متثاقلين ... ولو أن دربة عساكرنا فى البحر كدربتها فى البر لعجل الله منهم الانتصاف واستقل واحدنا بالعشرة ومِئتُنَا بالألف . وقد اشتهر خروج ملوك الكفار فى الجمع الجم والعدد الدهم . . ووصولهم على جهة القسطنطينية — يسر الله فتحها — على عزم الائتام إلى الشام فى منسلخ الشتاء ومستهل الصيف ، والعساكر الإسلامية لهم تستقبل و إلى حربهم تنتقل ، فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم و إليها و يفرغ لها و يتسلط عليها . و إذا قسمت القوّة على تلقى القادم وتوقى المقيم فربما أضر بالإسلام انقسامها .

ولم نر لمكاثرة البحر إلا بحراً من أساطيله المنصورة ، فإن عددها واف وشطرها كاف ، ويمكنه — أدام الله تمكينه — أن يمد الشام منه بعد كثيف وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع و يصيف . ويمكنه أن يكف شطراً لأسطول طاغية صقلية ليهيض جناح قلوعه قبل أن تطير وتعقله فى جزيرته ، ويجرى إليه قبل جريرته[١] ...

المحــــالفة

وكان الرسل يترددون بين الملوك لعقد محالفات تربط بعضهم ببعض . وقد كانت هذه المحالفات تجعل العلاقات السياسية والاقتصاد أحيانا بين الدولتين متينة وتنشىء نوعا من المعاضدة والمسالمة والدفاع .

ومن أبرز المحالفات التى عرفها تاريخ الدبلوماسية الإسلامية تحالف هارون الرشيد وشارلمان . وتحالف عبد الرحمن مع ملوك بزنطية الشرقية .

وتفصيل الأمر أن الدولة الأموية فى الأندلس قامت بقوة واندفاع ، فعظم أمرها واشتد أسرها . ولقد حاول المنصور العباسى أن يضربها فلم يفلح ، فقال الحمد لله الذى جعل البحر

(١) انظر الكتاب بتمامه فى صبح الأعشى ٦ /٥٢٦ .

بينه و بيننا . يعنى عبد الرحمن . وفى الغرب كانت دولتان كبيرتان أيضاً تتنازعان : دولة الفرنجة ودولة الروم الشرقية ، وكان بينهما خلاف شديد نشأ على أثر تكسير التماثيل التى قام بها اليون فى منتصف القرن الثامن تقريباً . وكانت كل دولة فى الغرب عدوة دولة فى الشرق . كانت بزنطية تخشى العباسيين؛ فالغزوات كانت بينهما قائمة قاعدة . وكان الخصام بينهما يشتد ولا يلين . لا يخفف منه غير معاهدات صلح تدفع الطرفين إلى الاستجمام والتسلح ومعاودة الغزو . وكانت دولة الفرنجة تخشى الأمويين فى الأندلس ، وكانت الغزوات بينهما قائمة أيضاً . كل ذلك أدى إلى إيجاد تحالف هارون وشارلمان أوجده رسله الذين وفدوا إلى بغداد ورسل هارون الذين ذهبوا إلى بلاط شارلمان . ويذكر هايد فى كتابه تاريخ التجارة أن هذا التحالف أدى إلى قيام صلات بين الدولتين ملؤها الاحترام والتقدير المتبادل. وكان من نتيجة هذا التحالف أيضاً أن استطاع حماية الحجيج إلى البلاد المقدسة ، ثم أعلن بطريرك النصارى فى القدس سنة ٧٩٩ لشارلمان حق الحماية على القدس والأراضى المقدسة .

وقد كان من نتائج هذا التحالف الثنائى بين شارلمان وهارون ، و بين عبد الرحمن و بزنطية أن أوجد شبه توازن عالمى يومئذ أثار غزوات وحروبا كثيرة[١] .

ومن أمثلة التحالف أيضاً تحالف صلاح الدين و إسحاق الثانى بعد فتح بيت المقدس . فقد أرسل صلاح الدين إلى إمبراطور الدولة البيزنطية إسحاق الثانى بعثاً ليخبره بما تم على يديه من الفتوح وليسلم إليه مائة وتسعين رجلا من رعايا الدولة البيزنطية . فنتج عن هذا البعث أن عقد الإمبراطور والسلطان حلفاً سنة ٥٨٥ كان من آثاره عداء عواهل غرب أوربة للدولة البيزنطية[٢] .

ودأب إسحاق الثانى على محالفته المسلمين حتى آخر حكمه سنة ١١٩٥ م[٣] .

---

(١) انظر للتوسع فى هذا :

Reinaud, Invasion des Sarrazins en France p. 92, 115, 116

Diehl et Marcais, le Monde Oriental de 395—1081

Vasiliev, Histoire dee l'Empire Byzantine

(٢) حاشية رقم ١ من ص ٩٨ ج ١ ق ١ حاشية رقم ٣ من السلوك 483 و Camb. Med. Hist. IV n 11

(٣) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٩ .

وفى المحالفة التى عقدت مع السلطان قلاوون من قبل ملك اليمن نص على الشروط التى ينبغى القيام بها . وقد جاء فيها : « أن يتعاضد الملكان معاً وأن يسالم ملك اليمن من سالمه قلاوون و يعادى من عاداه و ينصر من نصره و يخذل من خذله ، ولا يرضى له ولأولاده إلا ما يرضى لنفسه ، ولا يقبل فى حقه سعاية ولا قول واش ، ولا تناله منه مضرة مدى الدهر مادام ملازماً لشروط مودته[١] » .

وفى هذا اتحاد وتعاضد كفيلان بإبقاء المودة وضمان السلام بين الملكين .

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٢ .

مصادر البحث فى القسم الثانى

الكتب المخطوطة

تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط فى المكتبة الظاهرية بدمشق)
نقد الطالب لزغل المناصب لابن طولون (مخطوط فى خزانة المجمع العلمى العربى)
تاريخ مسجد دمشق لمؤلف مجهول (مخطوط فى دار الآثار القديمة بدمشق)
إنباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر (مخطوط فى باريس وصورة عنه فى خزانة المجمع العلمى بدمشق)

الكتب المطبوعة

تاريخ الرسل والملوك للطبرى
مروج الذهب للمسعودى
الكامل فى التاريخ لابن الأثير
تاريخ الأمراء والوزراء للصابى
تاريخ بغداد للخطيب
تاريخ مختصر الدول لابن العبرى
مهذب تاريخ دمشق لابن عساكر
الجامع المختصر فى عنوان التاريخ وعيون السير لابن الساعى
المنتظم لابن الجوزى
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى
تاريخ مصر لابن إياس
تاريخ مصر للعسقلانى
تاريخ ابن خلدون
تجارب الأمم لابن مسكويه
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامه
الفخرى فى الآداب
السلوك فى معرفة دول الملوك للمقريزى
الخطط والآثار للمقريزى
المختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى
البداية والنهاية لابن كثير
تاريخ ابن الوردى
التنبيه والإشراف للمسعودى
سياست نامه لنظام الملك
آثار الأول فى ترتيب الدول
الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على
الأحكام السلطانية للماوردى
الأحكام السلطانية لأبى يعلى
صبح الأعشى للقلقشندى
كتاب البلدان لابن الفقيه
معجم البلدان لياقوت
دولة المماليك فى مصر لوليم مور
أدب الوزير للماوردى
مسند أحمد بن حنبل
معجم الأدباء لياقوت
الأوراق للصولى
نفح الطيب للمقرى
صلاح الدين وعصره لأبى حديد
تاريخ المماليك البحرية لعلى ابراهيم حسن
المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى لڤييت
حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى
الفتح المبين للنووى
دائرة معارف البستانى
دائرة معارف وجدى
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى لزكى محمد حسن
مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لعبد الله عنان
السفارات السلطانية والخلافية لعبد الله عنان
الصين وفنون الإسلام لزكى محمد حسن
كنوز الفاطميين « « «
الفهرست لابن النديم
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لآدم متز
النجوم الزاهرة
نصاب الاحتساب فى الفتاوى للشامى
الشرع الدولى فى الإسلام للدكتور الأرمنازى
تاج العروس
اللسان
القاموس

الكتب الفرنسية

P. de Thiersant, Le Mohamètisme en Chine.

F. Quatremere, Histoire des sultans Mamlouks.

H. Lammens, Correspondances diplomatiques entre les sultans Mamlouks d'Egypte et les puissances chrétiennes. (dans Rev. Or. Chrét 1904).

H. Lammens, Relations entre la cour de Romaine et les sultans Mamlonks d'Egypte. (dans Rev. Or. Chrét 1903).

W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen-age. (trad. franç)

N. Jorga, Points de vue sur l'histoire du commerce de l'Orient au Moyen-age.

Diehl et Marçais, Le moude Oriental de 395 — 1081.

A. A. Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantin.

L. H. Vincent, Le protectorat de Charlemagne sur la Terre-Sainte. (dans Rev. Bibl t XXXVI, 1927).

A. A. Vasiliev, Byzance et les Arabes.

Lavisse et Rambaud, Histoire Générale.

La Peinture au Museé du Louvre. Ency. de l'Islam.

من الكتب الانجليزية

A. S. Atiya, The Crusades in the Later Middle Ages.

A. S. Atiya, Egypt and Aragaon.

Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages.

فهرس الجزء الثانى

من كتاب رسل الملوك

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

فهارس

كتاب رسل الملوك

ومن يصلح للرسالة والسفارة

— ١ —

الرسل الواردة فى كتاب « رسل الملوك »

— ٢ —

أسماء البلدان والمحال

— ٣ —

الكتب الواردة فى متن رسل الملوك

ملحــــق

فى مكتبة برلين نسختان من كتاب السياسة الذى صنفه أرسطاطاليس لتلميذه الإسكندر ونقله إلى العربية يوحنا البطريق (٢٠٠/٨١٥). نثبت هنا ما فيه من الفصول .

النسخة الأولى 5603 Spr. 943

كتاب السياسة فى تدبير الرياسة

تصنيف الحكيم الفاضل أرسطاطاليس لتلميذه الملك

الإسكندر بن فيليبس اليونانى المعروف بذى القرنين

مبدؤه :

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد .

أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأيده على حماية الدين وأبقاه لرعاية أحوال المسلمين فإن عبده امتثل أمره والتزم مأخذه من البحث عن كتاب السياسة .

مقالاته :

المقالة ١ — فى أصناف الملوك . الملوك أربعة ...

٢ — القول الثانى فى تدبير الملك . مما يجب على الملك .

٣ — الكلام فى العدل . يا إسكندر العدل صفة كريمة .

٤ — فى صفة وزير الملك ووجه سياسته وتجربة رأيه وصورة العقل المركب فيه . يا إسكندر تفهم هذه المقالة .

القول فى الرعية . قد علمت يا إسكندر أن الرعية ...

٥ — فى الرسل . اعلم يا إسكندر وفقك الله أن الرسول يدل على عقل المرسل .

٦ — (ا) فى الأجناد . يا إسكندر الأجناد زبدة المملكة .

(ب) القول فى الحروب . يا إسكندر لا تباشر الحروب بنفسك .

(ج) القول فى العدد المخرج للغالب والمغلوب . هذا يا إسكندر السر الذى كنت أضعه لك عند لقائك أعدائك .

(د) القول فى الفراسة . يا إسكندر لما كان علم الفراسة من العلوم اللطيفة ...

٧ — فى الطب لما كان هذا الجسد الفانى يدخله الفساد ...

الـكلام فى خواص الأحجار

الخاتمة : ياإسكندر كتابى هذا كاف فيما سألته وهو يقوم مقامى إذا تصفحته وتفهمته فاجعله نجاة فـكرك .
... وتعلو على جميع ملوك الدنيا . والله خليفتى عليك وهو حسبنا ونعم الوكيل .
أما النسخة الثانية فهى برقم 5121 4bg 5604 . وهى تختلف عن الأولى فى مقالاتها .

كتاب السياسة فى تدبير الرياسة

المعروف بسر الأسراء

الذى ألفه الفيلسوف الفاضل أرسطاطاليس لتلميذه الملك الأعظم الإسكندر ابن فيلبوس الفلودى المعروف بذى القرنين .

وهذا الـكتاب مؤلف من عشر مقالات .

مقالة ٢ — فى حال الملك وهيئته وكيف يجب أن يكون مأخذه على خاصة نفسه . فصل فى حفظ الصحة .
فصل فى السلطان .
فصل فى فصول السنة .
الـكلام على أجزاء الجسد .
ذكر المياه .
ذكر الأغذية .
القول فى الحمام .
القول فى الشراب .
صنعة العسل الذى يركب منه الدواء .
إختبار القصد والحجامة .
إختبارات لشرب الأدوية .
باب مختصر فى علم الفراسة .

٣ — فى صورة العدل .

٤ — فى الوزراء وعددهم ووجه سياستهم وتجربة آرائهم صورة العقل المركب منهم .

٥ — فى كتّاب سجلاته ومراتبهم .

٦ — فى سفرائه وهيئآتهم ووجه السياسة فى بعثهم .

٧ — فى الناظرين على رعيته وخراجاتها .

٨ — فى سياسة قواده والأساورة من أجناده .

٩ — (ا) فى سياسة الحروب وصورة مكائدها والتحفظ من عواقبها وترتيب لقاء الجيوش والأوقات المختارة لذلك .
(ب) القول فى الغالب والمغلوب .

١٠ - فى علوم خاصية من علم الطلسمات وأسرار النجوم واستمالة النفوس وخواص الأحجار والنبات .

الخاتمة : وقد أكملت لك يا إسكندر جميع ما رغبت على حسب ماشرطت وقمت لك بحق الخدمة وذلك بعض مايجب لك عليّ فكن به مؤيداً موفقاً سعيدا . إن شاء الله تعالى .

قسم

Politischer Verkehr.
Die
Handschriften - Verzeichnisse
Der
Koniglichen Bibliothek Zu Berlin
W. Ahlwardt
1863
Berlin

نقل عن هذا الكتاب الطرطوشى محمد بن الوليد فى كتابه سراج الملوك فى الباب الثالث والأربعين فيما يملك السلطان من الرعية .

وقد دخلت حديثاً إلى دار الكتب الظاهرية نسخة من كتاب السياسة هذا .

— ٤ —

الالفاظ الدالة على الحضارة

— ٥ —

الأعــــلام

فى المتن والحــواشى

(أ)

(ب)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

تراجم الأعلام الواردة

فى متن رسل الملوك

١ — ابراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم (٨ — ٩)

ابن رسول الله من مارية القبطية . كان من أحب الناس إليه صلى الله عليه وسلم . ولما مات وجد عليه وبكى . وقال : « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب . ولولا أنه وعد صادق وموعد جامع وأن الآخر منا يتبع الأول . لوجدنا عليك أشد مما وجدنا ، وإنا بك لمحزونون » . وكان له من العمر ثمانية عشر شهراً .

انظر :

أسد الغابة ٣٨/١ . الاستيعاب ٢٢/١ رقم ١ . فتوح مصر لابن عبد الحكم ٤٦
الكامل لابن الأثير ١٨٦/٢ . شذرات الذهب ١٣/١ — ١٧ . فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٨
الطبرى I : ١١٢٨ — ١٦٨٦ — ١٧٧٤ — ١٧٧٥ — ٢٤٨٠ — III : ٢١٢ — ٢٤٢٩ — ٢٤٦١ — ٢٤١٣ .

أبو الأسود الدؤلى (٠٠ — ٩٦) / ٦٨٨ .

ظالم بن عمرو . مخضرم . أسلم فى حياة النبى ولم يره . كان أحد سادات التابعين والمحدثين والفقهاء والشعراء والأشراف والدهاة والحاضرى الجواب . ومن مشاهير البخلاء . والأكثر على أنه أول من وضع قواعد العربية شهد مع علىّ كرم الله وجهه صفين . مات بالطاعون .

انظر :

أسد الغابة ٧٠/٣ . معجم الأدباء ٣٤/١٢ . نزهة الألباء /٩ . الفهرست لابن النديم /٤٠
طبقات القراء لابن الجزرى ٣٤٥/١ . الأغانى ٦٣/١ (وانظر فهرست الأغانى ٤٠/١) .
البيان والتبيين للجاحظ ٢٩١/١ — ٢٥٨ — ١٤٧/٣ . ومقالة الأستاذ Reckendorf فى دائرة المعارف الإسلامية . الطبرى I : ٣١١٥ — ٣١١٧ — ٣١٢٢ — ٣٣٦٧ — ٣٣٧ — ٣٣٩٠ — ٣٤٤٨ — ٣٤٥٣ — ٣٤٦٧ — ٣٤٧٤ III : ٢٥٤٧ . وفيات الأعيان ٣٠١/١ .
شذرات الذهب ٧٦/١ . البلاذرى ٣٥٤ — ٣٧٩ . تهذيب التهذيب ٣٧/٥ . بروكلمن ٤٢/١

٣ — أردشير (٢٢٦ ق . م — ٢٤١) .

انظر :

الأخبار الطوال / ٨٥ — ٥٧ — ٤٧ — ٤٤ . التنبيه والإشراف /٨٧ . البلاذرى /٣٨٦ .
الطبرى I ٣٥٤ — ٦٨٧ — ٧٠٤ — ٧٠٨ — ٧١٠ — ٧١١ — ٧٤٤ — ٧٤٧ — ٨٦٩ — ٨١٣ — ٨٢٥ — ٨٣١ — ٨٩٨ — ١٠٦٥ — ٢٠٢٣ — ٢٢٦٩ — ٢٤٤٨ — ٢٨٨٤ III ١٤٤٨

٤ — إسكندر المقدونى (٣٥٦ ق . م. — ٣٢٣) :

إسكندر المقدونى الكبير . ملك مقدونيا . أدبه أرسطو . تولى العرش سنة ٣٣٦ ق . م . أخضع لحكمه اليونان ثم غزا الشرق فاستولى على سورية ومصر وبنى الإسكندرية ثم عاد فجاز دجلة والفرات إلى الفرس فانتصر عليهم وتابع سيره فأخذ بابل وتقدم حتى بلغ الهند . ثم عاد إلى بابل وحم فيها ومات وعمره ثلاث وثلاثون سنة .

انظر :

الجزء الأول من فهرست الطبرى ١/١٨٥ . اليعقوبى ١/٩٦ . سعيد بن البطريق : بوكوك /٢٨١ . الأخبار القوية عن الحوادث القديمة لأبى الفداء (ذيل الآثار الباقية للطبرى) /١٦١ . صبح الأعشى ٥/٣٥٠ . البيان والتبيين ٢/١٣٣ . الأغانى ٣/١٤٢ . ومقالة : ر . جست R. Guest فى دائرة المعارف و Olexaudre le grrud. Georu Radet. Paris 1931 . تاريخ اليعقوبى ١/٩٢ — ٩٦ — ٩٧ — ١٦١ — ١٦٣ . الأخبار الطوال ٤١ ، ٤٢ ، ٣١ — ٣٩ — ٦ ، ٢٢ ، ١٠٨ .

٥ — أفلاطون (٤٢٠ ق. م. — ٣٤٧) .

فيلسوف يونانى شهير . تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو . مؤلف محاورات « كريتون وفيدون » وفيدر . وله جورجياس والجمهورية والقوانين وقد نقل العرب طائفة من كتبه أيام المأمون .

انظر :

الفهرست /٢٤٥ . القفطى ١٧ — ٢٧ ط . ليبر . ابن أبى أصيبعة ١/٤٩ — ٥٤ . تاريخ اليعقوبى ١/١٣٥ . مروج الذهب (اريس) ٢/٢٥٠ وما بعدها . مقالة Carra de Vaux فى دائرة المعارف الإسلامية .

٦ — أكثم بن صيفى .

أحد الخطباء البلغاء ، والحكام الرؤساء ، فى الجاهلية . أدرك البعثة ولم يسلم . عمر طويلا . كان رفيع المكانة فى قومه عالما بالأنساب حكيما يضرب الأمثال . أوفد رئيسا للوفد الذى مثل إلى كسرى فقال له كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

انظر :

البيان والتبيين ١/٢٨٣ . الأغانى ١٥/٧٠ . تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٩ . ٢/١١ .

٧ — باسيل بن اليون المقدونى .Borile 1 er (٠٠ — ٨٨٦) .

مؤسس الأسرة المقدونية وامبراطور دولة الروم الشرقية . حكم من سنة ٨٦٧ إلى سنة ٨٨٦ . وجهد أن يرد غزوات العرب فى البر والبحر . فى زمنه أخذ العرب صقلية ولكنه قاتلهم فيها ونشر السيادة البزنطية فى جنوب إيطاليا . وكان عهده مبدأ تنظيم وعظمة الامبراطورية البزنطية . عاصر من الخلفاء العباسيين المعتز والمهتدى والمعتمد .

انظر Bygauce de le Monde musnlman G. Desmom bynes P, 458 :

مروج الذهب 4/458 N. Larousse Illus tse P .

٨ — البحترى (٢٠٦هـ — ٢٨٤) /٨٩٧ م .

الوليد بن عبد الله . أبو عبادة . شاعر مشهور . ولد بمنبج . كان أديبا فصيحا بليغا مجودا فى الشعر قدمه بعض أهل عصره على أبى تمام . مدح المتوكل . ديوانه مطبوع . له ديوان الحماسة .

انظر :

معجم الأدباء ٢٨٤/١٩ . معجم الشعراء للمرزبانى /٤٦١ . الأغانى ١٦٧/١٨ — ١٧٥ (انظر فهرست الأغانى ٥٩/١) . الفهرست لابن النديم /١٦٥ . وفيات الأعيان ٢٣١/٢ . مخطوطة ابن عساكر ٩/ورقة ٤٥٧ — أ (ملك الظاهرية) . مقالة مرجوليوث Margoliouth فى دائرة المعارف الإسلامية . شذرات الذهب ١٨٦/٣ . الطبرى ط. أوروبة III : ٩٦٨ — ١٣١٤ — ١٤٤٨ — ١٦٥٣ .

٩ — البلخى . (٢٣٤ — ٣٢٢) / ٩٣٤ .

أحمد بن سهل ، أبو زيد ، كان عالما فاضلا قائما بجميع العلوم يسلك فى مصنفاته طريق الفلاسفة . وكان بأهل الأدب أشبه . علم الصبيان فى شبابه ثم رفعه العلم إلى مرتبة علية وكان يسمى بالعراق : جاحظ خراسان . مات وعمره ثمان وثمانون سنة .

انظر :

معجم الأدباء ياقوت ط رفاعى ٦٥/٣ . الفهرست لابن النديم /١٣٨ . البدء والتاريخ ٩/١ ، ٥/٣ . مقالة Huart فى دائرة المعارف .

١٠ — جابر بن عبد الله .

انظر :

فهرست الطبرى ط. أوروبة ٩٣/١ . الأخبار الطوال ٣٣١ — ٣٣٢ . تاريخ اليعقوبى ٢٣١/٢ — ٢٦٩ — ٣٢٥ — ٣٨٤ . أسد الغابة ٢٥٦/١ . الاستيعاب ٨٦/١ ، ٢٩٢ رقم الأغانى ج ٢٢/١٤ .

١١ — جرير بن اسماعيل البجلى .

لم أجد له ترجمة .

١٢ — جيفر بن الجلندى .

كان رئيس أهل عمان ، هو وأخوه عبد بن الجلندى . أسلما على يد عمرو بن العاص حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ناحية عمان . ولم يقدما على النبى ولم يرياه وكان إسلامهما بعد خيبر .

انظر :

الاستيعاب ١٠١/١ : رقم ٣٨٠ . ط . أوروبة الكامل لابن الأثير : ١٨٥/٢ . ط . أوروبة البلاذرى ٧٦ — ٧٧ . الطبرى I . ١٥٦١ — ١٦٠٠ — ١٦٨٦ — ١٨٩٤ — ١٩٧٧ ١٩٧٨ . تاريخ اليعقوبى ٨٥/٢ — ١٣٦ .

١٣ — حاطب بن أبي بلتعة (٢٥ ق هـ — ٣٠ هـ) .

صحابي مشهور شهد بدرا وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله . بعثه رسول الله بكتاب إلى المقوقس . كان أحد الرماة المذكورين . وكان تاجرا يبيع الطعام وغيره .

انظر :

الطبقات الكبير ٣/٨٠ ق ١. الإصابة ١/٣١٤ . رقم ١٥٣٣ . أسد الغابة ١/٣٦١ . الاستيعاب ١/١٣٣ . رقم ٥٢٢ . الكامل لابن الأثير ٢/١٥٣ . فتوح مصر لابن عبد الحكم / ٤٥ . الإمتاع والمؤانسة ٣/١٧٩ . ط القدسى . شذرات الذهب ١/٣٧ . الطبرى I . ١٥٥٩ — ١٥٦١ — ١٥٩١ — ١٦٢٦ — ١٦٢٧ — III ٢٤٦٢ — ٢٥٣٩ — ٢٥٤٢ تهذيب التهذيب ٢/١٦٨ . تاريخ اليعقوبى ٢/٥٨ ، ٨٤ .

١٤ — الحجاج بن يوسف (٤٥ — ٩٥) .

ولد ونشأ بالطائف . انتقل إلى الشام وكان فى شرطة روح بن زنباع ، قاتل عبد الله بن الزبير . ثم صار عامل عبدالملك بن مروان على العراق وخراسان . ولما توفى عبد الملك أبقاه الوليد . وكان قائداً بطاشا سفاكا داهية خطيبا . وهو الذى بنى واسط .

انظر :

الأعلام ١/٢١٢ . معجم البلدان . وفيات الأعيان (بولاق) ١/١٥٣ . الأغانى ١٢/٣١ ٧٤ (فهرست الأغانى ١/١١٧) . البيان والتبيين — (الرحمانية) ١/٢٢٦ — ٢٣٧ — ٢٩٧ . شذرات الذهب . (القدسى) ١/٦٨ — ٧٩ — ٨٣٠ — ، ٨٦ — ٨٨ ، ٩٢ — ٩٤ — ، ١٠٠ — ١٠٦ . الأعلاق النفيسة لابن رسته /٢١٦ . فهرس الطبرى ط . أوروبة ١/١٢٤ . الأخبار الطوال ٢٨٥ — ٢٨٩ — ٣٣١ — ٣٢٩ — ٣٩٩ — ٢٩٦ . مقالة Lammens فى دائرة المعارف . تهذيب التهذيب ٢/٢١٠ . البلاذرى ٤٧ — ٦٧ — ٦٨ ، ٧٣ — ١٦٢ — ١٦٧ — ٢٣١ — ٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٨١ — ٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٣ — ٢٩٤ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣١١ — ٣٢٣ — ٣٢٤ — ٣٢٥ — ٣٣٣ — ٣٤٩ — ٣٥٢ — ٣٠٥ — ٣٦٠ — ٣٦١ — ٣٦٤ J. Perier, Vied'Al Hadjad ibn Yousof al Taqafii الكامل للمبرد (أوروبة) ١٥٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٥ ...

١٥ — دحية بن خليفة .

صحابى مشهور . أسلم قديما ولم يشهد بدرا شهد المشاهد مع رسول الله بعد بدر . كان يضرب به المثل فى حسن الصورة . وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته وكان إذا قدم المدينة لم تبق معصر إلا خرجت تنظر إليه . وكان رسول النبى إلى قيصر . شهد اليرموك وكان على كردوس . نزل دمشق وسكن المزّة وعاش إلى خلافة معاوية .

انظر :

الطبقات الكبير ٤/١٨٤ . ا ق . الإصابة ٢/١٦٢ . رقم ٢٣٨٦ . أسد الغابة ٢/١٣٠ . الاستيعاب ١/١٧٢ . رقم ٦٨٧ . الأغانى ٦/٩٣ . أنظر فهرس الطبرى ١/١٧٩ . مقالة Lammens بدائرة المعارف . تهذيب التهذيب ٣/٢٠٧ . تاريخ اليعقوبى ٢/٧٤ — ٨٣ . سيرة ابن هشام ٦٨٥ ، ٧٥٨ ، ٩٧١ ، ٩٧٤ .

١٦ — زياد بن أبيه (عام الفتح — ٥٣ هـ).

أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة الخطباء. ولد فى الطائف اختلفوا فى اسم أبيه. قالوا إنه عبيد الثقفى وقالوا أبو سفيان. ولدته أمه سميّة (جارية الحارث بن كلدة) وتبنّاه عبيد (مولى الحارث). أسلم فى عهد أبى بكر. وكان كاتب أبى موسى الأشعرى أيام إمارته على البصرة. ولاه على إمرة فارس. ألحقه معاوية بنسبة سنة ٤٤. ثم ولاه البصرة والكوفة وسائر العراق. وهو صاحب الخطبة البتراء.

انظر:

الأعلام ٣٤٠/١. الأغانى ٣/١٦ (وفهرست الأغانى ٢٠٢/١). الاستيعاب ٢٠١/١. رقم ٨٢٩. البيان والتبيين ٤٧/٢ (الخطبة البتراء). شذرات الذهب ٥٩/١ الطبرى فهرس ط. أوروبة ٢١١/١. البلاذرى. ٢٧٦ — ٢٧٧ — ٢٨٠ — ٢٨٧ — ٢٨٨ — ٣٠٠ — ٣٠٨ — ٣٤٤ — ٣٤٥ — ٣٤٧ — ٣٤٩ — ٣٥٠ — ٣٥١ — ٣٧٠ — ٣٧٧ — ٣٩٧ — ٤٠٣ — ٤٠٩ — ٤٣٣ — ٤٦٤. فهرست الأخبار الطوال ص ٢٤.

١٧ — سليمان بن على بن عبد الله (٨٢ — ١٤٢).

أمير عباسى من الأجواد الممدوحين. ولاه ابن أخيه السفاح إمارة البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعمان سنة ١٣٣. فأقام فيها إلى أن عزله المنصور سنة ١٣٩. فلم يزل فى البصرة حتى مات.

انظر:

الأعلام ٣٨٩/١. الأغانى ٩٢/٤. فهرست الأغانى ٢٣٦/٢. البيان والتبيين ٢٧١/٢. البلاذرى ١٥١ — ٣٤٩ — ٣٥٣ — ٣٦٣ — ٣٦٧ — ٣٦٩ — ٣٧١. شذرات الذهب ٢١٠/١. تهذيب التهذيب ٢١١/٤. تاريخ اليعقوبى ٣٨٦/٢ — ٤١٩ — ٤٣٥ — ٤٣٩ — ٤٤٢ — ٤٦١. الطبرى II ١٢٤٦. III ٧٣ — ٧٧ — ٧٨ — ٨١ — ٩١ — ٩٨ — ٩٩ — ١٢١ — ١٢٤ — ١٢٦ — ١٤٥ — ٤١٩ — ٤٧٨.

١٨ — سليط بن قيس (٠٠ — ١٤ هـ).

صحابى شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. لما أسلم كان يكسر أصنام بنى عدى بن النجار. قتل شهيدا. وليس له عقب.

انظر:

الطبقات الكبير ٢٠٦٩/٣ ق. الإصابة ١٢٣/٣. رقم ٣٤١٨. أسد الغابة ٣٤٥/٢. الاستيعاب ٥٩٦/٢. رقم ٢٥٣٦. البلاذرى ٨٦ — ٢٥٠ — ٢٥١ — ٢٥٣. الطبرى ١٤٩٧ — ٢١٦٠ — ٢١٦٢ — ٢١٧٥ — ٢١٧٧ — ٢١٧٩ — ٢٣٠٦ — ٢٤٧٤. الأخبار الطوال ١١٩ — ١١٨.

١٩ — شجاع بن وهب (٣٠ ق. هـ ١٢).

من السابقين الأولين. كان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية. بعث به رسول الله سرية فى أربعة وعشرين رجلا إلى هوازن. كان رسول النبى إلى المنذر أو الحارث بن أبى شمر الغسانى. شهد بدرا

وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله . قتل يوم اليمامة شهيدا سنة اثنتى عشرة وهو ابن بضع وأربعين سنة .

انظر :

الطبقات الكبير ٣/٦٦ . اق . الإصابة ٣/١٤٩ . رقم ٣٨٣٦ . أسد الغابة ٢/٣٨٦ . الاستيعاب ٢/٦٠٩ رقم ٢٦٢١ . البلاذرى ٩١ .

٢٠ — الشعبى (١٩ — ١٠٣) .

عامر بن عبد الله بن شراحيل . تابعى جليل القدر وافر العلم راوية يضرب المثل بحفظه . ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة . اتصل بعبد الملك وكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم . كان ضئيلا نحيفا ولد لسبعة أشهر . وهو من رجال الحديث الثقات .

انظر :

الطبقات الكبير ٦/١٧١ . الأخبار الطوال ٢٢ — ٢٠ — ١ — ٢٩٧ . الأخبار الطوال ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٣٢٢ . وفيات الأعيان ١/٣٠٦ . الأعلام ٢/٤٦٤ . الأغانى ١٤/٩٧ (فهرست الأغانى ٢/٢٥٠) . مهذب تاريخ ابن عساكر ٧/١٣٨ . تاريخ بغداد ١٢/٢٢٧ . تهذيب التهذيب ٥/٦٥ . فهرست ابن النديم ٢٦ . شذرات الذهب ٢/١٢٦ . البلاذرى ٣٢٠ انظر ج ١ (ص ٢٧١) من فهرست الطبرى .

٢١ — شمر بن الحارث .

لم أجد له ترجمة وافية .

٢٢ — أبو العتاهية (١٣٠ — ٢١١) .

إسماعيل بن القاسم . شاعر عباسى مكثر . نشأ فى الكوفة وسكن بغداد ، فى شعره إبداع ، يعدّ من طبقة بشار وأبى نواس . زهدياته مشهورة . اتصل بالخلفاء فى صدر عمره وأفاد منهم . ديوانه مطبوع .

انظر :

الأعلام ١/١١٠ . وفيات الأعيان ١/٨٩ . الأغانى ٣/١٢٢ (فهرست الأغانى ٢/٢٣١) . فهرست ابن النديم /١٦٠ . مقالة أويستروب Oestrtz فى دائرة المعارف الإسلامية . شذرات الذهب ٢/٢٥ . الطبرى ٥٢٥ — ٦٨٧ — ٦٩٧ — ١٠٩٨ — ١١٥٣ — ١٤١١ . الأخبار الطوال للدينورى . أوروبة . ٢١ — ٢٢ — ٣٨٧ . بروكلمن ١/٧٨ .

٢٣ — عبد بن الجلندى (انظر جيفر بن الجلندى) .

البلاذرى ٧٦ — ٧٧ . الطبرى I ١٥٦١ — ١٦٠٠ — ١٩٧٧ — ١٩٧٨ .

٢٤ — أم عبد الرحمن بن حسان .

سيرين أخت مارية القبطية . أهداها الرسول عليه السلام إلى حسان فولدت له عبد الرحمن .

انظر :
الإصابة ١١٨/٨ . ٦٠٦ رقم . الطبرى . ١٥٢٨ — ١٥٩١ — ١٧٨١ — ٢٤٦١ — ٢٤٦٢ .

٢٥ — عبد الرحمن بن حسان (٦ — ١٠٤) .

ابن سيرين القبطية . كان شاعراً معروفا . روى عن أبيه . له مع يزيد بن معاوية أخبار طوال بعد أن تغزل بأخته رمله بنت معاوية .

انظر :
الطبقات الكبير ١٩١/٥ . الأعلام ٤٩١/٢ . الأغانى ١٠٤/١ (فهرست الأغانى ١٠٤/١) . البيان والتبيين ١٥٢/١ . الطبرى I ١٥٢٨ — ١٥٩١ — ١٧٨١ . III ٢٤٦٢ . تهذيب التهذيب ١٦٢/٦ .

٢٦ — عبد العزيز بن مروان (٠٠ — ٨٥) / ٧٠٤ .

أخو عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو الأصبغ . أمير مصر طوال عشرين عاما وعشرة أشهر . بدأت إمارته سنة ٦٥ . سكن حلوان فأعجبته وبنى فيها الدور والمساجد وغرس بها الكرم والنخيل . توفى بها سنة ٨٦ . وكان من الأجواد الكرام .

انظر :
ولاة مصر للكندى ٤٦ — ٥٨ . خطط المقريزى ٢١٠/١ . أعلام الزركلى ٥٤٩/٢ . الأغانى ١٤٩/٦ . فهرست الأغانى ٣١٤/٢٢ . تاريخ ابن عساكر ورقة ٤٤٩ — ب/٥ ج . البلاذرى ٣٢ — ٢٢٩ — ٢٣٠ . الطبقات الكبير ١٧٥/٥ . شذرات الذهب ٩٥/١ . تهذيب التهذيب ٣٥٦/٦ . الطبرى I ٤٨٥ . II . ٣٩٧ — ٤٧٩ — ٥٧٦ — ٧٨٩ — ٧٩٢ - ١١٣٦ — ١١٦٤ — ١١٦٩ — ١١٧١ — III . ٢٥٥٢ . تاريخ اليعقوبى ٣٠٦/٢ — ٣٠٧ — ٣٢٤ — ٣٣١ — ٣٣٤ — ٣٣٥ — ٣٦٦ . مقالة Zettersteen فى دائرة المعارف .

٢٧ — عبد الله بن حذافة السهمى .

صحابى جليل قديم الإسلام . لم يشهد بدرا ، كان من مهاجرة الحبشة الهجرة الثانية . أرسل إلى كسرى رسولا . شهد فتح مصر . رافق جيشا فى خلافة عمر إلى ملك الروم فأسره الروم وعذبه ملكهم على أن يتنصر فأبى ، مات فى خلافة عثمان .

انظر :
الطبقات الكبير ٤ ج ١/ق ١٣٩/ . الإصابة ٥٦/٤ ص — رقم ٤٦١٣ . أسد الغابة ١٤٢/٣ . الاستيعاب ٣٥٧/١ ص — ١٤٨٩ رقم . البلاذرى ٢١٦ — ٢٢١ — ٢٩٢ . تهذيب التهذيب ١٨٥/٥ . الطبرى I . ١٥٦ — ١٥٧١ — ١٥٧٢ — ١٦٥١ . تاريخ اليعقوبى ٨٣/١ .

٢٨ — عبد الله بن العباس (٣ ق هـ — ٦٨).

صحابى جليل حبر الأمة ولد بمكة ولازم الرسول . له فى الصحيحين ١٦٦٠ حديثا . وكان عمر يلجأ إليه فيما أشكل عليه . ولحسان بن ثابت فى وصفه وذكر فضائله شعر .

انظر :

الطبقات الكبير . تاريخ اليعقوبى ٢٠٤/٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ . الإصابة ٥٦٢/٢ — رقم . أسد الغابة ١٩٣/٣ . الاستيعاب ١ ج/٣٨٣ ص — رقم ١٥٩٣ . فهرست ابن النديم ١٠١ — ٢٠٦ — ٢٣٢ . تاريخ ابن عساكر ورقة ١٤٨ — ٥/١ . البلاذرى ١٤ — ٧٤ — ٣٩٠ — ٣٩٥ — ٤١٢ . الطبرى . انظر فهرس الطبرى ٣٢٧/١ . الأخبار الطوال الفهرست ص ٣٣ . شذرات الذهب ٧٥/١ . تهذيب التهذيب ٢٧٧/٥ مقالة F. Buhl فى دائرة المعارف .

٢٩ — عبد الملك بن مروان (٢٠ — ٨٦)/٧٠٥ .

من أعظم خلفاء بنى أمية . نشأ فى المدينة فقيهاً واسع العلم متعبدا . شهد يوم الدار مع أبيه . استعمله معاوية على المدينة . انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ . كان جبارا قوى الهيئة ، نقلت فى أيامه الدواوين الفارسية والرومية إلى العربية . أول من صك الدنانير فى الإسلام .

أنظر :

الطبقات الكبير ١٦٥/٥ . الأعلام ٦٠١/٢ . تاريخ ابن عساكر ورقة ٤٨٦ — ٥/١ (٢٢ ت) دائرة المعارف الإسلامية . فهرست الأخبار ص ٣٥ . تهذيب التهذيب ٤٢٢/٦ . الطبرى . انظر الفهرست ١ ج/٣٦٠ . الأغانى ١٦/١ . فهرست الأغانى ٣١٧/٢٢ . فهرست ابن النديم ٨٩ — ١٠٢ — ١٢٠ — ١٦٠ . شذرات الذهب ٨٢/١ — ٩٧ . البلاذرى . ٦ — ٣٢ — ٣٥ — ٤٧ — ٥٤ — ٨٩ — ١١٧ — ١٢٥ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٣٢ — ١٤٣ — ١٤٤ — ١٤٦ — ١٥٤ — ١٦٠ — ١٦٢ — ١٨٠ — ١٨١ — ١٨٨ — ١٩٣ — ٢٠٥ — ٢١٦ — ٢٢٩ — ٢٤٠ — ٢٨١ — ٢٩٠ — ٣٣٢ — ٣٦٢ — ٣٦٨ — ٣٨٣ . مقالة Zetterstéen فى دائرة المعارف . ابن الأثير (أوروبة) ٩١/٤ وما بعدها .

٣٠ — العلاء بن الحضرمى (٠٠ — ١٤ هـ ٢١ ش).

صحابى استعمله الرسول على البحرين . أقره أبو بكر ثم عمر . كان مجاب الدعوة . بعثه الرسول إلى المنذر بن ساوى بالبحرين .

انظر :

الطبقات الكبير ٢/٤ ق/٧٦ ص . الإصابة ٢٥٩/٤ رقم ٥٦٣٦ . أسد الغابة ٢٥٧/٤ . الاستيعاب ٥١٨/٢ — رقم ٢١٢٧ . الأغانى ١٤/١٤ — ٤٤ — ٤٦ . شذرات الذهب ٣٢/١ البلاذرى ٧٨ — ٨٩ — ٨٠ — ٨١ — ٨٣ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٦ — ٩٠ — ٣٨٦ — ٤٧٢ — ٤٧٣ . الطبرى . الفهرس ٣٩١/١ .

٣١ — على بن أبى طالب (٢٣ ق هـ — ٤٠ هـ) / ٦٦٠ .

أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين أحد العشرة المبشرين ابن عم النبي وصهره . بطل بليغ خطيب . كان أول الناس إسلاماً بعد خديجة . وصاحب لواء الرسول فى كل مشهد . بويع له بالخلافة بعد عثمان سنة ٣٥ هـ . فى أيامه كانت وقعة الجمل فانتصر فيها سنة ٣٦ ثم موقعة صفين سنة ٣٧ التى انتهت بالتحكيم ثم موقعة النهروان سنة ٣٨ قتله عبد الرحمن بن ملجم . سنه ٦٣ سنة . خلافته أربع سنين .

انظر :

الطبقات الكبير ٣/١ ق/١١ . الإصابة ٤/٢٦٩ — رقم ٥٦٨٢ . أسد الغابة ٤/١٦ . الاستيعاب ٢/٤٧٠/٢٠١٥ رقم . البلاذرى ١٤ — ٣٠ — ٣٢ — ٣٧ — ٤١ — ٦٠ — ٦٦ — ٦٧ — ١٨٣ — ٢٠٥ — ٢٢٨ — ٢٥٥ — ٢٦٦ — ٢٧١ — ٢٧٤ — ٢٨٤ — ٣٠٠ — ٣١٩ — ٣٢٢ — ٣٢٩ — ٣٤٥ — ٣٧٦ — ٣٩٠ — ٣٩٥ — ٤٠٨ — ٤٠٩ . معجم الأدباء ١٤/٤١ . معجم الشعراء للمرزبانى ٢٧٩ . الأغانى ١/٩ . فهرست الأغانى م ٢/٣٦٤ . تاريخ ابن عساكر (مخطوط) ورقة ٣٢١ — آ . ج ٦ رقم ١٠٥ تاريخ (الظاهرية) . البيان والتبيين للجاحظ ٢/١٥٩ . نزهة الألباء للأنبارى ص ٤ . فهرست ابن النديم ٢٧ — ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٩ — ٤٠ — ٤١ — ٧٦ — ٨٣ (وانظر البقية فى ص ٢٤٥) . عبقرية الإمام — عباس محمود العقاد . شذرات الذهب ١/٤٩ — ٥١ — ٥٧ — ٦٢ — ٦٤ — ٩ — ١٥ — ٢٥ — ٣٣ . مقالة Huart فى دائرة المعارف . اليعقوبى ٥٥٢ .

٣٢ — عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ — ٢٣) .

صحابى جليل ثانى الخلفاء الراشدين . أول من لقب بأمير المؤمنين أعدل من حكم . كان فى الجاهلية من الأبطال وفى الإسلام من المكافحين أسلم قبل الهجرة بخمس سنوات . وكان إسلامه فتحا . بويع بالخلافة سنة ١٣هـ . كانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر . فى أيامه فتحت الشام والعراق والقدس والمدائن ومصر . أول من دوّن الدواوين فى الإسلام ووضع التاريخ الهجرى . قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسى .

انظر :

الطبقات الكبير ٣/١ ق/١٩٠ . الإصابة ٤/٢٧٩ — ٥٧٣١ رقم . أسد الغابة ٤/٥٢ . الاستيعاب . ٢/٤٢٨/١٨٤٥ . الأخبار الطوال الفهرس ص ٣٨ . البلاذرى انظر ص ٤٩١ من ٧ أوروبة تجد أرقام الصفحات الأخرى . تاريخ اليعقوبى ص ٢١١ . الطبرى انظر الفهرست الطبرى ١ ج/٤٠٧ . شذرات الذهب ١/١٦ — ١٩ — ٢٢ — ٢٤ — ٣٠ — ٣٢ — ٣٣ — ٤٠ — ٤٤ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٦٢ — ٦٤ . الأغانى ٨/٩٨ . فهرست الأغانى م ٢/٣٧٢ . عمر بن الخطاب — لابن الجوزى . عمر بن الخطاب — على الطنطاوى . عبقرية عمر — عباس محمود العقاد . دائرة المعارف الإسلامية . الفهرست ٢٤ — ٢٨ — ١٠٢ — ١٠٣ — ١٩٣ — ١٩٦ — ١٩٩ — ٢٢٥ — ٢٣١ — ٢٥٤ .

٣٣ — عمرو بن أمية الضمرى .

صحابى مشهور عرف بالشجاعة والإقدام . بعثه رسول الله رسولا إلى النجاشى بكتابين كتب له فى أحدهما أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وفى الآخر يسأله أن يحمل إليه من بقى عنده من أصحابه . مات بالمدينة فى خلافة معاوية .

انظر :

الطبقات الكبير ٤/١ ق/١٨٢ ص . الإصابة ٤/٢٨٥ — ٥٧٦٠ رقم . أسد الغابة ٤/٧٦ . الاستيعاب ٢/٤٤٢ — ١٨٩٢ رقم . تاريخ ابن عساكر ورقة ١٤٦ — آ/٧ : الطبرى ١١٩٨ — ١٤٣٧ — ١٤٤١ — ١٤٤٣ — ١٤٤٤ — ١٤٤٨ — ١٥٦٠ — ١٥٦٩ ١٦٠٢ — ٣٠٣١ — ٢٤٤٧ . تاريخ اليعقوبى ٢/٥٧ — ٧٧ — ٨٤ — ٨٥ . شذرات الذهب ١/٥٤ .

٣٤ — عمر بن العاص السهمى .

أحد عظماء العرب ودهاتهم ، كان فى الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، ولاه الرسول إمرة جيش ذات السلاسل ، ثم استعمله على عمان . كان من أمراء الجيش فى الجهاد بالشام زمن عمر افتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج وانطاكية وولاه عمر فلسطين ثم مصر بعد أن فتحهما ، وهو أحد الحكمين فى صفين . ولاه معاوية على مصر سنة ٢٨ توفى فى القاهرة سنة ٤٣ .

انظر :

الطبقات الكبير ٧/٢ ق/١٨٨ . الطبقات الكبير ٣/٢ ق/٢ . الإصابة ٥/٢ ص — ٥٨٧٧ رقم . أسد الغابة ٤/١١٥ . الاستيعاب ٢/٤٤٧ — ١٩١٤ رقم . تاريخ ابن عساكر ورقة ١٦٧ — ب/٧ . الولاة والقضاة للكندى /٦ — ١١ — ٢٨ — ٣٤ — ٣٠١ — ٣٠٦ . البيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٣٩ . دائرة المعارف الإسلامية . عمرو بن العاص . حسين مؤنس . فهرست ابن النديم ٢٣٢ — ٢٥٤ . البلاذرى ٧٦ — ٧٧ — ٩٢ — ٩٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٦ — ١١٧ — ١٢١ — ١٣١ — ١٣٨ — ١٣٩ — ١٤٠ — ١٤١ — ١٤٢ — ١٤٧ — ٢١٢ — ٢٢٦ — ٢٣٦ — ٢٣٧ — ٤٥٦ . الطبرى انظر فهرست الطبرى . ١ ج/٤١٩ ص . تاريخ اليعقوبى الفهرس ص ٢١٧ . الأخبار الطوال الفهرس ص ٣٩ . شذرات الذهب ١/٥٣ — ٤٦ — ٤٩ — ٣٢ — ٣٥ — ٣٦ — ٣١ — ٢٤ . مقالة A. J. Winsinck فى دائرة المعارف Butler, The Arab conpuest of Egypt Londoe 1902 وترجمته العربية التى صدرت عن اللجنة .

٣٥ — الفضل بن مروان (١٧٠ — ٢٥٠) .

وزير نصرانى الأصل قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الخلفاء . خدم المأمون ثم وزر للمعتصم ثلاث سنين اعتقله بعدها ثم أطلقه . وكان جيد الإنشاء .

انظر :

الفهرست ١٢٧ . الأغانى ١٨/٣٨ — ٢١/٣١ . تاريخ ابن عساكر ورقة ٤٠٧ — آ/٧ ج . وفيات الأعيان ٢/١٥٦ . الأعلام ٢/٧٧٥ . شذرات الذهب ٢/١٢٢ . الطبرى ١١٨١ — ١١٨٦ — ١٣٢٦ — ١٣٢٩ — ١٣٧٩ — ١٥١٣ . تاريخ اليعقوبى ٢/٥٧٦ ، ٥٨٤ ، ٥٩٢ .

٣٦ — قيصر .

انظر :

الطبرى . انظر فهرست الطبرى ١ ج/٤٧٢ . فهرست الأخبار الطوال ٤٤ ص .

٣٧ — كسرى بن هرمز .

انظر :

الأخبار الطوال فهرس ص٤٥ . البلاذرى ٣٦٨ . الطبرى ٣٥٤ — ٧٦٩ — ٩٨٩ — ٩٩٠ — ٩٩٣ — ١٠٤٥ — ١٠٤٦ — ١٠٦٠ — ١٠٦١ — ١٠٦٤ — ١٠٦٦ — ١٥٦٠ — ١٥٧١ — ١٥٧٤ — ٢٨٥٧ — ٨٣٥ — ١٣٣٤ .

٣٨ — مارية القبطية .

انظر :

البلاذرى ١٨ — ٢١٩ . الطبرى ١٥٦١ — ١٥٩١ — ١٦٨٦ — ١٧٧٥ — ١٧٧٧ — ١٧٨١ — ١٧٨٢ — ٢٤٨٠ — ٢٣١٠ — ٢٤٦١ — ٢٤٦٣ . الفهرست /٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ . اليعقوبى ٩٣/٢ ، ٩٥ .

٣٩ — المأمون (١٠٧ — ٢١٨) .

عبد الله بن هرون ، سابع الخلفاء العباسيين وأحد عظماء الملوك ، ترجم كتب اليونان وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة وترجمها . قرب العلماء والمحدثين والشعراء ، وأطلق حرية الكلام وقال بخلق القرآن . توفى فى طرسوس .

انظر :

الفهرست ١١٦ — ٥ — ٧ — ٨ — ١٠ — ١٩ — ٢١ — ٤٣ — ٥٠ — ٥١ — ٦٥ . وانظر بقية أخباره ص ٢٥٦ . تاريخ بغداد لطيفور . الأغانى ١١٩/٢ . الأعلام ٥٨٩/٢ . شذرات الذهب ٢/٢ — ٣ — ٥ — ٧ — ١٤ — ١٦ — ١٧ — ١٩ — ٢٠ — ٢٣ — ٢٥ — ٢٧ — ٣٠ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٢ — ٤٤ — ٤٧ . الطبرى . انظر الفهرست ج ٤٩٥/١ . الأخبار الطوال الفهرس ص ٤٦ . البلاذرى ٣٢ — ٣٣ — ٥٤ — ٩٣ — ١٤٨ — ١٥١ — ١٦٦ — ١٧١ — ١٨٠ — ١٨٥ — ١٩١ — ١٩٢ — ٢١١ — ٢٣٦ — ٢٨٨ — ٢٩٧ — ٣١١ — ٣١٤ — ٣٢٠ — ٣٢٤ — ٣٣٠ — ٣٣٩ — ٣٧٥ — ٣٨٦ — ٤٠٢ — ٤٣٠ — ٤٣١ — ٤٤٥ — ٤٤٦ .

٤٠ — محمد بن عبد الملك (١٧٣ — ٢٣٣) .

المعروف بابن الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل . نشأ فقيراً فى الدسكرة ونبغ فى الأدب والإنشاء وبلغ رتبة الوزارة ، عول عليه المعتصم والواثق ، ونكبه المتوكل وعذبه ، وكان من العقلاء الدهاة .

نظر :

الفهرست ص١٢٢ . مخطوطة ابن‌عساكر ورقة ١٨٩ — آ ب ج ٨ . معجم الشعراء للمرزبانى ٤٢٥ . البيان والتبيين ١٩٩/٢ . وفيات الأعيان ٧٠/٢ . الأغانى ٤٦/٢٠ — ٥٦ . فهرست الأغانى م ٤٧٦/٢ . الأعلام ٩٣٦/٣ . شذرات الذهب ٧٨/٢ . تاريخ اليعقوبى ٥٨٤/٢ — ٥٩٠ — ٥٩١ . الطبرى . انظر فهرست الطبرى ٥٢١/١ .

٤١ — المدينى .

سليمان بن أيوب من أهل المدينة ومن الظرفاء الأدباء . كان عارفا بالغناء وبأخبار المغنين ، له كتاب أخبار ظرفاء المدينة .

الفهرست ١٤٨ .

٤٢ — معاوية بن أبى سفيان (٢٠ ق هـ — ٦٠ / ٦٨٠) .

صحابى أظهر إسلامه عام الفتح . شهد مع الرسول حنينا والطائف وكان له كاتبا ، ولاه عمره الأردن ثم دمشق بعد أخيه يزيد بن أبى سفيان ، ولم يزل لعمر واليا حتى قتل ، ثم ولاه عثمان ، كانت ولايته عشرين سنة أميرا ، ثم بويع له بالخلافة بعد مقتل على رضى الله عنه ، وهو مؤسس الدولة الأموية وأحد كبار الدهاة . أول من اتخذ المقاصر والحرس والحجاب ، وفى زمنه فتحت جزء من اليونان ، مات سنة ستين وعمره ثمان وسبعين سنة .

انظر :

الأخبار الطوال الفهرس ص/٥ . تاريخ اليعقوبى فهرس . الطبقات الكبير ٧/ق ١٢٨/٢ . أسد الغابة ٣٨٥/٤ . الاستيعاب ٢٦١/١ — رقم ١٠٧٩ . فهرست الأغانى م ٥٠٤/٢ . ابن الأثير ٢٦١/٣ . مخطوطة ابن عساكر ورقة ١٠٩ آ ب/ج ٩ . مقالة ليفى فى دائرة المعارف الإسلامية ، البيان والتبيين انظر مثلا ١٠٨/٢ . مقالة Lammens فى دائرة المعارف م٦٦٣/٢ . فهرست ابن النديم ٢٩ — ٩٠ — ٩١ — ٩٣ — ٩٦ — ١٠٢ — ١٢٢ — ١٧٥ — ١٩٣ — ١٩٦ — ٢٣٢ — ٢٤٢ — ٣٠٦ شذرات الذهب ٦٥/١ . الطبرى . انظر فهرست الطبرى ج/٥٥٧ . البلاذرى ٣٢ — ٣٥ — ٣٩ — ٥١ — ٥٢ — ٥٤ — ٥٦ — ٦٧ — ٨٩ — ٩٢ Lammens, Etude sur la règne du Calife Omaiyade Mo‘awia 1er . Lammens, Califat de Yed 2id, 1e البلاذرى ١٠٠ — ١٠٢ — ١٠٨ — ١١٧ — ١١٩ — ١٢٥ — ١٢٩ — ١٣٣ — ١٣٥ — ١٤٠ — ١٤٢ — ١٤٧ — ١٤٨ — ١٥٢ — ١٥٥ — ١٦١ ، وانظر البقية فى ص ٤٩٧ من الكتاب .

٤٣ — معاوية بن حديج الكندى (— مات سنة ٥٢ هـ) .

أحد الصحابة من شيعة معاوية . ولاه إمرة الجيش الذى جهزه إلى مصر . وولى غزو المغرب ثم صار واليا لمصر . وله فى القيروان آبار معروفة بآبار حديج . كان أعور عاقلا واسع العلم مقداما .

انظر :

الأخبار الطوال ٢٠٩ . الإصابة ١١١/٦/ رقم . تاريخ اليعقوبى ١٧٧/٢ — ٢٢٦ . الاستيعاب ٢٦٥/١/١٠٨٤ رقم . مخطوطة ابن عساكر ورقة ١٠١ آ — ج ٩ . ولاة مصر للكندى

١٢ — ١٥ — ١٧ — ١٩ — ٢٧ — ٣٠ . الطبرى : انظر فهرست الطبرى ١ ج/٥٥٧ :
الأعلام ٣/١٠٥١ . البلاذرى ٢٢١ — ٢٢٧ — ٢٢٨ — ٢٣٥ — ٢٣٧ . طبقات بن سعد
١٩٥/٧ . شذرات الذهب ٥٤ — ٥٨ .

٤٤ — المعتصم بالله (١٧٩ — ٢٢٧ هـ) .

محمد بن هارون الرشيد ، أبو إسحاق ، من أعظم خلفاء العباسيين ، بويع له بالخلافة سنة ٢١٨ هـ
بعد وفاة أخيه ، وكان قويا بطاشا ، وهو فاتح عمورية وبانى سر من رأى .

انظر :

الأعلام ٣/٩٩٦ . معجم الشعراء ٤٢٥ . الأغانى ٩/١١٦ . فهرست الأغانى م ٢/٥٠٨
شذرات الذهب ٢/٤٤ — ٤٥ — ٤٦ — ٤٩ — ٥١ — ٥٢ — ٥٦ — ٥٨ — ٦٣ .
الطبرى = فهرست الطبرى ١ ج/٥٦٠ . فهرست ابن النديم ٧ — ١٠٢ — ١٢٢ — ١٢٧
٢٩٥ — ٣٣٤ . البلاذرى ١٣٤ — ١٤٤ — ١٤٦ — ١٦٥ — ١٦٧ — ١٧١ —
١٩٢ — ١٩٩ — ٢١١ — ٢٨٨ — ٢٩٢ — ٣٢٤ — ٣٣٠ — ٣٣٩ — ٣٤٠ —
٣٧٥ — ٤٢٢ — ٤٣١ .

٤٥ — المقوقس .

أمير القبط فى مصر من قبل ملك الروم جعله بعضهم فى الصحابة وأنكر ذلك ابن الأثير وقال : لامدخل
له فى الصحابة . أرسل إليه الرسول بحاطب ليدعوه إلى الإسلام فلقيه وله معه حديث طويل تجده فى الإصابة
ثم رد الجواب وحمله هدية وصالح المقوقس عمرا لما فتح مصر .

انظر :

الإصابة ٦/٢١٢/٨٦٠٨ رقم . أسد الغابة ٤/٤١٢ . ولاة مصر للكندى ٨ . فتوح
مصر لابن عبد الحكم ٤٥ . شذرات الذهب ١/٣٧ . البلاذرى ٢١٥ — ٢١٨ — ٢٢٠ —
٢٢٢ . الطبرى . انظر فهرست الطبرى ١ ج/٥٦٨ . مقالة A. Grohmonn فى دائرة المعارف
السيوطى : حسن المحاضرة ١/٥٨ ، ٦٠ . ابن دقاق : كتاب الانتصار ٤/٥٣ ، ٥/١١٨ . ابن
تغرى بردى (أوروبة) ١/٩ .

٤٦ — المنذر بن ساوى .

كان والى البحرين أتاه العلاء بن الحضرمى يدعوه ومن معه بالبحرين إلى الإسلام أو الجزية . وكانت
ولاية البحرين للفرس فأسلم المنذر وأسلم جميع العرب بالبحرين ودفع اليهود فيها الجزية للعلاء وللمنذر .

انظر :

تاريخ ابن الأثير ٢/١٤٦ . البلاذرى ٧٨ — ٨٠ — ٨١ — ٨٣ . الطبرى ١٥٦١ —
١٦٠٠ — ١٧٣٧ — ١٨٩٤ — ١٩٥٨ — ١٩٦٠ . تاريخ اليعقوبى ٢/٨٤ —
٩٠ — ١٣٦ .

٤٧ — المهلب بن أبى صفرة (عام الفتح — ٨٣ هـ) .

أمير بطاش جواد : قال فيه عبد الله بن الزبير ، هذا سيد أهل العراق ، ولد فى دبا ونشأ بالبصرة . وقدم المدينة أيام عمر مع أبيه ، ولى إمارة البصرة لمصعب ، وانتدب لقتال الأزارقة ، ولاه عبد الملك خراسان ، فقدمها سنة ٧٩ ومات فيها ، قاتل الأزارقة تسعة عشر عاما وظفر بهم .

انظر :

الأخبار الطوال فهرس ٥٢ . الإصابة ٢١٦/٦/ ٨٦٢٧ رقم . مخطوطة ابن عساكر ورقة ٣٢٠ آ/ج ٩ . الأغانى ١٩/٣ . فهرست الأغانى م ٥٢٣/٢ . وفيات الأعيان ١٩١/٢ . البيان والتبيين مثلا ١٥٤/٢ . الأعلام ١٠٧٩/٣ . البلاذرى ١٦٨ — ٣٦٠ — ٣٦٧ — ٣٦٩ — ٣٧٨ — ٣٩٦ — ٤١١ — ٤١٧ — ٤٣٢ — ٤٤٢ . الطبرى . فهرست الطبرى ج ٥٧٧/١ فهرست النديم ١٠٥ — ١٠٩ — ٣٠٧ . شذرات الذهب ٥٤/١ — ٧٣ — ٩٠ . مقالة K. V. Zettersteen فى دائرة المعارف ٦٨٥/٣ . اليعقوبى ٣٠٠/٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ . الكامل للمبرد (أوربة) ٦٢٦/ .

٤٨ — النجاشى .

ملك الحبشة ، أرسل إليه الرسول كتاباً فآمن به واتبعه وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب وأرسل إليه ابنه فى ستين من الحبشة فغرقوا فى البحر . خطب إلى رسول الله أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فأجابت وأصدقها أربعمائة دينار .

انظر :

ابن الأثير ١٤٥/٢ و١٩٩ . الأغانى ١٣٢/٤ . ٥٠/٨ — ٥١ . ٧٠/١٦ . ٧٠/١٨ . البيان والتبيين ٢٤٩/١ — ٢٩٥ . شذرات الذهب ١٣/١ — ١٧ — ٥٤ . الطبرى = فهرست الطبرى ٥٨٩/١ . الأخبار الطوال ٦٣ — ٦٤ .

٤٩ — هرقل .

ملك الروم : بعث إليه رسول الله بدحية ، وبقى هرقل إلى أن افتتح المسلمون الشام فى خلافة عمر . فلما غلب المسلمون على أكثر بلاد الشام خرج إلى نشز من الأرض فى الرها والتفت إلى الشام وقال : « السلام عليك يا سورية سلاما لا لقاء بعده ... »

انظر :

صبح الأعشى ٣٩٧/٥ . شذرات الذهب ٢٧/١ — ٣٢ . البلاذرى ١١٣ — ١١٨ — ١٢٣ — ١٣٠ — ١٣٥ — ١٣٧ — ١٦٣ — ١٦٤ — ٢١٨ — ٢٢٠ — ٤٦٦ . الطبرى = فهرست الطبرى ج ٦١٠/١ . الأخبار الطوال ص ١١١ .

٥٠ — نقفور مات ٨١١ م .

إمبراطور بزنطى كان على الديوان تحت حكم ايرين ووصل إلى الحكم إثر ثورة أكتوبر سنة ٨٠٢ وكان يود تلافى ما أنتجته حركة التماثيل وقع مع العرب صلحا يسميه مؤرخو العرب « مشيناً » . له حروب

مع هرون الرشيد ، مات فى المعركة سنة ٨١١ ، والروم تزعم أن نقفور من ولد جفنة الغسانى الذى تنصر وكان قبل المُلك يلى الديوان .

انظر :

الأغانى ٤٤/١٧ — ٤٥ . الطبرى ٦٩٥ — ٧٠١ — ٧٧٥ . شذرات الذهب ٣١٠/٢ .

٥١ — هارون الرشيد (١٤٩ — ١٩٣) .

هارون بن محمد المهدى ، خامس الخلفاء العباسيين ، ولاه أبوه غزو الروم فى القسطنطينية ، صالحته الملكة ايرين وافتدت منه المملكة بسبعين ألف دينار تؤديها فى كل عام . بويع له بالخلافة سنة ١٧٠ بعد وفاة أخيه الهادى ، كان له صلات مع شارلمان ملك الفرنجة ، فى أيامه كانت نكبة البرامكة ، توفى بطوس سنة ١٩٣ .

أنظر :

الطبرى . فهرست الطبرى ج ٦٠٤/١ . الأغانى ١٤/١ — ٣٤—٣٥ — ٣٦ ... فهرست الأغانى م ٥٣٣/٢ . المؤتلف والمختلف ٨٤ . الأعلام ١١١٥/٣ . الأخبار الطوال ٣٨٢ — ٣٩١ . تاريخ اليعقوبى . فهرست ابن النديم مثلا ٢١ — ٢٢ — ١٠٠ — ١١٩ — ١٢٠ — ٢٢٥ — ٢٢٦ — ٢٧٤ . شذرات الذهب ٣٣٤/١ . البلاذرى ٥٠ — ٥٣ — ٦٨ — ٧٧ — ١٣٢ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٥١ — ١٥٤ — ١٥٨ — ١٦٣ — ١٦٦ — ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٩ — ١٨٠ — ١٧١ — ١٨١ — ١٨٨ — ١٩٢ — ٢٣٣ — ٢٣٤ — ٢٣٦ .

٥١ — هشام بن عبد الملك (٧١ — ١٢٥) .

من ملوك الدولة الأموية فى الشام ، ولد فى دمشق ، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥ . اجتمع فى خزائنه ما لم يجتمع فى خزائن أحد من ملوك بنى أمية من المال . بنى الرصافة وكانت مصيفاً له ، توفى فيها .

انظر :

الأخبار الطوال الفهرس /٥٥ . الأعلام ١١٢٤/٣ . الأغانى ٩٩/٦ . فهرست الأغانى م ٥٥٢/٢ . فهرست ابن النديم مثلا ١١٧ — ١٢٥ — ٢٠٧ — ٢٤٤ — ٢٤٢ . تاريخ اليعقوبى ج ٢ / ص ٣٧٨ — ٣٩٦ . الطبرى . فهرست الطبرى ج ٦١٢/١ . شذرات الذهب ١٦٣/١ . البلاذرى ٥٤٠ — ١١٧ — ١٥٥ — ١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٨٠ — ١٨٦ — ٢٠٦ — ٢٠٧ — ٢٢٣ — ٢٢٩ — ٢٣١ — ٢٨١ — ٢٩١ — ٢٩٣ — ٣١٤ — ٣٦٣ — ٣٦٨ — ٣٦٩ — ٤٢٨ — ٤٢٩ . ابن خلدون ٨٠/٣ . ابن الأثير انظر الفهرست ط تورنبرغ وخاصة ٩٢/٥ — ٢٠١ . مقالة الأستاذ K. V. Zettersteen فى دائرة المعارف الإسلامية Huart, Histoire des Arabes 1-272-275 .

٥٢ — هوذة بن على الحنفى .

ملك اليمامة زار كسرى فسقاه بكأس من ذهب وأعطاه إياها . وكساه قباء ديباج منسوجا بالذهب

واللؤلؤ . سأله عن ماله ومعيشته فأخبره أنه فى عيش رغد يغزو ويصيب من المغازى . وكان له عشرة ولد أرسل إليه رسول الله سليط بن عمرو يدعوه إلى الاسلام وكان نصرانيا : فأرسل إلى النبي وفدا يقولون له : إن جعل الأمر له من بعـده أسلم وسار إليه ونصره . وإلا قصد حربه . فقال الرسول : لا ولا كرامة اللهم اكفنيه . فمات بعد قليل .

انظر :

تاريخ اليعقوبى ٢ / ٨٤ . الأغانى ١٦ / ٧٦ — ٧٧ . ابن الأثير ٢ / ١٤٦ . البلاذرى ٨٦ الطبرى ٩٨٤ — ٩٨٥ — ٩٨٧ — ١٥٦٠ — ١٥٦١ .

٥٣ — الواقدى (١٣٠ — ٢٠٩) :

محمد بن عمر . كان عالما بالمغازى والسير والفتوح والفقه والأحكام والأخبار . كان يتشيع ويلزم التقية خلف بعد وفاته ٦٠٠ قمطر من الـكتب .

انظر :

الفهرست ص ٩٨ . مخطوطة ابن عساكر ورقة ٢٤٥ ب / ج ٨ . الأغانى ٧ / ١٨٣ . وفيات الأعيان ٢ / ٦٤٠ . طبقات ابن سعد ٥/٣١٤ . شذرات الذهب ٣ / ١٨ . الطبرى . انظر فهرست الطبرى ج ١ / ٦٢١ .

— ٧ —

بعض مراجع التصحيح والتعليق

(أ)

آثار الأول فى ترتيب الدول : (الحسن بن عبد الله — ٧٠٨ هـ) ١٣٠٨ م — القاهرة — بولاق

أحسن التقاسيم : المقدسى (محمد بن أحمد البشارى — ٣٨٧ هـ) ٩٩٧ م — ليدن ١٩٠٦ .

الأخبار القوية عن الحوادث القديمة : أبو الفداء (الملك اسماعيل بن على — ٧٣٢ هـ) ١٣٣٢م — القاهرة ١٣٣٧ هـ — ذيل الآثار الباقية للطبرى .

إرشاد الأريب : ياقوت (ابن عبد الله الرومى — ٦٢٦ هـ) ١٢٢٩ م — القاهرة — دار المأمون .

أساس البلاغة : الزمخشرى (محمود بن عمر — ٥٣٨ هـ) ١١٤٣ م — القاهرة — دار الكتب المصرية .

الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : ابن عبد البر (يوسف بن — ٤٦٣ هـ) ١٠٧٠ م — حيدر آباد الدكن ١٣٠٩ — دائرة المعارف النظامية .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة : ابن الأثير (على بن محمد الجزرى — ٦٣٠ هـ) ١٢٣٣ م — القاهرة ١٢٨٠ — جمعية المعارف المصرية .

الإصابة فى تمييز الصحابة : ابن حجر (أحمد بن على — ٨٥٢ هـ) ١١٤٨م — القاهرة — مطبعة السعادة .

الأعلام : الزركلى (خير الدين) — القاهرة ١٩٢٧ — المطبعة العربية .

الأغانى : الأصبهانى (الحسين بن على — ٣٥٦) ٩٦٧ م — القاهرة ١٢٨٥ — ساسى .

الأمالى والنوادر : القالى (اسماعيل بن القاسم — ٣٥٦) ٩٦٧م — القاهرة — دار الكتب المصرية .

الأنساب : السمعانى (عبد الكريم بن محمد — ٥٦٢) ١١٦٧م — لندن ١٩١٣ — مرجوليوث .

إمتاع الأسماع : المقريزى (أحمد بن على — ٨٤٥) ١١٤١ م — القاهرة ٩٣٨ — ت محمود محمد شاكر .

(ب)

بغية المتلمس فى تاريخ رجال الأندلس : الضبى (أحمد بن يحيى — ٥٩٩ هـ) ١٢٠٣م — مجريط ١٨٨٤

البيان والتبيين : الجاحظ (عمرو بن بحر — ٢٥٥) ٨٦٩ م — القاهرة — المطبعة الرحمانية .

(ت)

تاج العروس فى شرح القاموس : مرتضى الزبيدى (محمد بن محمد الحسينى — ١٢٠٥ هـ) ١٧٩٠ م القاهرة ١٣٠٦ — المطبعة الخيرية .

التاج فى أخلاق الملوك : الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢ — ت أحمد زكى باشا .

التبر المسبوك فى نصيحة الملوك : الغزالى (محمد بن محمد — ٥٠٥ هـ) ١١١١م — القاهرة ١٢٧٧ — المطبعة الكاستيلية .

التبصر بالتجارة : الجاحظ — دمشق — المجمع العلمى العربى .

تاريخ بغداد = مدينة السلام : الخطيب البغدادى (أحمد بن على — ٤٦٣ هـ) ١٠٧١ م — القاهرة ١٣٤٩ .

تاريخ بغداد (الجزء السادس من) : ابن طيفور (أحمد بن أبى طاهر — ٢٨٠ هـ) ٨٩٣ م — ليبزيغ ١٩٠٨ — ت هنس كلر .

تاريخ دمشق : ابن عساكر (على بن الحسن — ٥٧١ هـ) ١١٧٥ م — مخطوطة الظاهرية بدمشق .

تهذيب تاريخ دمشق : بدران (عبد القادر — ١٣٤٦) ١٩٢٧ م — دمشق ١٣٥١ — ت أحمد عبيد .

تهذيب التهذيب : ابن حجر (العسقلانى — ٨٥٢) ١٤٤٨ — حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ .

(ج)

جمهرة أشعار العرب : القرشى (محمد بن أبى الخطاب —) — القاهرة ١٣٠٨ .

جمهرة رسائل العرب : صفوة (أحمد زكى) — القاهرة ١٣٥٦ .

(ح)

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر — ٩١١ هـ) ١٥٠٥ م — القاهرة ١٢٩٩ .

الحماسة : أبو تمام (حبيب بن أوس — ٢٣١) ٨٤٥ م — القاهرة ١٣٢٢ .

الحماسة : البحترى (الوليد بن عبيد ٢٨٤) ٨٩٧ م — ليدن ١٩٠٩ .

(د)

دائرة معارف : البستانى (بطرس بن بولس — ١٢٩٩ هـ) ١٨٨٢ م — بيروت ١٨٧٨ م .

ديوان البحترى : البحترى — قسطنطينة ١٣٠٠ هـ — الجوائب .

ديوان الأحنف : ابن الأحنف (العباس — ١٩٢) ٨٠٨ م — قسطنطينة ١٢٩٨ هـ — الجوائب .

ديوان أبى العتاهية : أبو العتاهية (اسماعيل بن القاسم — ٢١٣ هـ) ٨٢٨م — بيروت — اليسوعيون .

(ر)

روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ابن قيم الجوزية (محمد بن أبى بكر — ٧٥١ هـ) ١٣٥٠ م — دمشق ١٣٤٩ — ت أحمد عبيد .

(ز)

الزخرفة المنسوجة : مرزوق (عبد العزيز) — القاهرة .

زهر الآداب : الحصرى (ابراهيم بن على — ٤٥٣ هـ) ١٠٦١ م — القاهرة ١٣٥٠ — ط ٢ زكى مبارك .

(س)

سلوك السالك فى تدبير الممالك : ابن أبى الربيع (أحمد بن محمد) — القاهرة ١٢٨٦
سيرة ابن هشام : ابن هشام (عبد الملك — ٢١٨ هـ) ٨٣٣ م — القاهرة ١٢٩٥ هـ .
السيرة الحلبية : الحلبى (على بن ابراهيم — ١٠٤٤ هـ) ١٦٣٥ م — القاهرة ١٣٢٠ هـ .

(ش)

شذرات الذهب : ابن العماد (عبد الحى بن أحمد — ١٠٨٩) ١٦٧٨ م — القاهرة ١٣٥٠ .
شرح ديوان الحماسة : الخطيب التبريزى (يحيى بن على — ٥٠٢ هـ) ١١٠٨ م — بون ١٨٢٨ .
الشعر والشعراء : ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم — ٢٧٦ هـ) ٨٨٩ م — القاهرة .
شفاء الغليل : الخفاجى (شهاب الدين أحمد بن محمد — ١٠٦٩ هـ) ١٦٥٩ م — القاهرة ١٣٥٢ .

(ص)

صبح الأعشى : القلقشندى (أحمد بن على — ٨٢١ هـ) ١٤١٨ م — القاهرة ١٣٣٨ — المطبعة الأميرية .

(ط)

طبقات القراء : ابن الجزرى (محمد بن محمد — ٨٣٣ هـ) ١٤٢٩ — القاهرة — برجستراسر .
طبقات الحنابلة : ابن الفراء (محمد بن أبى يعلى) — دمشق ١٣٥٠ — ط . احمد عبيد .
الطبقات الكبير : كاتب الواقدى (محمد بن سعد — ٢٣٠ هـ) ٨٤٤ م — ليدن ١٣٢٢ — ط . سخاو .

(ع)

العقد : ابن عبد ربه (أحمد بن محمد — ٣٢٧ هـ) ٩٣٩ م — القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر .
عمر بن الخطاب : ابن الجوزى (عبد الرحمن بن على — ٥٩٧ هـ) ١٢٠١ م — القاهرة — السلفية .

(ف)

فتوح مصر : ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله — ٢٥٧ هـ) ٨٧١ م — القاهرة ١٩١٤ .
فتوح مصر للواقدى : الواقدى (محمد بن عمر — ٢٠٧ هـ) ٨٢٢ م
فتوح الشام : الواقدى — القاهرة ١٣٥٤ هـ .
فتوح البلدان : البلاذرى (أحمد بن يحيى — ٢٧٩ هـ) ٨٩٢ م — ليدن ١٨٦٦ .

الفخرى فى الآداب السلطانية : ابن الطقطقى (محمد بن على — ٧٠٢ هـ) ١٣٠٢ — غرتفزولد ١٨٥٨ .
الفهرست : ابن النديم (محمد بن اسحاق — ٣٨٥ هـ) ٩٩٥ م — ليبزيغ ١٨٧١ — ط . فلوجل .

(ق)

القرآن الكريم .
القاموس : الفيروزابادى (محمد بن يعقوب — ٨١٧ هـ) ١٤١٤م — القاهرة ١٣٠١ — بولاق .

(ك)

الكامل فى التاريخ : ابن الأثير (على بن محمد — ٦٣٠ هـ) ١٢٣٣ م .
كليلة ودمنة : ابن المقفع (عبد الله — ١٤٢ هـ) ٧٥٩ م .
الكامل فى الأدب : المبرد (محمد بن يزيد — ٢٨٥ — ٨٩٨ م — ليبزيغ .

(ل)

لسان العرب : ابن منظور (محمد بن مكرم — ٧١١ هـ) ١٣١١ م — القاهرة ١٣٠٠ — بولاق .
لطائف المعارف : الثعالبي (عبد الملك بن محمد — ٤٢٩ هـ) ١٠٣٨ م — ليدن .

(م)

مجمع الأمثال : الميدانى (أحمد بن محمد — ٥١٨ هـ) ١١٢٤ م .
مجمع الزوائد : الهيثمى (على بن أبى بكر — ٨٠٧ هـ) ١٤١٣ م — القاهرة ١٣٥٢ — القدسى .
المحاسن والأضداد : الجاحظ .
المحاسن والمساوىء : البيهقى (ابراهيم بن محمد —) — جِسِّن ١٩٠٢ — شوالى .
محاضرات الأدباء : الراغب (الحسين بن محمد — ٥٠٢ هـ) ١١٠٨ م — القاهرة ١٣٢٦ — المطبعة الشرفية .
محاضرات الأوائل : دده (على) — القاهرة ١٣٠٠ .
المخصص : ابن سيده (على بن أحمد — ٤٥٨ هـ) ١٠٦٦ م — القاهرة ١٣١٦ — ١٣٢١ — الأميرية
المغرب فى ترتيب المغرب : المطرّزى (ناصر بن عبد السيد — ٦١٠ هـ) ١٢١٣ م — حيدر آباد الدكن ١٣٢٨ .
مروج الذهب : المسعودى (على بن الحسين — ٣٢٦ هـ) ٩٥٦ م — القاهرة ١٣٤٦ — المطبعة البهيّة .
معجم البلدان : ياقوت — ليبزيغ — وسيتنفلد .
المفضليات : الضبي (المفضّل بن محمد ١٧٨ هـ) ٧٨٦ م — القاهرة ١٩٤٣ — ت أحمد محمد شاكر .
معجم الشعراء : المرزبانى (محمد بن عمران — ٣٨٤ هـ) ٩٩٤ م — القاهرة ١٣٥٤ — ط . كرنكو .
المقامات : الحريرى (القاسم بن على — ٥١٦ هـ) ١١٢٢ م — القاهرة .

المؤتلف والمختلف : الآمدى (الحسن بن بشر — ٣٧١ هـ) ٩٨١ م — القاهرة ١٣٥٤ — ت . كرنكو .
مهذب الأغانى : الخضرى (محمد) — القاهرة ١٩٢٥ — مط . مصر .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : المقريزى (أحمد بن على — ٨٤٥ هـ) ١٤٤١ م — القاهرة ١٢٧٠ .

(ن)

النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى (يوسف أبو المحاسن — ٨٧٤هـ) ١٤٦٩م — القاهرة ١٣٢٨ — دار الكتب .
نهاية الأرب : النويرى (أحمد بن عبد الوهاب — ٧٣٢هـ) ١٣٣٢م — القاهرة ١٣٤٢ — دار الكتب نزهة الألباب : الأنبارى (عبد الرحمن —) — القاهرة ١٢٩٤ .

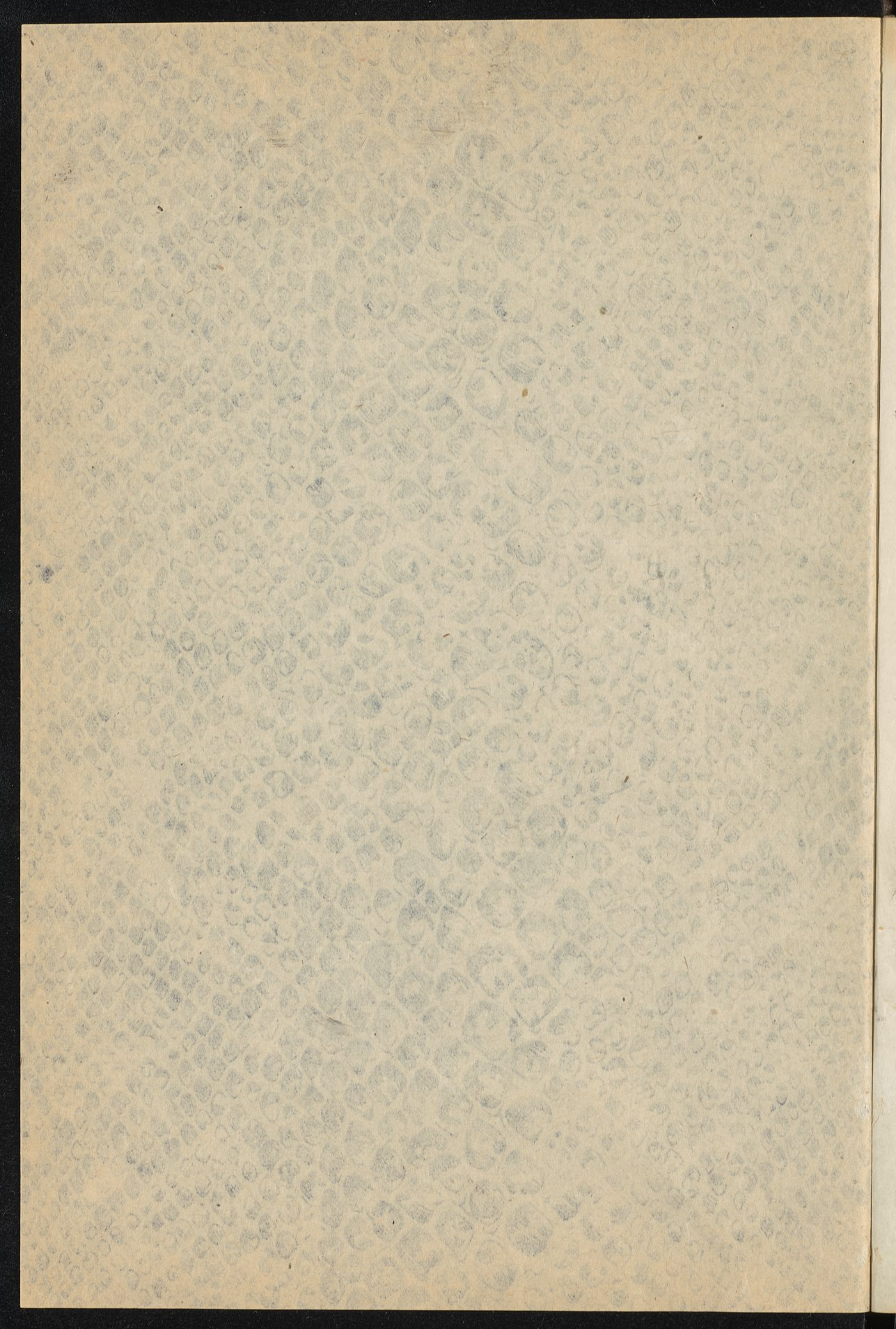
(و)

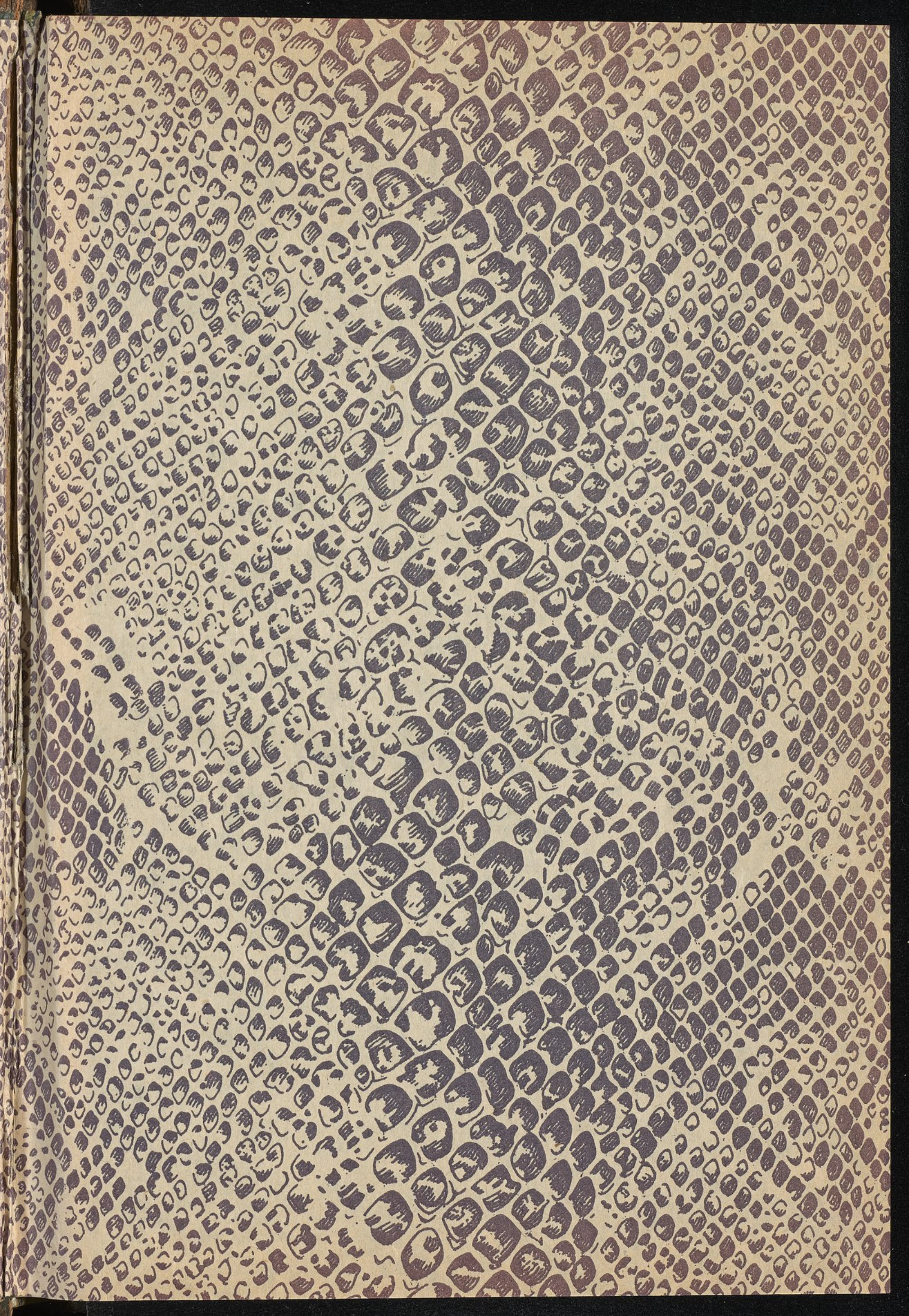
وفيات الأعيان : ابن خلكان (أحمد بن محمد — ٦٨١هـ) ١٢٨٣ م — القاهرة ١٢٧٥ — بولاق .
الولاة وكتاب القضاة : الكندى (محمد بن يوسف ٣٥٠ هـ) ٩٦١ م — بيروت ١٩٠٨ — ط . رفن گست .

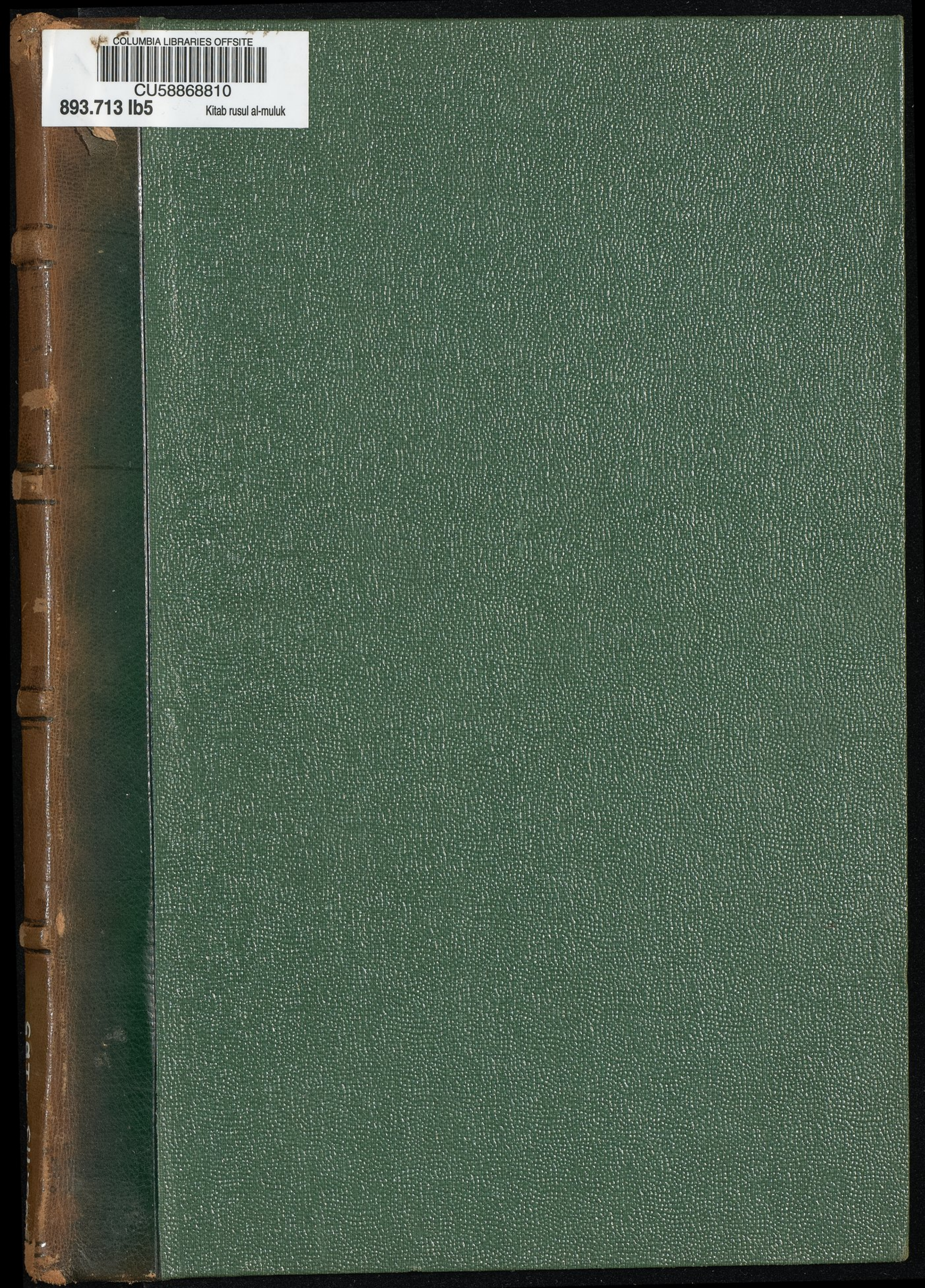
أهم الأخطاء وتصحيحها

ص	س	الخطأ	الصواب
٣	٢٧	١٥٦٠	١٦٠٠
٧	٨	الـكتاب مقصور	الـكتاب (١٦ آ) مقصور
١٢	١٠	فقال هذا ...	قال الرسول : هذا ...
١٧	٢١	٢ — رسائل الملوك	٢ — رسل الملوك
١٩	١٧	يعضِىْ	يعضى
١٩	٢١	سورة النحل / ١٧٦	سورة النحل / ٧٦
٢٢	١٣	[منّ]	[مَنْ]
٢٢	٢٣	من يحضر رسالته	يحضر رسالته
٢٣	١٨	المعنى يها	المعنى بها
٢٧	١١	وشدته : رخاؤه	وشدته ورخاؤه
٣٣	١٣	وهو دليله على	وهو دليل الملك على
٣٤	٢٠	Basils	Basile
٣٤	٢٣	Thèofhile	Théophile
٣٤	٢٥	Illnshée	Illustré
٣٧	٥	اجتياح	احتياج
٣٨	٢٠	1ح	12
٣٨	٣١	173	1 : 173
٣٩	٢٦	البلذان	البلدان
٤٢	١٥	Nicefhore	N cephore
٤٦	٢٣	هذه الرقعة ... » مختلفة	هذه الرقعة ... »
٦٩	١٠	Guernero	Guerrero
٧٠	٤	لتمثيل	التمثيل
٧٨	١٤	lettre	Lettre
٧٨	١٤	فتتصمن	فتتضمن
٨١	٢٤	وسل	رسل
٩٩	١٦	Mannet	Monnet
١٠٥	٢٠	Mohsmétisme	Mohamétisme
١٠٦	٦	تناصر	تناحر
١٠٨	٢٥	(٤)	(٣)
١١١	٧	وشهد الناس	وشهد له الناس
١١٤	٤	خطا من خطوط	حظاً من حظوظ
١١٦	٧	(٨٦٠)	(٨٦)
١١٦	١٤	محفظ	يحفظ

ص	س	الخطأ	الصواب
١٢٧	٣	لم يكن بداً	لم يكن منه بد
١٣٠	٣	وفى زمن	وأما فى زمن
١٣٣	٢٤	Inostrancey	Inostrancere
١٣٣	٢٤	Califa	Califat
١٣٨	٤	الرسلول	الرسول
١٣٩	٩	الأشراف	الأشرف
١٣٩	٢٣	١٤ / ٦٨	١٤ / ٦٧ — ٦٨
١٤٢	١٣	يتسدد	سيسدّد
١٤٢	١٥	عدة	عُدَد
١٥٩	٢٣	dee	de
١٥٩	٢٣	Byzantine	Byzantin






COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58868810
893.713 Ib5
Kitab rusul al-muluk